سورة الشورى

خمسون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن
فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

اعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح معلوم، إلا أن في هذا الموضع سؤالين زائدين: الأول: أن يقال: إن هذه السور السبعة مصدرة بقوله: ﴿حمٓ﴾ فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد ﴿عٓسٓقٓ﴾؟ الثاني: أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] وهاهنا يُفصل بين ﴿حمٓ﴾ وبين ﴿عٓسٓقٓ﴾ فما السبب فيه؟

واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق، وفَتْح باب المجازفات مما لا سبيل إليه، فالأَوْلى أن يفوض علمها إلى الله. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: (حم، عسق).

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ فالكاف معناه المثل وذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فيكون المعنى: (مثل حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان:

الأول: نُقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (لاَ نَبِيَّ صَاحِبَ كِتَابٍ إلاَّ وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ حم عسق) وهذا عندي بعيد.

الثاني: أن يكون المعنى: مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى الذين من قبلك. وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في التوجه إلى الآخرة، والذي يؤكد هذا أنا بينا في سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أن أولها في تقرير التوحيد، وأوسطها في تقرير النبوة، وآخرها في تقرير المعاد، ولما تم الكلام في تقرير هذه المطالب الثلاثة قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] يعني أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة،

فكذلك هاهنا يعني مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء. والمراد بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية، قال صاحب (الكشاف): ولم يقل أوحي إليك، ولكن قال: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرأ ابن كثير: (كذلك يُوحَى) بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله، وهي إحدى الروايتين عن أبي عمرو، وعن بعضهم (نوحي) بالنون، وقرأ الباقون ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ بكسر الحاء، فإن قيل: فعلى القراءة الأولى ما رافع اسم الله تعالى؟ قلنا: ما دل عليه بوحى، كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله. ونظيره قراءة السلمي: (وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)[الأنعام: ١٣٧] على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم، فإن قيل: فما رافعه فيمن قرأ (نوحي) بالنون؟ قلنا: يرفع بالابتداء، والعزيز وما بعده أخبار، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان والظرف خبره. ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بَيَّن أن الموحي من هو فقال: إنه هو العزيز الحكيم، وقد بينا في أول سورة حم المؤمن أن كونه عزيزًا يدل على كونه قادرًا على ما لا نهاية له، وكونه حكيمًا يدل على كونه عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن جميع الحاجات، فيحصل لنا من كونه عزيزًا حكيمًا كونه قادرًا على جميع المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًّا عن جميع الحاجات، ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابًا، وكانت مبرأة عن العيب والعبث، قال مصنف الكتاب: قلت في قصيدة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْآلاَءِ وَالنِّعَمِ ... وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ
مُنَزَّهِ الْفِعْلِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ عَبَثٍ ... مُقَدَّسِ الْمُلْكِ عَنْ عَزْلٍ وَعَنْ عَدَمِ

والصفة الثالثة: قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال: أحدهما: كونه موصوفًا بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها، بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال. والثاني: أنه لما بيّن بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو مُلكه ومِلكه، وجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض، وإلا لزم كونه مِلكًا لنفسه، وإذا ثبت أنه ليس في شيء من السموات امتنع كونه أيضًا في العرش؛ لأن كل ما سماك فهو سماء، فإذا كان العرش موجودًا فوق السموات كان في الحقيقة سماء، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلاً في العرش ملكًا لله ومِلكًا له، فوجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في العرش، وإن قالوا: إنه تعالى قال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وكلمة (ما) لا تتناول من يعقل. قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن لفظة (ما) واردة في حق الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[الشمس: ٥، ٦] وقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[الكافرون: ٢، ٣] والثاني: أن صيغة (من) وردت في مثل هذه السورة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم: ٩٣] وكلمة (من) لا شك أنها واردة في حق الله تعالى، فدلّت هذه الآية على أن كل

من في السموات والأرض فهو عبد الله، فلو كان الله موجودًا في السموات والأرض وفي العرش، لكان هو من جملة من في السموات، فوجب أن يكون عبد الله، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجودًا في السموات والعرش فهو عبد لله، وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزّهًا عن الكون في المكان والجهة والغرش والكرسي.

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد بكونه عليًّا العلو في الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم؛ لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفًا من الأجزاء والأبعاض، وذلك ضد قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فوجب أن يكون المراد من العلي: المتعالي عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات، ومن العظيم: العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية.

ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (تَكادُ) بالتاء (ينفطرن) بالياء والنون، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة (تكادُ) بالتاء (يَتَفَطَّرْنَ) بالياء والتاء، وقرأ نافع والكسائي: (يَكَادُ) بالياء (تتفطرن) أيضًا بالتاء، قال صاحب (الكشاف): وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة (تَتَفَطَّرْنَ) بالتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر روي في نوادر ابن الإعرابي: الإبل تتشمسن.

المسألة الثانية: في فائدة قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وجوه: الأول: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال: والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها.

واعلم أن هذا القول سخيف، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه، ويدل على فساده وجوه: الأول: أن قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ لا يُفهم منه ممن فوقهن. وثانيها: هب أنه يُحمل على ذلك، لكن لمَ قلتم: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها، ولمَ لا يجوز أن يقال: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها، كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ**»(١) وثالثها: لمَ لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالإلهية والقهر والقدرة؟ فثبت

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الشيباني في (الآحاد والمثاني) (١/ ٤٢٢)، حديث رقم (٥٩٧).

قال: حدثنا محمد بن يحيى بن ميمون العتكي، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد... به. والبزار في (مسنده) (٨/ ١٧٧)، حديث رقم (٣٢٠٨) من طريق صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام... به، والطبراني في (الكبير) (٣/ ٢٠١)، حديث رقم (٣١٢٢) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والأصبهاني في (العظمة) (٣/ ٩٨٦)، حديث رقم (٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١/ ٢٥٨)، حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٢/ ٢١٧) من طريق محمد بن يزيد قال: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء... به، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ١٣٤)، حديث رقم (١٠٦٠).

بهذه الوجوه أن القول الذي ذكروه في غاية الفساد والركاكة. والوجه الثاني في تأويل الآية: ما ذكره صاحب (الكشاف): وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات، وكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك فقُلب فجُعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، ودع الجهة التي تحتهن، ونظيره في المبالغة قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[الحج: ١٩، ٢٠] فجعل مؤثرًا في أجزائه الباطنة. الوجه الثالث في تأويل الآية: أنه يقال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين؛ لأنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين. والوجه الرابع في التأويل: أن يقال: معنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها، وتلك الجهة هي فوق، فقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة الفوقانية التي هن فيها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذه الهيئة لمَ حصلت؟ وفيه قولان: الأول: أنه تعالى لما بيّن أن الموحي لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم، بيّن وصف جلاله وكبريائه، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من هيبته وجلالته. والقول الثاني: أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[مريم: ٩٠]، وهاهنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله؛ لقوله بعد هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والصحيح هو الأول. ثم قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان: عالم الجسمانيات وأعظمها السموات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ: ٣٧] ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨] فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا ترتيب شريف وبيان باهر.

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام، ومتأثر لا يؤثر، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة، وهو المرتبة المتوسطة، إذا عرفت هذا فنقول: الجواهر الروحانية لها تعلقان: تعلق بعالم الجلال والكبرياء، وهو تعلق القبول، فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية، إذا أشرقت على الجواهر الروحانية

استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات، وإذا كان كذلك فلها وجهان: وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال، ووجه إلى عالم الأجسام، والوجه الأول أشرف من الثاني.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء، وقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الأجسام، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها، وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق، إذا عرفت هذا فنقول: أما الجهة الأولى: وهي الجهة العلوية المقدسة، فقد اشتملت على أمرين: أحدهما: التسبيح، وثانيهما: التحميد؛ لأن قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يفيد هذين الأمرين، والتسبيح مقدم على التحميد؛ لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضًا لكل الخيرات، وكونه منزّهًا في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضًا للخيرات والسعادات؛ لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره؛ فلهذا السبب كان التسبيح مقدمًا على التحميد، ولهذا قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وأما الجهة الثانية: وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات، فالإشارة إليها بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها. فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير، فإن قيل: كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار؟ وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم؟، قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ لا يفيد العموم؛ لأنه يصح أن يقال: إنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال: إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض، ولو كان قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ صريحًا في العموم لما صح ذلك التقسيم.

الثاني: هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حام المؤمن فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثالث: يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. الرابع: يجوز أن يقال: إنهم يستغفرون لكل من في الأرض، أما في حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم، وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم، فإنا نقول: اللّهم اهد الكافرين وزيّن قلوبهم بنور

الإيمان، وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر. وهذا في الحقيقة استغفار.

واعلم أن قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم، عَلِمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب، والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذي لا ذنب له ألبتة أفضل ممن له ذنب، وأيضًا فقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء في جملة من في الأرض، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم.

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر، إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى، وبيانه من وجوه: الأول: أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خَلَق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة، ولولا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي، وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب، وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى. الثاني: أن الملائكة قالوا في أول الأمر: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ثم في آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن في الأرض، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجودًا في الأول والآخر، فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى. الثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض، ولم يَحْكِ عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها، ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده، وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء هاهنا قد سبق ذكره، وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الشورى: ٦] يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظًا عليهم ولست وكيلاً عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتكون نذيرًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لتنذر أهل أم القرى؛ لأن البلد لا تَعقل، وهو كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] وأم القرى أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان، ومَن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر، والإنذار: التخويف، فإن قيل: فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين. الجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصة، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨] يدل على كونه رسولاً إلى كل العالمين، أيضًا لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقًا، ثم إنه نُقل إلينا بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين.

ثم قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ الأصل أن يقال: أنذرت فلانًا بكذا، فكان الواجب أن يقال: لتنذر أم القرى بيوم الجمع. وأيضًا فيه إضمار والتقدير: لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع. وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخلائق يُجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[التغابن: ٩] فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض. الثاني: أنه يُجمع بين الأرواح والأجساد. الثالث: يُجمع بين كل عامل وعمله. الرابع: يُجمع بين الظالم والمظلوم. وقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ تقديره: ليوم الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يقتضي كون القوم مجتمعين، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ يقتضي كونهم متفرقين، والجمع بين الصفتين محال، قلنا: إنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمراد تقرير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ

﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الإيمان، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك، ولكنه جعل البعض مؤمنًا والبعض كافرًا، فقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ يدل على أنه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة، وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا في رحمته؛ لأنه كان لهم ولي ونصير أدخلهم في تلك الرحمة، وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء، ثم قال بعده لمحمد ﷺ: لست عليهم رقيبًا ولا حافظًا، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا، فإن هذا المعنى لو كان واجبًا لفعله الله؛ لأنه أقدر منك، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار، فإن قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدر، كأنه قال: إن أرادوا أولياء بحق، فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه؛ لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًّا دون من لا يقدر على شيء.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى كما مَنَع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهرًا، فكذلك مَنَع المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخصومات والمنازعات فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين، وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم، فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته، وقيل: وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا تصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى عمله كحقيقة الروح، فقولوا: الله أعلم به، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

المسألة الثانية: تقدير الآية كأنه قال: قل يا محمد ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

المسألة الثالثة: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه، والثاني باطل لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس بأنه باطل فيعتبر الأول، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالنص، وذلك ينفي العمل بالقياس، ولقائل أن يقول: لمَ لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يُعرف من بيان الله تعالى، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس؟ أجيب عنه: بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف، والرجوع إلى القياس يقوي حكم الاختلاف ولا يوضحه، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي ذلكم الحاكم بينكم هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في دفع كيد الأعداء وفي طلب كل خير ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي وإليه أرجع في كل المهمات، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يفيد الحصر، أي لا أتوكل إلا عليه، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليًّا.

ثم قال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرئ بالرفع والجر، فالرفع على أنه خبر ذلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ من جنسكم من الناس ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي خلق من الأنعام أزواجًا، ومعناه وخلق أيضًا للأنعام من أنفسها أزواجًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق، أي كثرهم، وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين، إلا أنه غَلَّب فيه جانب الناس من وجهين: الأول: أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء. الثاني: أنه غلَّب فيه جانب المخاطبين على الغائبين، فإن قيل: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير، ولِمَ لم يقل يذرؤكم به؟ قلنا: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير، ألا ترى أنه يقال للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذه الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: احتج علماء التوحيد قديمًا وحديثًا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسمًا مركبًا من الأعضاء والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة، وقالوا: لو كان جسمًا لكان مثلاً لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر، فيقال: إما أن يكون المراد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ في ماهيات الذات، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالِمين قادرين، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئًا من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسمًا، لكان كونه جسمًا ذاتًا لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية، أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذٍ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتًا، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسمًا.

واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بـ(التوحيد)، وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد

حذف التطويلات؛ لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل، فقال: «نَحْنُ نُثْبِتُ لِلَّهِ وَجْهًا وَنَقُولُ: إِنَّ لِوَجْهِ رَبِّنَا مِنَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، مَا لَوْ كُشِفَ حِجَابُهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ، وَوَجْهُ رَبِّنَا مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْهَلاَكُ وَالْفَنَاءُ، وَنَقُولُ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْهَلاَكَ وَالْفَنَاءَ، وَنَفَى عَنْهَا الْجَلاَلَ وَالإِكْرَامَ، غَيْرَ مَوْصُوفَةٍ بِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، وَلَوْ كَانَ مُجَرَّدُ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ لَكَانَ مَنْ قَالَ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا وَلِلْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلاَبِ وُجُوهًا، لَكَانَ قَدْ شَبَّهَ وُجُوهَ بَنِي آدَمَ بِوُجُوهِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلاَبِ. ثُمَّ قَالَ: وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ اعْتِقَادُ الْجَهْمِيَّةِ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ: وَجْهُكَ يُشْبِهُ وَجْهَ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ لَغَضِبَ وَلَشَافَهَهُ بِالسُّوءِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ لِلَّهِ إِثْبَاتُ التَّشْبِيهِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ».

وذكر في فصل آخر من هذا الكتاب: «أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى وُقُوعِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْهَا أَنْ يكون القائل مشبهًا فكذا هاهنا». ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء: فالأول: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال في حق الإنسان ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، الثاني: قال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال في حق المخلوقين ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩] الثالث: قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال في حق المخلوقين: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] الرابع: قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال في حق المخلوقين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] الخامس: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال في الذين يركبون الدواب: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] وقال في سفينة نوح: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤]، السادس: سمى نفسه عزيزًا فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، السابع: سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضًا بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠] وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وسمى نفسه بالجبار المتكبر، وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ثم طوَّل في ضرب الأمثلة من هذا الجنس، وقال: ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه الإكثار منها. فهذا ما أورده هذا الرجل في هذا الكتاب.

وأقول: هذا المسكين الجاهل إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين، وعلماء التوحيد حققوا الكلام في المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية، فنقول: المثلان

هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول: المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية، وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به، وذلك معلوم بالبديهة، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة، فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة، وأيضًا نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات. إذا عرفت هذا فنقول: اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة؛ لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكنًا ثم يصير متحركًا، ثم يسكن بعد ذلك، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد، والصفات متعاقبة متزايلة، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات، إذا عرفت هذا فنقول: الأجسام التي منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس، وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون: إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية، فثبت أن الكلام الذي أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام، وما كان يعرف أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها.

بقي هاهنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة؟

فنقول لنا هاهنا مقامان:

المقام الأول: أن نقول: هذه المقدمة إما أن تكون مُسلَّمة أو لا تكون مُسلَّمة، فإن كانت مُسلَّمة فقد حصل المقصود، وإن كانت ممنوعة، فنقول: فلمَ لا يجوز أن يقال: إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي، ويكون ذلك الجسم مخالفًا لماهية سائر الأجسام فكان هو قديمًا أزليًا واجب الوجود، وسائر الأجسام محدثة مخلوقة، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه؟ فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة. فيقال: هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به.

والمقام الثاني: أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات الحقيقة، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسمًا لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام، إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل: أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثًا مخلوقًا قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق. وأما النقل فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة، إلا أنا نقول: لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كانت ذاته جسمًا لكان ذلك الجسم مساويًا لسائر الأجسام في تمام الماهية، وحينئذٍ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي، لا اعتبار الصفات القائمة بها. فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة، وأن هذه الكلمات التي أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيدًا عن معرفة الحقائق، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التي ذكرها، ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

المسألة الثانية: في ظاهر هذه الآية إشكال، فإنه يقال: المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله، فإنه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا: إن العرب تقول: (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل. فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه، ويقول الرجل: (هذا الكلام لا يقال لمثلي) أي لا يقال لي. قال الشاعر:

وَمِثْلِي كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ[(١)]

والمراد منه المبالغة فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفيًا عمن كان مشابهًا بسبب كونه مشابهًا له، فلأن يكون منتفيًا عنه كان ذلك أَوْلى، ونظيره قولهم: سلام على المجلس العالي، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعًا على مجلسه وموضعه، فلأن يكون واقعًا عليه كان ذلك أَوْلى، فكذا ههنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطًا عديم الأثر، بل كان مفيدًا للمبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء. قال: لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ معناه ليس مثل مثله شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء. وعندي فيه طريقة أخرى، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزّهًا عن المثل، وتقريره أن يقال: لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه، وهذا محال، فإثبات المثل له محال، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر، وأما بيان أن هذا محال

---

(١) هذا شطر البيت الأول ضمن قصيدة من البحر المتقارب لأوس بن حجر، وتقدم ترجمته.

فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساويًا لمثله في تلك الماهية ومباينًا له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، فتكون ذات كل واحد منهما مركبًا، وكل مركب ممكن، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان هو في نفسه واجب الوجود، إذا عرفت هذا: فقوله (ليس مثله مثله شيء) إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئًا بناءً على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان واجب الوجود، فهذا ما يحتمله اللفظ.

المسألة الثالثة: هذه الآية دالة على نفي المثل، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] يقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما، فنقول: المثل هو الذي يكون مساويًا للشيء في تمام الماهية، والمثل هو الذي يكون مساويًا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفًا في تمام الماهية.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه تعالى سامعًا للمسموعات مبصرًا للمرئيات، فإن قيل: يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره؛ وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابًا يعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئي، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة، وذلك على الله محال، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز. والجواب: الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة أنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أي الجوانب جاء، فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء. وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه، فنقول: الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع، وإذا ثبت هذا فنقول: لا يلزم من امتناع التأثر في حق الله امتناع السمع والبصر في حقه، فإن قالوا: هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق الله تعالى ممتنعًا كان حصول السمع والبصر في حق الله ممتنعًا. فنقول: ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه سميعًا بصيرًا، فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر، والتأثر في حق الله تعالى ممتنع، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعًا، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه، فإن قال قائل: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر، مع أن العباد أيضًا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟ فنقول: السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على

سبيل الكمال، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى فاطر السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فله مقاليد السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في المعبودية؟ فقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض، فمقاليد السموات الأمطار، ومقاليد الأرض النبات، وذكرنا تفسير المقاليد في سورة الزمر عند قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢] لأن مفاتيح الأرزاق بيده ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من البسط والتقدير ﴿عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عظَّم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والمعنى: شَرَع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر

لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات: أحدها: أنه قال في أول الآية: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وفي آخرها: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وفي الوسط: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت؟ وثانيها: أنه ذكر نوحًا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وثالثها: أنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك. فقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ خطاب الغيبة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال: شرع لكم من الدين دينًا تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول: يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئًا مغايرًا للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] واحتج بعضهم بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثًا بشريعة نوح عليه السلام، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء، وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل، ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: ما ذاك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظُم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع، بدليل أن الكفار قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج نفاة القياس بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع، والله تعالى ذكر في معرض المنّة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة، ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقًا لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرمًا ممنوعًا عنه.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين، منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. ودلت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني؛ لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مُشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه: الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد، قويَ التأثير. الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها مُعِينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود. الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أمَر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه، بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير؛ لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة. الثاني: أنه إنما كَبُرَ عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرًا وأنفة، فبيّن تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء في الحوض، فقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ثم قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وهو كما روي في الخبر «**مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[١] أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي، بأن أشرح له صدره وأُسهل أمره.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه أمَر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء)، باب: (فضل الذكر والدعاء والقرب إلى الله تعالى) (٤/ ٢٠٦٨/ ٢٦٨٧). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر... به. وابن ماجه في كتاب (الأدب)، باب: (فضل العمل) (٢/ ١٢٥٥)، حديث رقم (٣٨٢١)، من طريق وكيع عن الأعمش.. به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٦٩)، حديث رقم (٢١٥٢٦)، قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش... به، والبزار في (مسنده) (٩/ ٤٠٣)، حديث رقم (٣٩٩٩) من طريق المعرور عن أبي ذر... به.

يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبعية، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقَبَّح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب؛ لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى، أي وقتًا معلومًا، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة. واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود والنصارى، والدليل قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال في سورة لم يكن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأن قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ لائق بأهل الكتاب. وقال آخرون: إنهم هم العرب. وهذا باطل للوجوه المذكورة، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ لا يليق بالعرب؛ لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ: ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من كتابهم ﴿مُرِيبٖ﴾ لا يؤمنون به حق الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ يعني فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أَمَرك الله، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي بأي كتاب صح أن الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ونظيره قوله: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] ثم قال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليَّ، قال القفال: معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، لكني أسوي بينكم وبين نفسي، وكذلك أسوي بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمعنى أن إله الكل واحد، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه، فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه، فإن الله يجمع بين الكل في يوم القيامة ويجازيه على عمله، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه، فإن قيل: كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلنا: هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء، ودَخَل فيه التوحيد، وترك عبادة الأصنام،

والإقرار بنبوة الأنبياء، وبصحة البعث والقيامة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذٍ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

واعلم أنه ليس المراد من قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ تحريم ما يجري مجرى محاجتهم، ويدل عليه وجوه: الأول: أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض. والثاني: أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف. الثالث: أن الدليل يفيد العلم، وذلك لا يمكن تحريمه، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ، وإنما تركوا تصديقه بغيًا وعنادًا، فبيّن تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لأنهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى المحاجة ألبتة، ومما يقوي قولنا أنه لا يجوز تحريم المحاجة - قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢] وقوله ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ أي باطلة. وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا: ألستم تقولون: إن الأخذ بالمتفق أَوْلى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقًا عليها، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أَوْلى، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أَوْلى، فبيّن تعالى أن هذه الحجة داحضة، أي باطلة فاسدة؛ وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام، واليهود شاهدوا تلك المعجزات، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته، وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة - يكون متناقضًا. ولما قرر الله هذه الدلائل خَوَّف المنكرين بعذاب القيامة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم، ومتى كان الأمر كذلك، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر في ذلك، وأنهم ما رأوا منه أثرًا، قالوا على سبيل السخرية: فمتى تقوم القيامة، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه. فلدفع هذه الشبهة قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ والمعنى

ظاهر، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة، وأما منكر البعث فلأنه لا يحصل له هذا الخوف.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ والمماراة الملاجة، قال الزجاج: الذين تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة، فيمارون فيها ويجحدون ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى، وهذا من أمحل المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيدًا.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي كثير الإحسان بهم، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله بعباده، وأيضًا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضًا من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم، لا جرم حسن ذكره ههنا، ثم قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُدافَع.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كونه لطيفًا بعباده كثير الإحسان إليهم، بيّن أنه لا بد لهم من أن يسعوا

في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قال صاحب (الكشاف): إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة - حرثًا على سبيل المجاز.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أظهر الفرق في هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه: الأول: أنه قَدَّم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا، وذلك يدل على التفضيل؛ لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه في الذكر تنبيهًا على قوله «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ**» الثاني: أنه قال في مريد حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وكلمة (مِن) للتبعيض، فالمعنى أنه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله، وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وأقول: البرهان العقلي مساعد على البابين، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر، كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر، وذلك هو المراد بقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر، كانت رغبته في الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها أشد، وإذا كان الميل أبدًا في التزايد، وكان حصول المطلوب باقيًا على حالة واحدة، كان الحرمان لازمًا لا محالة. الثالث: أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا، بل بقي الكلام ساكتًا عنه نفيًا وإثباتًا، وأما طالب حرث الدنيا فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئًا من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يدل على التفاوت العظيم، كأنه يقول: الآخرة أصل والدنيا تبع، فواجد الأصل يكون واجدًا للتبع بقدر الحاجة، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهًا على أن الدنيا أخس من أن يُقرن ذكرها بذكر الآخرة. والرابع: أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه، وبيّن أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا، وأما في الآخرة فإنه لا يحصل له نصيب ألبتة، فبيّن بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبدًا في الترقي والتزايد، وبيّن بالكلام الثاني أن طالب الدنيا يكون حاله في المقام الأول في النقصان وفي المقام الثاني في البطلان التام. الخامس: أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد؛ لأن الناس يقولون: النقد خير من النسيئة. فبيّن تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالآخرة وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل، والدنيا وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل، فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا ألبتة، وأنه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس. السادس: الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة، بل لا بد في البابين من

الحرث، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية، فلما سمى الله كلا القسمين حرثًا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق، ثم بيّن تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وأن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء، فكأنه قيل: إذا كان لا بد في القسمين جميعًا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية، فلأن تُصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد والبقاء أَوْلى من صرفها إلى ما يكون في النقصان والانقضاء والفناء.

المسألة الثانية: في تفسير قوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قولان: الأول: المعنى أنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه. وقال مقاتل: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ بتضعيف الثواب، قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠] وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ هَمَّهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ هَمَّهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ عَنْ أَنْفِهَا»(١) أو لفظ يقرب من أن يكون هذا معناه.

المسألة الثالثة: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلّى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح. والجواب: أنه تعالى قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى.

المسألة الرابعة: قال أصحابنا: إذا توضأ بغير نية لم يصح. قالوا: لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة؛ لأن الكلام فيما إذا كان غافلاً عن ذكر الله وعن الآخرة، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة، فوجب أن لا يحصل في الوضوء العاري عن النية.

واعلم أن الله تعالى لما بيّن القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا، أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ومعنى الهمزة في (أم) التقرير والتقريع و﴿شُرَكَٰٓؤُهُمْ﴾ شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها، وقيل: ﴿شُرَكَٰٓؤُهُمْ﴾ أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله، ولما كان سببًا لضلالتهم جُعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ

---

(١) ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٧٥)، حديث رقم (٤١٠٥)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٨٣)، حديث رقم (٢١٦٣٠)، والطبراني في (الكبير) (٥/ ١٤٣)، حديث رقم (٤٨٩١)، جميعًا من طريق عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت . . . به، ورواه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٤٢)، حديث رقم (٢٤٦٥) من طريق الربيع بن صبيح، عن يزيد بن أبان وهو الرقاشي، عن أنس بن مالك . . . به.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين لله، ثم قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، أو يقال: ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرأ بعضهم: (وأن) بفتح الهمزة في (أن) عطفًا له على كلمة الفصل، يعني ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ وأن تقريره تعذيب الظالمين في الآخرة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا. ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب، أما الأول: فهو قوله ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا، أما الثاني: فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها، وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وهي البقاع الشريفة من الجنة، فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة، ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه - إنما كان جزاءً على الإيمان والأعمال الصالحات. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ (يبشِّر) من بشَّره (ويُبْشِر) من أبشره (ويَبْشُر) من بشره.

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه: الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر. الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال: ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها.

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالي وأودع فيه الثلاثة أقسام

الدلائل وأصناف التكاليف، ورتب على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب، بَيَّن أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعًا عاجلاً ومطلوبًا حاضرًا؛ لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال:

الأول: قال الشعبي: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿أَجْرًا إِلَّا﴾ أن تودوني لقرابتي منكم، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليَّ.

والقول الثاني: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم. ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي على الإيمان إلا أن تودوا أقاربي. فحثهم على مودة أقاربه.

القول الثالث: ما ذكره الحسن فقال: إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح. فالقربى على القول الأول القرابة التي هي بمعنى الرحم، وعلى الثاني القرابة التي هي بمعنى الأقارب، وعلى الثالث هي فُعْلى من القرب والتقريب. فإن قيل: الآية مشكلة، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحي لايجوز، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم صرّحوا بنفي طلب الأجرة، فذكر في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وكذا في قصة هود وصالح، وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى. الثاني: أنه ﷺ صرح بنفي طلب الأجر في سائر الآيات فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧] وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. الثالث: العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجبًا عليه، قال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس، فضلاً عن أعلم العلماء. الرابع: أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى في صفة الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال في صفة الدنيا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فكيف يحسن في العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء؟! الخامس: أن طلب الأجر كان يوجب التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة،

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب أجرًا ألبتة على التبليغ والرسالة، وظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجرًا على التبليغ والرسالة، وهو المودة في القربى. هذا تقرير السؤال. والجواب عنه: أنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة، بقي قوله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن هذا من باب قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أن سيوفهم بها من قراع الدارعين فُلُولُ[1]

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس أجرًا لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُونَ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2] والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبًا فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تقديره: والمودة في القربى ليست أجرًا، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر ألبتة. الوجه الثاني في الجواب: أن هذا استثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي لكن أُذكركم قرابتي منكم. وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر.

المسألة الثالثة: نقل صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر العشاري، وهو حسين بن علي بن حسن بن محمد بن فارس العشاري البغدادي الشافعي نجم الدين أبو عبد الله. ١١٥٠ - ١١٩٥هـ/ ١٧٣٧ - ١٧٨٠م، يعود أصله إلى العشارة وهي بلدة تقع على ضفة نهر الخابور، وكانت تابعة في العهد العثماني إلى لواء دير الزور، وُلد وتعلم ببغداد، وفي تاريخ ولادته خلاف إذ وجد رسالة كتبها باسم والي بغداد إلى الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ١١٦٥هـ وهي بالتالي تناقض التاريخ الذي ذكره المرادي أنه ولد سنة ١١٥٠ هـ.

وكان من أساتذته الشيخ جمال الدين عبد الله بن حسين السويدي البغدادي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ وولده الشيخ عبد الرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠هـ وكان خطه جميلاً نسخ به كثيرًا من الكتب.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المساجد)، باب: (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره) (١/ ١٨٢)، حديث رقم (٤٦٦). قال: حدثنا خلاد بن يحيى قال: حدثنا سفيان عن أبي بردة بن عبد الله... به، وفي كتاب (المظالم)، باب: (نصر المظلوم) (٢/ ٨٦٣)، حديث رقم (٢٣١٤). قال: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة عن بريد... به، وفي كتاب (الأدب)، باب: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا) (٥/ ٢٢٤٢)، حديث رقم (٥٦٨٠). قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن أبي بردة.. به، ومسلم في كتاب (البر والصلة)، باب: (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عامر الأشعري قالا: حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة، (ح) وحدثنا محمد بن العلاء أبو كريب، حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة، كلهم عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ.. الحديث بلفظ (المؤمن للمؤمن).

كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»(١). هذا هو الذي رواه صاحب (الكشاف)، وأنا أقول: آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعليًّا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضًا اختلف الناس في الآل: فقيل: هم الأقارب. وقيل: هم أمته. فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضًا آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه. وروى صاحب (الكشاف) أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: «علي وفاطمة وابناهما»(٢)، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق. الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام، قال ﷺ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا»(٣) وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا وآل

---

(١) **باطل موضوع**: رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٦) من طريق يعقوب بن يوسف بن إسحاق، حدثنا محمد بن أسلم الطوسي، حدثنا يعلى بن عبيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وأورده ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة) (٢/ ٦٦٤). وقال: قال الحافظ السخاوي: وآثار الوضع كما قال شيخنا أبي الحافظ ابن حجر لائحة عليه. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٩٢٠). وقال: باطل موضوع.

(٢) أورده الزمخشري في (تغير الكشاف) (٦/ ١٩١)، ورواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٢) من طريق برهان بن علي الصوفي، حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، حدثنا حرب بن الحسن الطحان، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... فذكره.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح)، باب: (ذب الرجل عن ابنته في الغيرة) (٥/ ٢٠٠٤)، حديث رقم (٤٩٣٢)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٢/ ٢٤٤٩)، كلاهما من طريق ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة... به.

محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي رضي الله عنه:

يَا رَاكِبًا قِفْ بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى وَاهْتِفْ بِسَاكِنِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ
سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مِنًى فَيْضًا كَمَا نَظْمِ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ
إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِي

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] فكل من أطاع الله كان مقربًا عند الله تعالى فدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنّة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة، وسمعت بعض المذكورين قال: إنه ﷺ قال: «**مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَ فِيهَا نَجَا**» (١) وقال ﷺ: «**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ**» (٢). ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب والثقب. والثاني: الكواكب

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٣/ ٤٥)، حديث رقم (٢٦٣٦)، قال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أبي جعفر... به، والبزار في مسنده (٩/ ٣٤٣)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ١٦٨)، ورواه البزار والطبراني في الثلاثة، وفي إسناد البزار الحسن بن أبي جعفر الجفري وفي إسناد الطبراني عبد الله بن زاهر، وهما متروكان.

(٢) **ضعيف**: أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٠). وقال: عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا ورواه الدارقطني في غرائب مالك من طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف، ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العَمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واهٍ ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل. وقال البيهقي في الاعتقاد عقب حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه مسلم بلفظ «النجوم أمنة أهل السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» قال البيهقي: روي في حديث موصول قوي. يعني حديث عبد الرحيم العمي، وفي حديث منقطع. يعني حديث الضحاك ابن مزاحم «مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء، من أخذ بنجم منها اهتدى» قال: والذي رويناه ههنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه. قلت: صدق البيهقي هو يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة، أما في الاقتداء فلا يظهر في حديث أبي موسى، نعم يمكن أن يتلمح ذلك من معنى الاهتداء بالنجوم، وظاهر الحديث إنما هو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن، وظهور البدع، وفشو الفجور في أقطار الأرض، والله المستعان.

الظاهرة الطالعة النيرة، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبًا، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة، فرجُوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولنرجع إلى التفسير: أورد صاحب (الكشاف) على نفسه سؤالاً فقال: هلا قيل: إلا مودة القربى، أو إلا مودة للقربى، وما معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ وأجاب عنه بأن قال: جعلوا مكانًا للمودة ومَقرًّا لها، كقوله (لي في آل فلان مودة) و(لي فيهم هوى وحب شديد)، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه، والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذُكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والشكور في حق الله تعالى مجاز، والمعنى أنه تعالى يُحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم، وفي أن يزيد عليه أنواعًا كثيرة من التفضيل.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ واعلم أن الكلام في أول السورة إنما ابتدئ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] واتصل الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهي قولهم: إن هذا ليس وحيًا من الله تعالى. فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قال صاحب (الكشاف): (أم) منقطعة، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل: أيقع في قلوبهم ويجري في ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذي هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها؟ ثم أجاب عنه بأن قال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال مجاهد: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر كذاب. والثاني: يعني بهذا الكلام أنه إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل هذه الحالة. والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين، لعلّ الله خذلني، لعلّ الله أعمى قلبي. وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق، فلو كان محمد مبطلاً كذابًا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله. ويجوز أن يكون هذا وعدًا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب، ويُثبت الحق الذي كان محمد ﷺ عليه.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة: يختم على قلبك: ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك.

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا، وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابًا عظيمًا، لا جرم ندبهم الله إلى التوبة وعرَّفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى (قبلته منه) أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه، ومعنى (قبلته عنه) أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة في سورة البقرة، وأقل ما لا بد منه الندم على الماضي، والترك في الحال، والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، وروى جابر أن أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: (اللّهم إني أستغفرك وأتوب إليك) وكبَّر، فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، فتوبتك تحتاج إلى توبة. فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة؟ فقال: اسم يقع على ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: يجب على الله تعالى عقلاً قبول التوبة. وقال أصحابنا: لا يجب على الله شيء، وكل ما يفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل. واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا: إنه تعالى تمَدَّح بقبول التوبة، ولو كان ذلك القبول واجبًا لما حصل التمدح العظيم، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلمًا ولا يقتلهم غضبًا، كان ذلك مدحًا قليلاً، أما إذا قال: إني أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب عليَّ. كان ذلك مدحًا وثناءً.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة، والأول باطل، وإلا لصار قوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ والتكرار خلاف الأصل، والثاني أيضًا باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يُتمدح به، فبقي القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة، وتارة يعفو ابتداء من غير توبة.

ثم قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة، والباقون بالياء على المغايبة، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئاته.

ثم قال: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ وفيه قولان: أحدهما: الذين

آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل، تقديره: ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه. والثاني: محله نصب والفاعل مضمر وهو الله، وتقديره: ويستجيب الله للمؤمنين. إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] وهذا الثاني أَوْلى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ما قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وما بعدها قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فيزيد عطف على (ويستجيب)، وعلى الأول: (ويجيب العبد ويزيد الله من فضله).

أما من قال: إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان: أحدهما: ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه. والثاني: يطيعونه فيما أَمَرهم به، والاستجابة: الطاعة.

وأما من قال: إن الفعل لله. فقد اختلفوا: فقيل: يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله، فإن قالوا: تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء اكفار؟ قلنا: قال بعضهم: لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم، وذلك لا يليق بالكفار، وقيل: يجوز على بعض الوجوه، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج. ثم قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والمقصود التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: إنه يجيب دعاء المؤمنين. وَرَدَ عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر، ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة، فكيف الحال فيه معَ ما تقدم من قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟ فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي، ولما كان ذلك محذورًا وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه. قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين: الأول: أن حاصل الكلام أنه تعالى لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، والبغي في الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا: إنه تعالى يريد البغي في الأرض،

وذلك يوجب فساد قول المجبرة. الثاني: أنه تعالى بيّن أنه إنما لم يُرد بسط الرزق لأنه يفضي إلى المفسدة، فلما بيّن تعالى أنه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريدًا للمفسدة كان أَوْلى، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن، فلا بد لها من فاعل، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله، والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها، فيعود السؤال في أنه مَن المُحدِث لذلك الميل الثاني؟ ويلزم التسلسل، وأيضًا فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى، ثم أورد الجبائي في (تفسيره) على نفسه سؤالاً قال: فإن قيل: أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى؟ وأجاب عنه بأن الذي عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغي على كل حال، سواء أعطي ذلك الرزق أو لم يعط. وأقول: هذا الجواب فاسد، ويدل عليه القرآن والعقل: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] حكم مطلقًا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان. وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أقل، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان.

المسألة الثانية: في بيان الوجه الذي لأجله كان التوسع موجبًا للطغيان، ذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن الله تعالى لو سَوَّى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادمًا للبعض، ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح. الثاني: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، أقدموا على النهب والغارة. الثالث: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر، فعاد إلى الطاعة والتواضع.

المسألة الثالثة: قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها. وقيل: نزلت في أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الرزق والغنى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (يُنْزِل) خفيفة والباقون بالتشديد، ثم نقول: (بقدر) بتقدير، يقال قدره قَدْرًا وقَدَرًا ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم، فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم. ولما بيّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم، بَيَّن أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿يُنَزِّلُ﴾ مشددة والباقون مخففة، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (قنطوا) بفتح النون وكسرها، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما

يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القَحطُ وقنط الناس!! فقال: «إِذَنْ مُطِرُوا» أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء، كأنه قيل: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة.

ثم ذكر آية أخرى تدل على إلـهيته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ فنقول: أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم، فقد ذكرناها، وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم، فإن قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحدًا منهم، يقال: بنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله واحد منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] الثاني: أن الدبيب هو الحركة، والملائكة لهم حركة. الثالث: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى خلق في السموات أنواعًا من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ قال صاحب (الكشاف): (إذا) تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة، لا لعجز ولكن لمصلحة؛ فلهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل على جمعها؛ لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة، فكأنه تعالى قال: وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير. واحتج الجبائي بقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على أن مشيئته تعالى محدثة بأن قال: إن كلمة (إذا) تفيد ظرف الزمان، وكلمة ﴿يَشَآءُ﴾ صيغة المستقبل، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة، ولما دل قوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على هذا التخصيص، علمنا أن مشيئته تعالى محدثة. والجواب: أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة، أي مشيئة الله، فقد دخلتا أيضًا على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادرًا صفة محدثة، ولما كان هذا باطلاً، فكذا القول فيما ذكره، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة، والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم، وتقدير الأول أن (ما) مبتدأ بمعنى الذي، وبـ(ما) كسبت خبره، والمعنى: والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم، وتقدير الثاني تضمين كلمة (ما) معنى الشرطية.

المسألة الثانية: المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها. واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا؟

منهم من أنكر ذلك لوجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ [غافر: ١٧]

بيّن تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيامة، وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الجزاء، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة. والثاني: أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصِّديق، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين، ولهذا قال ﷺ: «خُصَّ الْبَلَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَالْأَمْثَلِ»(١) الثالث: أن الدنيا دار التكليف، فلو جعل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معًا، وهو محال.

وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة، فقد تمسكوا أيضًا بما روي عن النبي ﷺ أن قال: «لَا يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ وَلَا غَيْرُهُ إِلَّا بِذَنْبٍ»(٢) أو لفظ هذا معناه، وتمسكوا أيضًا بهذه الآية، وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ﴾ [النساء: ١٦٠] وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤] وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم. وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء، ويُحمل قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم. وكذا الجواب عن بقية الدلائل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج أهل التناسخ بهذه الآية، وكذلك الذين يقولون: إن الأطفال والبهائم لا تتألم، فقالوا: دلّت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم. ثم إن أهل التناسخ قالوا: لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب في الزمان السابق، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا: قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناسخ، فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (الزهد)، باب: (في الصبر على البلاء) (٤/ ٥٢٠)، حديث رقم (٢٣٩٨) من طريق حماد بن زيد . . . به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الفتن)، باب (الصبر على البلاء) (٢/ ١٣٣٤)، حديث رقم (٤٠٢٣) من طريق حماد بن زيد . . . به، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٨١) من طريق سفيان . . . به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب: (في أشد الناس بلاء) (٢/ ٢٠٦)، حديث رقم (٢٧٨٣) من طريق سفيان عن عاصم . . . به، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٠)، والبيهقي في (السنن) (٣/ ٣٧٢)، جميعًا من طريق عاصم عن مصعب بن سعد عن سعد قال: ثم سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه . . .» الحديث.

(٢) ضعيف: رواه عبد الرزاق في (تفسيره) (٦/ ١٩٩)، حديث رقم (٢٦٥٣) من طريق الثوري عن إسماعيل عن الحسن . . . به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٦٥)، من طريق أبي معاوية الضرير عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن . . . به، ووكيع في (الزهد) (١/ ١٠٦/ ٩٠) من طريق رجل عن الحسن . . . به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٧٩٦). وقال: ضعيف.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ خطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال، ولم يقل تعالى: إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقتضي إضافة الكسب إلى اليد، قال: والكسب لا يكون باليد، بل بالقدرة القائمة باليد، وإذا كان المراد من لفظ اليد هاهنا القدرة، وكان هذا المجاز مشهورًا مستعملاً، كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهًا لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته.

وعن الحسن قال: دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد، فقيل له: إنا لنغتم لك من بعض ما نرى! فقال: لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إليَّ!! وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فهذا بما كسبت يداي، وسيأتيني عفو ربي!! وقد روى أبو سخلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «**مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ فِي الآخِرَةِ، وَمَا عَاقَبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعِيدَ الْعَذَابَ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ**»[1] رواه الواحدي في (البسيط)، وقال: إذا كان كذلك فهذه أرجى آية في كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كَفَّره عنهم بالمصائب في الدنيا، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، وهذه سنّة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافي ربه يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقول: ما أنتم معشر المشركين بمعجزين في الأرض، أي لا تعجزونني حيثما كنتم، فلا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ والمراد بهم من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة، والنصير هو الله تعالى، فلا جرم هو الذي تحسن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦

---

(١) لم أجده.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو (الجواري) بياء في الوصل والوقف، فإثبات الياء في الأصل وحذفها للتخفيف.

المسألة الثانية: الجواري، يعني السفن الجواري، فحذف الموصوف لعدم الالتباس.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضًا هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح، واعلم أن المقصود من ذكره أمران: أحدهما: أن يستدل به على وجود القادر الحكيم. والثاني: أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد. أما الوجه الأول: فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال، قالت الخنساء في مرثية أخيها[1]:

وَإِنَّ صخرًا لتأتم الهداة بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

ونُقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه، فلما وصل الراوي إلى هذا البيت، قال: «قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا رَضِيَتْ بِتَشْبِيهِهَا لَهُ بِالْجَبَلِ حَتَّى جَعَلَتْ عَلَى رَأْسِهِ نَارًا!». إذا عرفت هذا فنقول: هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال - تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه، وعند سكون هذه الرياح تقف، وقد بينا بالدليل في سورة النحل أن محرك الرياح ومُسكنها هو الله تعالى، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها، وذلك يدل على وجود الإله القادر، وأيضًا أن السفينة تكون في غاية الثقل، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء، وهو أيضًا دلالة أخرى. وأما الوجه الثاني: - وهو معرفة ما فيها من المنافع - فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس، حصلت المنافع العظيمة في التجارة؛ فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ لأن سكون الهمزة علامة للجزم، وعن ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ نافع وحده: (يسكن الرياح) على الجمع، والباقون ﴿ٱلرِّيحَ﴾ على الواحد، قال صاحب (الكشاف): قرئ (يظللن) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل، وقوله تعالى: ﴿رَوَاكِدَ﴾ أي رواتب، أي لا تجري على ظهره، أي على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾

(١) تقدمت ترجمة الخنساء.

لنعمائه، والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله ألبتة؛ لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء وإما في الآلاء، فإن كان في البلاء كان من الصابرين، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون ألبتة من الغافلين.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني أو يهلكهن، يقال أوبقه، أي أهلكه، ويقال للمجرم: أوبقته ذنوبه، أي أهلكته، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على قوله ﴿يُسْكِنِ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ معناه إن يشأ يهلك ناسًا ويُنج ناسًا عن طريق العفو عنهم، فإن قيل: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزومًا مثله، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم، وأما من قرأ: (ويعفو) فقد استأنف الكلام.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر: (يعلم) بالرفع على الاستئناف، وقرأ الباقون بالنصب، فالقراءة بالرفع على الاستئناف، وأما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا. والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] قال صاحب (الكشاف): ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين. إذا عرفت هذا فنقول: معنى الآية ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي ينازعون على وجه التكذيب، أن لا مخلص لهم إذا وقفت السفن، وإذا عصفت الرياح، فيصير ذلك سببًا لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله.

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها؛ لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها، فحينئذٍ ينتفع بذكر الدلائل فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وسماه متاعًا تنبيهًا على قلته وحقارته، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع، ونبّه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني. ثم بيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفًا بصفات:

الصفة الأولى: أن يكون من المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الصفة الثانية: أن يكون من المتوكلين على فضل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله، فلا يدخل تحت الآية.

الصفة الثالثة: أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش، عن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك. نقله صاحب (الكشاف) وهو عندي بعيد؛ لأن شرط الإيمان مذكور أولاً وهو يغني عن عدم الشرك، وقيل: المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية، وبقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة؛ فلهذا السبب خصّه بهذا اللفظ، والله أعلم.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ والمراد منه تمام الانقياد، فإن قالوا: أليس أنه لما جعل الإيمان شرطًا فيه فقد دخل في الإيمان إجابة الله؟ قلنا: الأقرب عندي أن يُحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور.

ولما ذكر هذا الشرط قال: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة، لأن هذا هو الشرط في حصول الثواب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فقيل: كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم، أي لا ينفردون برأي، بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم. والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمعنى أن يقتصروا في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء. فإن قيل: هذه الآية مشكلة لوجهين: الأول: أنه لما ذكر قبله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ الثاني: وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية. والجواب: أن العفو على قسمين: أحدهما: أن يكون العفو سببًا لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته. والثاني: أن يصير العفو سببًا لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني، وحينئذٍ يزول التناقض، والله أعلم، ألا ترى أن العفو عن المُصر يكون كالإغراء له

ولغيره؟ فلو أن رجلاً وجد عبده فجر بجاريته وهو مُصر، فلو عفا عنه كان مذمومًا، وروي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي ﷺ عنها فلم تنته، فقال النبي ﷺ: «دُونَكِ فَانْتَصِرِي»(١) وأيضًا إنه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة، ثم بيّن أن العفو أولى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فزال السؤال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ۝٤٥ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل، فإن النقصان حيف والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل وبه قامت السموات والأرض؛ فلهذا السبب قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: جزاء السيئة مشروع مأذون فيه، فكيف سمي بالسيئة؟ أجاب صاحب (الكشاف) عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الآخر على سبيل المجاز، أطلق اسم أحدهما على الآخر، والحق ما ذكره صاحب (الكشاف).

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٢٧)، حديث رقم (١٩٨١)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٩٣)، حديث رقم (٢٤٦٦٤)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١٩٦)، حديث رقم (٥٥٨)، وابن راهويه في (مسنده) (٣/ ١٠٣٠)، حديث رقم (١٧٨١)، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٥٣)، حديث رقم (١١٤٧٦)، جميعًا من طريق خالد بن سلمة عن البهي عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة. . . فذكره.

المسألة الثانية: هذه الآية أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها؛ وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يُزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم، والشرع منزّه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] وقوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله. ثم هاهنا دقيقة: وهي أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة، فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصور، وتُفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهًا على الباقي:

المثال الأول: احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يُقتل بالذمي وأن الحر لا يُقتل بالعبد، بأن قال: المماثلة شرط لجريان اللقصاص وهي مفقودة في هاتين المسألتين، فوجب أن لا يجري القصاص بينهما، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهي النصوص المذكورة، وكيفية الاستدلال بها أن نقول: إما أن نحمل المماثلة المذكورة في هذه النصوص على المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه الدليل، أو نحملها على المماثلة في أمر معين، والثاني مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور في الآية، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال، ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص، ومعلوم أن دفع الإجمال أَوْلى من دفع التخصيص، فثبت أن الآية تقتضي رعاية المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه دليل العقل ودليل نقلي منفصل، وإذا ثبت هذا فنقول: رعاية المماثلة في قتل المسلم بالذمي وفي قتل الحر بالعبد - لا تمكن؛ لأن الإسلام اعتبره الشرع في إيجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما في حق الكافر الأصلي، ولإبقائه عند وجوده كما في حق المرتد، وأيضًا الحرية صفة اعتبرها الشرع في حق القضاء والإمامة والشهادة، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص، وهي مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص.

المثال الثاني: احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تُقطع باليد الواحدة، فقال: لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص، وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه في حق كلهم أو بعضهم، قال بإيجابه على الكل، بقي أن يقال: فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجاني وهو ممنوع منه إلا أنا نقول: لما وقع التعارض بين جانب الجاني وبين جانب المجني عليه، كان جانب المجني عليه بالرعاية أَوْلى.

المثال الثالث: شريك الأب شرع في حقه القصاص، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال الرابع: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: من حَرَّق حرقناه، ومَن غَرَّق غرقناه، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله.

المثال الخامس: شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: (تعمدنا الكذب) يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه، فوجب أن يصير دمهم مهدرًا لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال السادس: قال الشافعي رضي الله عنه: المكره يجب عليه القود؛ لأنه صدر عنه القتل ظلمًا فوجب أن يجب عليه مثله، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه، وأما أنه قتل ظلمًا فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قِبل الله تعالى بأن لا يقتل، وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال السابع: قال الشافعي رضي الله عنه: القتل بالمثقل يوجب القود، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته، فوجب أن يتمكن ولي المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

المثال الثامن: الحر لا يُقتل بالعبد قصاصًا، ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنا نذكر هاهنا وجهًا آخر من البيان، فنقول: إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئًا يساوي عشرة دنانير مثلاً، فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال التاسع: منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه، والدليل عليه أن الغاصب فَوَّت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار، فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه.

المثال العاشر: الحر لا يقتل بالعبد قصاصًا لأنه لو قُتل بالعبد لكان هو مساويًا للعبد في المعاني الموجبة للقصاص لقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] ولسائر النصوص التي تلوناها، ثم إن عبده يُقتل قصاصًا بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساويًا لعبد نفسه في المعاني الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساويًا لعبد غيره في المعاني الموجبة للقصاص، فكان عبد نفسه مثلاً لمثل نفسه، ومثل المثل مثل، فوجب كون عبد نفسه مثلاً لنفسه في المعاني الموجبة للقصاص، ولو قُتل الحر بعبد غيره لقُتل بعبد نفسه بالبيان الذي ذكرناه ولا يُقتل بعبد نفسه، فوجب أن لا يُقتل بعبد غيره، فقد ذكرنا

هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل، والله أعلم. ثم هاهنا بحث: وهو أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال في قطع الأيدي: لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم، إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة. فقال الشافعي رضي الله عنه: لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يد واحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حرامًا؛ لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد، فتفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة، فلو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملاً على الحرام، وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام، فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة في مقابلة النفس الواحدة، وحيث أجمعنا على أنه لا يحرم عَلِمنا أن ما ذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعًا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قد بينا أن قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقًا في كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه في صور كثيرة، فتارة بناء على نص آخر أخص منه، وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان، والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص في جميع المطالب، قال مُجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه الله، فليقل له: أخزاه الله، أما إذا قذفه قذفًا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمَر الله به.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو وعد مبهم لا يقاس أمره في التعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المقصود منه التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدي، خصوصًا في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالمًا، وعن النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ»، قَالَ: «فَيَقُومُ خُلْقٌ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا أَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى»(١) الثاني: أنه

---

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٦/ ٣١٥)، حديث رقم (٨٣١٣)، وابن أبي عاصم في (الديات) (١/ ٢٦٧)، حديث رقم (١٨٥)، كلاهما من طريق أبي سلمة، وهو يحيى بن خلف، أخبرنا الفضل بن سنان عن غالب القطان عن الحسن عن أنس... بنحوه، وإسناده صحيح.

تعالى لما حثّ على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهًا على أنه إذ كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أَوْلى أن يعفو عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي ظالم الظالم إياه، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار، واحتج الشافعي رضي الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة، فقال: الشرع إما أن يقال: إنه أذن له في القطع مطلقًا أو بشرط عدم السريان، وهذا الثاني باطل لأن الأصل في القطع الحرمة، فإذا كان تجويزه معلقًا بشرط أن لا يحصل منه السريان، وكان هذا الشرط مجهولاً، وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة؛ لأن الأصل فيها هو الحرمة، والحل إنما يحصل معلقًا على شرط مجهول، فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له في القطع كيف كان، سواء سرى أو لم يسرِ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضمونًا لأنه قد انتصر من بعد ظلمه، فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يبدأون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ والمعنى ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ بأن لا يقتص ﴿وَغَفَرَ﴾ وتجاوز ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة. وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حُذف من قولهم: (السمن منوان بدرهم) ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عَقَلها والله وفَهِمها لمَّا ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه، أي من بعد إضلال الله إياه، وهذا صريح في جواز الإضلال من الله تعالى، وفي أن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى، قال القاضي: المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولي من بعده ينصره. والجواب: أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل، وأيضًا فالله تعالى ما أضله عن الجنّة على قولكم، بل هوأضل نفسه عن الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل، ثم قال: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى الذي يتيقن أن يُقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه، كما يفعل في نظره إلى المحبوبات، فإن قيل: أليس أنه تعالى

قال في صفة الكفار: إنهم يُحشرون عميًا، فكيف قال هاهنا: إنهم ينظرون من طرف خفي؟ قلنا: لعلّهم يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عميًا أو لعلّ هذا في قوم، وذلك في قوم آخرين. ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعًا في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي دائم، قال القاضي: وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما. والجواب: أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكفر، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والذي يؤكد هذا أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة، ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار. ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ وذلك يدل على أن المضل والهادي هو الله تعالى، على ما هو قولنا ومذهبنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد، ذكر بعده ما هو المقصود فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ يعني لا يرده الله بعد ما حكم به، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿يَأْتِىَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، واختلفوا في المراد بذلك اليوم: فقيل: يوم ورود الموت. وقيل: يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له، وهذا الوصف موجود في كلا اليومين، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير، أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي.

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ ينفع في التخلص من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر، ويجوز أن يكون المراد

من النكير الإنكار، أي لا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما افترفتموه من الأعمال ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة، أي لم يقبلوا هذا الأمر ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وذلك تسلية من الله تعالى، ثم إنه تعالى بيّن السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة الفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ ونِعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر؛ فلذلك سماها ذوقًا، فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة مَن يَضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصابتهم سيئة، أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما، فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ والكفور الذي يكون مبالغًا في الكفران ولم يقل: (فإنه كفور)، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها. ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، بل إذا علم أن الكل مِلك الله ومُلكه، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به، فحينئذٍ يصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والخدمة، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده، بقي مغرورًا بنفسه معرضًا عن طاعة الله تعالى. ثم ذكر من أقسام تصرف الله في العالم أنه يخص البعض بالأولاد والإناث، والبعض بالذكور، والبعض بهما، والبعض بأن يجعله محرومًا من الكل، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

واعلم أن أهل الطبائع يقولون: السبب في حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم، وسبب الذكورة استيلاء الحرارة، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام في سورة النحل، وأبطلناه بالدلائل اليقينية، وظهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه قَدَّم الإناث في الذِّكر على الذكور فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ثم في الآية الثانية قَدَّم الذكور على الإناث فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فما السبب في هذا التقديم والتأخير؟

السؤال الثاني: أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فما السبب في هذا الفرق؟

السؤال الثالث: لَمَ قال في إعطاء الإناث وحدهن، وفي إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ وقال في إعطاء الصنفين معًا: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

والسؤال الرابع: لما كان حصول الولد هبة من الله، فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب، فأي حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾؟

السؤال الخامس: هل المراد من هذا الحكم جَمْع معينون، أو المراد الحكم على الإنسان المطلق؟

والجواب عن السؤال الأول من وجوه: الأول: أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة، فإذا وهب الولد الأنثى أولاً ثم أعطاه الذكر بعده، فكأنه نقله من الغم إلى الفرح، وهذا غاية الكرم، أما إذا أعطى الولد أولاً ثم أعطى الأنثى ثانيًا، فكأنه نقله من الفرح إلى الغم، فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولاً وثانيًا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح، فيكون ذلك أليق بالكرم. **الوجه الثاني:** أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولاً، علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك، فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه، فيزداد شكره وطاعته، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم. **والوجه الثالث:** قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة، فقدم ذكرها تنبيهًا على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر. **الوجه الرابع:** كأنه يقال: أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك، فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى. فإذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم، فهذه المعاني هي التي لأجلها وقع ذكر الإناث مقدمًا على ذكر الذكور. وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكَر أكمل وأفضل من الأنثى، والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكرًا أو أنثى يقتضي تقديم ذِكر الذكَر على ذِكر الأنثى، أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر، فلما حصل المقتضي للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى، والله أعلم.

وأما السؤال الثاني: - وهو قوله: لَمَ عَبَّر عن الإناث بلفظ التنكير، وعن الذكور بلفظ التعريف؟ فجوابه: أن المقصود منه التنبيه على كون الذكَر أفضل من الأنثى.

وأما السؤال الثالث: - وهو قوله: لَمَ قال تعالى في إعطاء الصنفين: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؟ فجوابه: أن كل شيئين يُقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان، وكل واحد منهما يقال له زوج، والكناية في ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ عائدة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجًا.

وأما السؤال الرابع، فجوابه: أن العقيم هو الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم لا يلد، وامرأة عقيم لا تلد، وأصل العقم القطع، ومنه قيل: (المُلك عقيم) لأنه يُقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق.

وأما السؤال الخامس، فجوابه: قال ابن عباس: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يريد لوطًا وشعيبًا عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ يريد محمدًا ﷺ كان له من البنين أربعة: القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يريد عيسى ويحيى. وقال الأكثرون من المفسرين: هذا الحكم عام في حق كل الناس؛ لأن المقصود بيان قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد، فلم يكن للتخصيص معنى، والله أعلم. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ قال ابن عباس: عليم بما خلق، قدير على ما يشاء أن يخلقه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كمال قدرته وعلمه وحكمته، أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على أحد ثلاثة أوجه: إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد: أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضًا وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيًا، قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك المَلَك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. فطريق الحصر أن يقال: وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ، وإذا كان الأول هو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال: إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، أما الأول - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة

شخص آخر وما سمع عين كلام الله - فهو المراد بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وأما الثاني - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله - فهو المراد من قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وأما الثالث - وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر - فهو المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي؛ لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أَوْلى، فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض.

المسألة الثانية: القائلون بأن الله في مكان - احتجوا بقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وذلك لأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون الله من وراء حجاب، وإنما يصح ذلك لو كان مختصًا بمكان معين وجهة معينة. والجواب: أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم، إلا أنه دلّت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل، والمعنى أن الرجل سمع كلامًا مع أنه لا يرى ذلك المتكلم، كان ذلك شبيهًا بما إذا تكلم من وراء حجاب، والمشابهة سبب لجواز المجاز.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يُرى، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذٍ يكون ذلك قسمًا رابعًا زائدًا على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة. والجواب: نزيد في اللفظ قيدًا فيكون التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله (في الدنيا) إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر، لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم، ومَن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات، أما الفريق الأول: - وهم الذين قالوا: كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات - فهم فريقان: أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يُذكروا في زمرة العقلاء، واتفق أني قلت يومًا لبعضهم: لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي، والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نُقر ونُمر. يعني نقر بأن

القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه! فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال: إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى، واختلفوا أيضًا في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول هو قول الكرامية، والثاني قول المعتزلة، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات، فقد اتفقوا على أن قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ هو أن المَلَك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب. قالوا: وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأي بعد في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفًا ولا صوتًا؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة. وهذا القول قريب من قول المعتزلة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قال القاضي: هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه: الأول: أن قوله تعالى: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ يدل عليه لأن كلمة (أن) مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه المَلَك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال: إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ﴾ يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخرًا عن حصول غيره كان حادثًا. والجواب: أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها إلى الحروف والأصوات، ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن، وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن؟ والله أعلم.

المسألة السادسة: ثبت أن الوحي من الله تعالى إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر، وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر. **ثم هاهنا أبحاث:**

البحث الأول: أن الشخص الأول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر، كيف يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله؟ فإن قلنا: إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزّهة عن كونها حرفًا وصوتًا، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى، ولم يبعد أن يقال: إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد، أما إن قلنا: إن المسموع هو الحرف والصوت، امتنع أن يقطع

بكونه كلامًا لله تعالى، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى.

البحث الثاني: أن الرسول إذا سمعه من المَلَك، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل؟ والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ مَلَك معصوم لا شيطان خبيث. وعلى هذا التقدير، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبة الأولى: أن المَلَك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى.

المرتبة الثانية: أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول، لا بد له أيضًا من معجزة.

المرتبة الثالثة: أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة، فلا بد له أيضًا من معجزة. فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات.

البحث الثالث: أنه لا شك أن مَلَكًا من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء، فذلك المَلَك هو جبريل، ويقال: لعل جبريل سمعه من ملك آخر، فالكل محتمل ولو بألف واسطة، ولم يوجد ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه.

البحث الرابع: هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]وقيل: إن محمدًا ﷺسمعه أيضًا لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

البحث الخامس: أن الملائكة يقدرون على أن يُظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة، فبتقدير أن يراه الرسول ﷺفي كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة؛ ليعرف أن هذا الذي رآه في هذه المرة عين ما رآه في المرة الأولى، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى؛ لاحتمال أنه حصل الاشتباه في الصوت، إلا أن الإشكال في أن الحاجة إلى إظهار المعجزة في كل مرة لم يقل به أحد.

المسألة السابعة: دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس - على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمى وحيًا من الله تعالى إلى إبليس أم لا؟ الأظهر منعه، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل.

المسألة الثامنة: قرأ نافع (أو يرسلُ رسولاً) برفع اللام، (فيوحي) بسكون الياء، ومحله رفع على تقدير: (وهو يرسل فيوحي)، والباقون بالنصب على تأويل المصدر، كأنه قيل: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو إسماعًا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل. لكن فيه إشكال لأن قوله وحيًا أو إسماعًا اسم وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ فِعل، وعطف الفعل على الاسم قبيح، فأجيب عنه بأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحي إليه وحيًا أو يسمع إسماعًا من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

المسألة التاسعة: الصحيح عند أهل الحق أن عندما يُبلغ المَلَك الوحي إلى الرسول، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي، وقال بعضهم: يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] وقالوا: الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم: تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى. وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول: هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة، باطل من وجهين آخرين: الأول: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِصُورَتِي» (١) فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى؟! والثاني: أن النبي ﷺ قال: «مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًا إِلاَّ وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًا آخَرَ» (٢) فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى؟!

المسألة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يعني فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله، وهذا يقتضي أن الحَسَن لا يحسن لوجه عائد عليه، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ والله أعلم.

ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ يعني أنه عليّ عن صفات المخلوقين، حكيم يُجري أفعاله على موجب الحكمة، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام، وأخرى بإسماع الكلام، وثالثًا بتوسيط الملائكة الكرام. ولما بيّن الله تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والمراد به القرآن، وسماه روحًا لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ واختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في قول النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني) (٤/ ٤٦٣)، حديث رقم (٢٢٧٦)، وفي (الشمائل) (٢٤٢)، حديث رقم (٣٨٩) من طريق سفيان... به. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (تعبير الرؤيا)، باب: (رؤية النبي ﷺ) (٢/ ١٢٨٤)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق سفيان... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٧٥)، حديث رقم (٣٥٥٩) من طريق سفيان... به، وكذلك في (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (٤٣٠٤) من طريق زكريا... به. والدارمي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في رؤية النبي ﷺ في المنام) (١/ ٦٠٣)، حديث رقم (٢١٣٩) من طريق سفيان... به. كلاهما (سفيان، زكريا) عن أبي إسحاق... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) (٣/ ١٣٤٧)، حديث رقم (٣٤٨٠)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٦)، جميعًا من طريق إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن أبي شهاب، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه... به.

على أنه لا يجوز أن يقال: الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر. وذكروا في الجواب وجوهًا: الأول: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم. الثاني: أن يُحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلاً في المهد. الرابع: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوّة ما كان عارفًا بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفًا بالله تعالى، وذلك لا ينافي ما ذكرناه. الخامس: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ منهم من قال: إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان؛ لأنه هو الذي يُعرف به الأحكام، فلا جرم شُبه بالنور الذي يُهتدى به، ومنهم من قال: إنه راجع إليهما معًا، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

ثم قال: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه في نفسه هدًى كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه قد يهدي به البعض دون البعض، وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة؛ لأنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل، وقوله: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يفيد الخصوص، فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ خاصة، والهداية الخاصة غير الهداية العامة، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أمرًا مغايرًا لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار، ولا يجوز أيضًا أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنّة لأنه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي جعلنا القرآن نورًا نهدي به من نشاء، وهذا لا يليق إلا بالهداية التي تحصل في الدنيا، وأيضًا فالهداية إلى الجنّة عندكم في حق البعض واجب، وفي حق الآخرين محظور، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فائدة، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولا اعتراض عليه فيه.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فبيّن تعالى أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، وبيّن أنه يهدي إلى صراط مستقيم، وبيّن أن ذلك الصراط هو ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نبّه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وذلك كالوعيد والزجر، فبيّن أن أمر من لا يقبل هذه

التكاليف يرجع إلى الله تعالى، أي إلى حيث لا حاكم سواه، فيجازي كلًّا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قال رضي الله عنه: تمّ تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة، الثامن من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، يا مدبر الأمور، ويا مدهر الدهور، ويا معطي كل خير وسرور، ويا دافع البلايا والشرور، أوصِلنا إلى منازل النور، في ظلمات القبور، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الشُّورَى

مكِّيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربعَ آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخرها. وهي ثلاثٌ وخمسون آية[١].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لِمَ قطعَ «حم» من «عسق» ولم تقطع «كهيعص» و«المر» و«المص»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مَجرى نظائرها قبلَها وبعدَها؛ فكأنَّ «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. ولأنها عُدَّت آيتين، وعُدَّت أخواتُها اللواتي كُتبت جملةً آيةً واحدة[٢].

وقيل: إن الحروف المعجمة كلَّها في المعنى واحد، من حيث إنها أُسُّ البيان وقاعدةُ الكلام؛ ذكره الجُرْجَاني.

وكتبت «حم. عسق» منفصلاً و«كهيعص» متصلاً لأنه قيل: حم؛ أي: حُمَّ ما هو كائن، ففصلوا بين ما يُقدَّر فيه فعل وبين ما لا يُقدَّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيري.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «حم. سق»[٣]. قال ابن عباس: وكان

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٩ دون ذكر عبد المؤمن، ولم نعرفه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

عليٌّ ﷺ يعرف الفِتَنَ بها[١].

وقال أرطاةُ بن المنذر: قال رجلٌ لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أَخْبِرني عن تفسير قوله تعالى: «حم. عسق»؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فأعرضَ عنه. فقال حُذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله، أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقًّا، فإذا أراد اللهُ زوالَ مُلكهم وانقطاعَ دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مُظْلِمةً، فتحترق كلُّها كأنها لم تكن مكانَها؛ فتصبح صاحبتُها متعجبةً كيف قُلبت، فما هو إلا بياضُ يومها حتى يجتمع فيها كلُّ جبار عَنيد، ثم يخسفُ الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: «حم. عسق» أي: عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى، وفتنةٌ وقضاء؛ «حم»: حُمَّ. «ع»: عدلاً منه، «س»: سيكون، «ق»: واقع في هاتين المدينتين[٢].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليُّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينةٌ بين دِجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل والصَّراة، يجتمع فيها جبابرةُ الأرض تُجبى إليها الخزائنُ يخسفُ بها ـ وفي رواية: بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرعُ ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيِّد في الأرض الرِّخوة»[٣].

وقرأ ابن عباس: «حم. سق» بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤ ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٨٩ ، وقال: أثر غريب عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٥٠)، وهو حديث منكر جداً فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٥ ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢ ، من طرق عديدة وأعلَّها كلَّها، ثم نقل عن الإمام أحمد قوله: ليس لهذا الحديث أصل. ودُجيل: اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد، وقُطْرَبُّل: كلمة أعجمية، اسم قرية بين بغداد وعُكبَرا. والصَّراة. نهران ببغداد؛ الصراة الكبرى والصراة الصغرى. معجم البلدان ٢/ ٤٤٣ و٣/ ٣٩٩ و٤/ ٣٧١ .

(٤) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٥ ، وسلف قريباً.

وروى نافع عن ابن عباس: «الحاء» حِلْمه[١]، و«الميم» مَجْده، و«العين» عِلْمه، و«السين» سَنَاه، و«القاف» قُدرته؛ أقسم الله بها[٢].

وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحِلمه[٣] ومَجْده وعُلُوِّه وسَنَاه وقُدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه[٤]. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جُبير: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القُدُّوس، و«القاف» من القاهر.

وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسمُ الجبل المحيط بالدنيا.

وذكر القشيريّ، واللفظ للثعلبيّ: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ عُرفت الكآبةُ في وجهه؛ فقيل له: يا رسولَ الله، ما أحزنك؟ قال: «أُخبِرتُ ببلايا تنزلُ بأُمتي مِن خَسْف وقَذْف ونارٍ تحشرهم، وريحٍ تَقْذِفهم في البحر وآياتٍ متتابعات مُتَّصلات بنزول عيسى وخروج الدَّجال»[٥]. والله أعلم.

وقيل: هذا في شأن النبيِّ ﷺ؛ فـ «الحاء» حوضه المورود، و«الميم» مُلكه الممدود، و«العين» عِزُّه الموجود، و«السين» سناه المشهود، و«القاف» قيامه في المقام المحمود، وقُربه في الكرامة من المَلِك المعبود.

وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أُوحي إليه: «حم. عسق»؛ فلذلك قال: «يُوحِي إِلَيْكَ وإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٦].

المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «حم. عسق» معناه: أَوْحيتُ إلى الأنبياء المتقدِّمين.

---

(١) في (د) و(ظ): حكمه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٩ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): بحكمه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد: «يُوحَى» بفتح الحاء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[١]؛ ورُوي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يُسَمَّ فاعلُه مضمراً؛ أي: يُوحَى إليك القرآن الذي تضمَّنته هذه السورة، ويكون اسمُ الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يُوحيه اللهُ إليك[٢]؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ﴾[٣] [النور: ٣٦] أي: يُسبِّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة[٤] وأشعثُ ممن طوَّحته الطوائح

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيَّن من ينبغي أن يَبْكيَه، فالمعنى: يَبكيه ضارعٌ[٥].

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: اللهُ يُوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ، أي: المُوحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر «العزيزُ الحكيمُ». وقرأ الباقون: «يُوحِي إِلَيْكَ» بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل[٦].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[٧].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وَثّاب والكسائيّ

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٨٠ ، والتيسير ص ١٩٤ . وقراءة مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٢٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٤٥٦ ، والتيسير ص ١٦٢ ، وسلفت ١٥/ ٢٨٦ .

(٤) في (د) و(م): بخصومه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لكتاب سيبويه ١/ ٢٨٨ ، وقد نسبه للحارث ابن نهيك. قال البغدادي في الخزانة ١/ ٣١٣ : الصواب أنه لنهشل بن حَرِّيّ.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٩٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه. وينظر السبعة ص٥٨٠ ، والتيسير ص١٩٤ .

(٧) ٢/ ٣١١ و٤/ ٢٧١ .

بالياء. ﴿يَنفَطِرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عُبيد: «يَنْفَطِرْنَ» من الانفطار[(١)]؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقد مضى في سورة «مريم» بيانُ هذا[(٢)].

وقال ابن عباس: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» أي: تكاد كلُّ واحدة منها تنفطر فوقَ التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[(٣)] [البقرة:١١٦]. وقال الضحاك والسدي: «يَتَفَطَّرْنَ» أي: يتشقَّقْنَ من عَظَمةِ الله وجلاله فوقَهنَّ[(٤)]. وقيل: «فوقهنَّ»: فوق الأَرَضين من خشية الله لو كُنَّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز في وَصْفه، وما لا يَليق بجلاله. وقيل: يتعجَّبون من جُرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجّب.

وعن عليّ ﷺ: أن تسبيحَهم تعجُّب مما يرون من تعرُّضهم لِسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله تعالى. ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»: بأمر ربهم؛ قاله السُّدِّي. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية:٧]. وعلى هذا تكون الملائكةُ هنا حَمَلَةَ العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ[(٥)].

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو منسوخ بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٦)]. وقال المهدويّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاصٌّ للمؤمنين.

---

(١) السبعة ص ٤١٣ و٥٨٠، والتسير ص ١٥٠ و١٩٤ .

(٢) ١٣/ ٥٢١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٠ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩١ .

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ(١) عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذَين اخْتُبروا وبُعِثا إلى الأرض لِيحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس - وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام - وسألاه أن يدعُوَ لهما؛ سبَّحت الملائكةُ بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم(٢).

قال أبو الحسن بن الحصَّار: وقد ظنَّ بعضُ مَن جهل أن هذه الآيةَ نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخةٌ بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حَمَلَةَ العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض.

الماورديّ(٣): وفي استغفارهم لهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهرُ قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهرُ، لأن الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبرٌ رواه عاصمٌ الأحولُ عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إنَّ العبدَ إذا كان يذكر اللهَ في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ معروفٌ من آدميٍّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدميٍّ لا يذكر الله في السَّراء، فنزلت به الضَّرَّاء، فلا يستغفرون اللهَ له(٤).

وهذا يدلُّ على أن الآية في الذاكر لِله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، فهي خاصَّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم.

ويَحتمِل أن يقصِدوا بالاستغفار طلبَ الحِلْم والغُفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٢) هذه قصة باطلة، وسلفت ٢/ ٢٨٤ ، وينظر الكلام عليها ثمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٤٠).

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦]. والمراد الحِلْم عنهم وألا يُعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عامًّا؛ قاله الزمخشريّ[1].

وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصحَ عبادِ الله لعباد الله الملائكةَ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدَّم[2].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعضُ العلماء: هَيَّب وعَظَّم جلَّ وعزَّ في الابتداء، وألطفَ وبشَّرَ في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالَهم لِيُجازيَهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخةٌ بآية السيف[3]. وفي الخبر: «أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ»[4] أي: صوَّتَتْ من ثِقَل سُكَّانها لِكَثْرتهم، فهم مع كَثْرتهم لا يفتُرُون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يُشركون به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إليك وإلى مَن قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيَّناه بلغة العرب. وقيل: أي: أنزلنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠.

(٢) ١٨/ ٣٣٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٧٣، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف ٥/ ٤٢٨.

عليك قرآناً عربيًّا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه. والمعنى واحد. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكة. وقيل لمكة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحيت من تحتها[١]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يومُ القيامة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب[٢] على تقدير: لِتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهلَ دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام[٤]. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز: ولا نَصِيرٌ، بالرفع على الموضع[٥] و«مِنْ» زائدة.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي: وَليُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك[٦]، ولا وَلِيَّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ

(١) سلف هذا الكلام ١/ ١٧٣.

(٢) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٤.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكايةُ قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: وما خالفكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم: حُكمه إلى الله لا إليكم[1]. وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: الموصوف بهذه الصِّفات هو ربي وحدَه؛ وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد: ذلكم اللهُ يُحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرْجِعُ.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في «عليه»[2]. والفاطر: المُبدع والخالق. وقد تقدَّم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قيل: معناه: إناثًا. وإنما قال: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خَلَقَ حوَّاء من ضِلَع آدم[3]. وقال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل[4]. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في «الأنعام»[5] ذكور الإبل والبقر والضأن والمَعْز وإناثها.

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١-٤٦٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢١ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٧٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٧٥ لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ التالي.

(٥) ٩/ ١٧٦ .

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ أي: يخلقكم ويُنشئكم «فِيهِ» أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء[١] وابن كيسان: «فيه» بمعنى به. وكذلك قال الزجاج[٢]: معنى «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» يُكثركم به؛ أي: يُكثركم بجعلكم[٣] أزواجًا، أي: حلائلَ؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في «فِيهِ» للجعل، ودلّ عليه «جَعَلَ»؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة[٤]: «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أي: في الزوج؛ أي: يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون «فِيهِ» في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدةٌ للتوكيد؛ أي: ليس مثله شيء[٥]. قال:

وصـالـيـاتٍ كَـكُـمَـا يُـؤْثَـفَـيْـن[٦]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب[٧]: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾[٨] [البقرة: ١٣٧]. وفي حرف ابن مسعود «فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ به فقد اهتَدَوْا»[٩] قال أَوْسُ بن حَجَر:

وقَـتْـلَـى كـمـثـل جـذوع الـنـخـيــ ـــل يَـغْـشـاهـم مَـطَـرٌ مُـنـهـمِـرْ[١٠]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥ .

(٣) في (م): يجعلكم. وعبارة الزجاج: أي: يُكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.

(٤) غريب القرآن ص ٣٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤ .

(٦) نسبه سيبويه في كتابه ١/ ٣٢ ، والبغدادي في خزانته ٢/ ٣١٣ لخطام المجاشعي. والصَّاليات: الأثافيّ، وهي الأحجار التي يُنصب عليها القدر. قاله البغدادي.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٩٥ .

(٨) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ : وهذا ليس بجيد؛ لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.

(٩) المحتسب ١/ ١١٣ .

(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٣٠ ، وفيه: تغشَّاهم، بدل: يغشاهم. ومُسبل، بدل: مطر، وكلاهما بمعنى واحد.

أي: كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلّ اسمه في عَظَمته وكبريائه ومَلَكوته وحُسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرعُ على الخالق والمخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القديم جلّ وعزّ بخلاف صفاتِ المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفكُّ عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يزلْ بأسمائه وبصفاته على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»، وكفى في هذا قولُه الحقّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد قال بعضُ العلماء المحقِّقين: التوحيد إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشبهة للذوات ولا معطَّلة من الصِّفات. وزاد الواسطيّ رحمه الله تعالى بياناً فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللَّفظ؛ وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفةٌ حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفةٌ قديمة. وهذا كلُّه مذهبُ أهل الحقّ والسنة والجماعة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «الزُّمَر» بيانه(١). النحاس(٢): والذي يملك المفاتيحَ يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حُسن.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدَّم أيضًا في غير موضع(٣).

---

(١) ١٨/٣٠٤.

(٢) معاني القرآن ٦/٢٩٨.

(٣) ١٢/٦٤ و١٦/٣٨٦.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليدُ السماوات والأرض شرعَ لكم من الدين ما شرعَ لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان برسله وكُتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يُرِد الشرائعَ التي هي مصالح الأُمم على حَسَب[1] أحوالها، فإنها مختلفةٌ متفاوتةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وقد تقدم القولُ فيه.

ومعنى «شَرَعَ» أي: نهج وأوضح وبيَّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعًا، أي: سنَّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وَشَرَعْتُ الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعتُ الأديمَ إذا سلختَه. وقال يعقوب[2]: إذا شَقَقْتَ ما بين الرِّجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة. وشرعتُ في هذا الأمر شُروعاً، أي: خضت.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ «أنْ» في محل رفع، على تقدير: والذي وصَّى به نوحًا أن أقيموا الدِّين، ويُوقف على هذا الوجه على «عيسى». وقيل: هو نصب، أي: شرعَ لكم إقامةَ الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في «به»؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف

---

(١) في (م): حسن.

(٢) في إصلاح المنطق ص ٤٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شرع)، وما قبله منه.

على «عيسى» على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون «أن» مفسَّرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محلٌ من الإعراب[١].

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٢]: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحًا فإنه أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقولون له: أنت أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض»[٣] وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيه، كما أن آدمَ أوّلُ نبيٍّ[٤] بغير إشكال؛ إلا أن[٥] آدم لم يكن معه إلا بَنوه[٦]، ولم تُفرَض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرَّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأُمَّهات والبنات والأخوات، ووظَّف عليه الواجبات وأوضحَ له الآدابَ في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكَّد بالرُّسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحداً بعد واحد وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلل مِلَّتِنا، على لسان أكرم الرُّسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزَّلَف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصِلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذيَّة[٧] للخلق

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم تنظر في مسند أحمد. وقد سلف قطعة من الحديث ٣/ ٤٠٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ي): أول رسول نبي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في (م) وأحكام القرآن: لأن، والمثبت من النسخ الخطية.

(٦) في (م): نبوّة.

(٧) في النسخ الخطية: الاذاية،والمثبت من (م).

كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفا دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلُّه مشروعٌ دِينًا واحدًا ومِلّةً متَّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادُهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا؛ يريد دائماً مستمراً محفوظًا مستقرًّا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخَلْق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. واختلفت الشرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حَسبَما أراده اللهُ مما اقتضت المصلحةُ وأوجبت الحِكمةَ وَضْعَه في الأزمنة على الأُمم. والله أعلم.

قال مجاهد: لم يبعث اللهُ نبيًّا قطُّ إلا وصَّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دِينُه الذي شَرع لهم(١)؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ.

وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات(٢). وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوالَ ويزيد عليها. وخصَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر لأنهم أربابُ الشرائع.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُرَ على المشركين فاشتدَّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، وضاق بها إبليسُ وجنوده، فأبى الله عزّ وجلّ إلا أن ينصرها ويُعليها ويُظهرها على من ناوأها(٣). ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي: يختار للتوحيد من يشاء. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يستخلص لدينه مَن رَجَع إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ قال ابن عباس: يعني قريشًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه.

محمدٌ ﷺ(١)؛ وكانوا يتمنَّون أن يُبعَثَ إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] يريد نبيًّا. وقال في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [الآية: ٨٩] على ما تقدَّم بيانُه هناك.

وقيل: أُمَم الأنبياء المُتقدِّمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدى، فآمن قومٌ وكفر قومٌ. وقال ابن عباس أيضًا: يعني أهلَ الكتاب؛ دليلُه في سورة المُنفكِّين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٢) [الآية: ٤]. فالمشركون قالوا: لِمَ خُصّ بالنبوَّة؟! واليهود حسدوه لمَّا بُعث؛ وكذا النصارى.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغيًا من بعضهم على بعض طلبًا للرِّياسة، فليس تفرُّقُهم لِقصور في البيان والحُجَج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم. ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين مَن آمن وبين مَن كَفَرَ بنزول العذاب.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى. ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء. والكتابُ هنا التوراة والإنجيل. وقيل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ قريش.

«مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد اليهود النصارى. «لَفِي شَكٍّ» من القرآن أو من محمد. وقال مجاهد: معنى «مِنْ بَعْدِهِمْ» من قَبْلهم؛ يعني: من قَبْلِ مُشركي مكة، وهم اليهود والنصارى(٣).

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٣ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ونسب قول مجاهد لقتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ لما جاز أن يكون الشكُّ لليهود والنصارى، أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فتبينت شكَّهم فادعُ إلى الله؛ أي: إلى ذلك الدين الذي شرعه اللهُ للأنبياء ووصَّاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. و«ذلك» بمعنى هذا. وقد تقدَّم أولَ «البقرة»[١]. والمعنى: فإلى هذا[٢] القرآن فادعُ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع[٣]. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم[٤]. قال ابن عباس: أي: إلى القرآن فادعُ الخَلْقَ.

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ خطابٌ له عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: أي: استَقِمْ على أمر الله. وقال سفيان: أي: استَقِمْ على القرآن. وقال الضحاك: استَقِمْ على تبليغ الرسالة[٥].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا تنظر إلى خلاف مَن خالفك. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أنْ أَعدِلَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]. وقيل: هي لام كي، أي: أَعدِلَ[٦]؛ قال ابن عباس وأبو العالية: لأُسوِّيَ بينكم في الدِّين، فأُؤمن بكلِّ كتاب وبكلِّ رسول. وقال غيرُهما:

---

(١) ١/ ٢٤٢ .

(٢) في النسخ: فلهذا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٥ ـ ٧٦ والكلام فيه بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٦/ ٧٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٩ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٧٩ .

لِأعدِلَ في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل: في التبليغ(١).

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخِطاب لليهود؛ أي: لنا ديننا ولكم دينُكم. قال: ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩] قال مجاهد: ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا خصومةَ بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ، لأن البراهينَ قد ظهرت، والحُجَجَ قد قامت، فلم يبقَ إلا العِناد، وبعد العناد لا حُجَّةَ ولا جدال.

قال النحاس(٢): ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ على ذلك القول: لم يؤمر أن يحتجَّ عليكم ويُقاتلكم(٣)؛ ثم نسخ هذا. كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تُحوَّلَ القبلة: لا تُصَلِّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال: نسخ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: فهو يحكم بيننا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا بما كان عليه.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نَزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسولَ الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يُعطيَه الوليدُ نصفَ ماله ويُزوِّجه شيبةُ بابنته(٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ رَجَع إلى المشركين ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٩ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦١٤ ، وما قبله منه.

(٣) عبارة (ظ): لن نؤمن أن نحتجَّ عليكم ونقاتلكم.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٩ .

لَهُۥ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهَّموا أن الجاهلية تعود[١]. وقال قتادة: الذين يُحاجُّون في الله اليهودُ والنصارى، ومُحَاجَّتهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلةَ بأنهم أهلُ كتاب وأنهم أولادُ الأنبياء[٢]. وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثَباتَ لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه.

والهاء في «لَهُ» يجوز أن يكون لِله عز وجل؛ أي: من بعد ما وحَّدوا الله وشَهِدُوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أي: من بعد ما استُجيب لمحمد[٣] ﷺ في دعوته على[٤] أهل بدر ونَصْر الله المؤمنين.

يقال: دَحَضت حُجَّته دُحوضًا بطلت. وأَدْحضها اللهُ. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْضٌ وَدَحَضٌ أيضًا ـ بالتحريك ـ أي: زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت[٥].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتب المُنزلة.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) في (م): محمد.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ - ٧٧، والكلام فيه بنحوه.

(٥) الصحاح (دحض).

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسمَّى ميزانًا؛ لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعدل[1]. وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكُتب مما يجب على الإنسان أن يعملَ به.

وقال قتادة: الميزان العَدْل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعنى. وقيل: هو الجزاءُ على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزانُ نفسُه الذي يُوزَن به؛ أنزله من السماء وعلَّم العبادَ الوزنَ به؛ لئلا يكون بينهم تَظالمٌ وتباخُس[2]؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال مجاهد: هو الذي يُوزَن به. ومعنى إنزال[3] الميزان هو إلهامُه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به][4]. وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله[5].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يُخبره بها. يحضُّه على العمل بالكتاب والعَدْل والسَّويَّة، والعمل بالشرائع قبل أن يُفاجئ اليوم الذي يكون فيه المُحاسبة ووزن الأعمال، فَيُوفَّى لمن أوفى ويُطفَّف لمن طفَّف.

فـ «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» أي: منك وأنت لا تدري. وقال: «قَرِيبٌ» ولم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثَها غيرُ حقيقي؛ لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج[6]. والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو لعلَّ مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: «قَرِيبٌ» نعت يُنعت به المُذكَّر والمُؤنَّث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠.

(٣) في (د) و(م): أنزل، والمثبت من (ظ).

(٤) زاد المسير ٧/ ٢٨٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٤٦ عن علقمة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٧، وينظر الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٧.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدةٌ فلما وصلنا نُصْب أعينهم غِبنا[(١)]

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غيرُ آتية، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسَهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي: التي لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكُّون ويُخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكَّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على أن يَبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّديّ: رفيقٌ بهم. وقال مقاتل: لطيفٌ بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم[(٢)]. وقال القُرَظِيّ: لطيفٌ بهم في العرض والمُحاسبة. قال:

غدًا عند مَوْلَى الخَلْق للخلق موقفٌ يُسائلهم فيه الجليل ويَلْطُفُ[(٣)]

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يَلطُفُ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقَك من الطَّيِّبات. والثاني: أنه لم يَدْفَعْه إليك مرةً واحدة

---

(١) ذكره القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٢٦٧ ونسبه لأبي طاهر عبد العزيز الاسترابادي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) لم نقف عليه.

فتبذِّرَه(١).

وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره.

وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عَرَفوه، ولو لَطَفَ بأعدائه لما جَحَدوه(٢). وقال محمد بن عليّ الكتّاني(٣): اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكَّل عليه، ورَجَع إليه، فحينئذ يقبلُه ويُقبِلُ عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى يطَّلعُ على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز: اِمَّحتْ آثارُهم، واضمحلَّتْ صُوَرُهم، وبقي عليهم العذابُ، وأنا اللطيفُ وأنا أرحمُ الراحمين، خفِّفوا عنهم العذابَ، فَيُخفَّفُ عنهم العذاب»(٤). قال أبو عليّ الثقفِيّ ﷺ:

أَمـرُّ بـأفـنـاءِ الـقـبـور كـأنـنـي أخـو فِـطْـنـة والـثـوبُ فـيـه نـحـيـفُ
ومَـنْ شَـقَّ فـاه الـلـهُ قـدَّر رِزْقَـه وربِّـي بـمـن يـلـجـأ إلـيـه لـطـيـفُ(٥)

وقيل: اللطيفُ الذي ينشر من عباده المناقبَ ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيُّ ﷺ: «يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيح»(٦). وقيل: هو الذي يقبل القليلَ ويبذل الجَزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكَسير ويُيسِّر العسير. وقيل: هو الذي لا يُخاف إلا عَدْلُه ولا يُرجَى إلا فَضْلُه(٧). وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهِمَّة، ويُكلِّفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي، شيخ الصوفية. توفي سنة (٣٢٢هـ). السير ١٤/ ٥٣٣ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) لم نقف عليهما، وأبو علي الثقفي: هو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، النيسابوري، الشافعي، من ولد الحجاج، المحدث، شيخ خراسان. توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٨٠ .

(٦) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٥ .

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢ .

﴿فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨]. وقيل: هو الذي يُعين على الخدمة ويُكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يُعاجل مَن عصاه، ولا يُخَيِّب مَن رجاه. وقيل: هو الذي لا يردُّ سائِلَه ولا يُؤيِّس آمِلَه. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم مَن لا يرحم نَفْسَه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المُشاهدة سِراجًا، وجعل الصراط المستقيمَ لهم مِنْهاجًا، وأجزل لهم من سحائب بِرِّه ماء ثَجَّاجًا. وقد مضى في «الأنعام» قولُ أبي العالية والجُنَيد أيضًا[1]. وقد ذكرنا جميع هذا في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» عند اسمه اللطيف[2]، والحمد لله.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حِكمةٌ؛ لِيحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]، فكان هذا لُطْفًا بالعباد. وأيضًا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠] على ما تقدَّم بيانُه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الحَرْثُ العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو[3]: واحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غدًا[4]. ومنه سُمِّي الرجل حارثًا[5]. والمعنى: أي: مَن طلبَ بما رزقناه حَرْثًا لآخرته، فأدَّى حقوقَ الله، وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نُعطيه ثوابَ

---

(١) ٨/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) وهو ليس في المطبوع منه.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٤) سلف ٣/ ٣٨٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦ .

ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: طَلَبَ بالمال الذي آتاه اللهُ رِياسةَ الدنيا والتوصُّلَ إلى المحظورات، فإنا لا نَحرِمه الرِّزق أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقيل: «نَزِدْ له في حَرْثِه» نوفِّقه للعبادة ونُسهِّلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي: مَن أطاع فله الثواب. وقيل: «نَزِد لَهُ في حَرْثِهِ» أي: نُعطه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي: من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أُوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمةَ أُوتي منها[(١)].

قال القُشيريّ: والظاهر أن الآيةَ في الكافر؛ يُوسَّع له في الدنيا؛ أي: لا ينبغي له أن يَغْترَّ بذلك؛ لأن الدنيا لا تبقى.

وقال قتادة: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا[(٢)]. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: مَن عَمِلَ لآخرته زِدْناه في عمله، وأعطيناه من الدنيا ما كَتبنا له، ومن آثرَ دنياه على آخرته لم نَجْعَلْ له نصيبًا في الآخرة إلا النارَ، ولم يُصِبْ من الدنيا إلا رزقًا قد قسمناه له لا بُدَّ أن كان يُؤتاه مع إيثار أو غير إيثار. قلت: قول قتادة حسن[(٣)].

وروى جُوَيبرُ عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: مَن كان من الأبرار يُريد بعمله الصالح ثوابَ الآخرة «نَزِدْ له في حَرْثِهِ» أي: في حسناته. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان من الفُجّار يُريد

---

(١) مجمع البيان ٢٥/٤٧ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠١ .

(٣) قوله: قلت: قول قتادة حسن، من (ظ).

بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه منها»، ثم نُسخ ذلك في «سبحان»: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1] [الآية:١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر، والأشياء كلُّها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَقُلْ أحدُكم: اللهم اغفِرْ لي، إن شئتَ، اللهم ارحمني إنْ شئتَ»[2]. وقد قال قتادة ما تقدَّم ذِكْره، وهو يُبيِّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود» أن هذا من باب المطلق والمقيَّد، وأن النسخَ لا يدخل في الأخبار[3]. والله المستعان.

مسألة: هذه الآيةُ تُبطِلُ مذهبَ أبي حنيفة في قوله: إنه من توضَّأ تَبرُّدًا أنه يَجزيه عن فريضة الوضوء الموظَّف عليه؛ فإن فريضةَ الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدُهما على الآخر، ولا تَجزي نِيَّته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي[4].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: ألهم؟ والميم صِلة، والهمزة للتقريع. وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شَرَعوا لهم الشِّرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشِّرك، فمن أين يدينون به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجلَ الظالم بالعقوبة وأثابَ الطائع. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ﴾ في الدنيا: القتلُ والأسْر والقهر، وفي

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨١)، وما بعده منه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٨٤ .

(٣) ١١/ ٨٥ - ٨٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٥ .

الآخرة عذابُ الدنيا.

وقرأ ابن هُرْمُز: «وأنّ» بفتح الهمزة(١)، على العطف على «ولولا كلمةٌ»، والفَصْلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائزٌ. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعاً على تقدير: وجب أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبلَه كقراءة الكسر؛ فاعْلَمه.

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضة: الموضع النَّزِه الكثير الخُضرة. وقد مضى في «الروم»(٢). ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم والثواب الجَزيل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: لا يُوصَفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كُنْهِ صِفته؛ لأن الحقَّ إذا قال: كبير، فمن ذا الذي يقدر قَدْره؟.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قُرِئ: «يُبشِّر» مِن بَشَّره(٣)،

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤، والمحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٢) ١٤/ ١١ - ١٢.

(٣) قرأ بها نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

وَ«يُبْشِر» من أبشره[١]، وَ«يَبْشُر» مِن بَشَره[٢]، وفيه حذف؛ أي: يُبَشِّر اللهُ به عبادَه المؤمنين لِيتعجَّلوا السرور ويزدادوا منه وَجْدًا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي: قُلْ يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قال الزجاج[٣]: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» استثناء ليس من الأول؛ أي: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخِطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم[٤]. قال الشعبيّ: أَكْثَر الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسولَ الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٥]. فـ«الْقُرْبَى» هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتَّبعوني للقرابة إن لم تتَّبعوني للنبوَّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامَها، فلما بُعث النبيّ ﷺ قَطَعَتْهُ؛ فقال: صِلُوني كما كنتم تفعلون. فالمعنى على هذا: قُلْ: لا أسألكم عليه أجراً، لكن أُذكِّركم قرابتي؛ على أنه[٦] استثناءٌ ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس[٧].

وفي البخاريّ[٨]: عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ

---

(١) قرأ بها مجاهد وحُميد بن قيس. المحتسب ٢/ ٢٥١.

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٨، وأخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/ ٥٦٥، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤٩٥.

(٦) قوله: أنه، ليس في (م).

(٧) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٨.

(٨) الحديث (٤٨١٨).

﴿فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عَجِلت، إن النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم[١] من القرابة. فهذا قول.

وقيل: القُربى قرابةُ الرسول ﷺ، أي: لا أسألُكم أجرًا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القُربى. وهذا قولُ علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُّدّي[٢]. وفي رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس: لما أنزل اللهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وأبناؤهما»[٣]. ويدلُّ عليه أيضًا ما رُوي عن عليٍّ ﷺ قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ حَسَدَ الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعة أوّل من يدخلُ الجنةَ: أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا وذُرِّيتنا خلفَ أزواجنا»[٤]. وعن النبي ﷺ: «حُرِّمتِ الجنةُ على من ظلَمَ أهلَ بيتي وآذاني في عِتْرتي، ومن اصطنع صنيعةً إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب ولم يُجازه عليها، فأنا أُجازيه عليها غدًا إذا لَقِيني يومَ القيامة»[٥].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلا أن يتودَّدوا إلى الله عز وجل ويتقرَّبوا إليه بطاعته[٦]. فـ «الْقُرْبَى» على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلفة والزُّلفى.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): إلا أن تصلوا ما بينكم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٢٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٢٥٩)، وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.. وذكر حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري، وقد ذكره المصنف قريباً.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : سنده واهٍ.

(٥) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي من حديث علي ﷺ، ثم قال: فيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، وهو كذاب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

وروى قَزَعةُ بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ «قل: لا أسألُكم على ما آتيتكم به أجرًا إلا أن تَوادُّوا وتقرَّبوا إليه بالطاعة»[1]. وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: يتودَّدون إلى الله عز وجل ويتقرَّبون منه بطاعته[2].

وقال قوم: الآيةُ منسوخةٌ وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يُؤذون رسولَ الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودَّة نبيِّه ﷺ وصِلة رَحِمِه، فلما هاجر آوته الأنصارُ ونصروه، وأراد الله أن يُلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل[3]. ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول: إن التقرُّبَ إلى الله بطاعته ومودَّة نبيه ﷺ وأهلِ بيته منسوخٌ؛ وقد قال النبيّ ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آل محمد ماتَ شهيداً. ومَن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره ملائكةَ الرحمة[4]، ومن مات على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة[5]. ومَن مات على بُغْض آل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥)، والطبري ٢٠/ ٥٠٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨٨)، وقَزَعَةُ بن سُويد ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٤٣٩.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٥. وقال: وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ وكفَّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الملائكة والرحمة، وفي (ظ): الملائكة، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٦٧ - والكلام منه كما سيذكر المصنف - وسيأتي الحديث مطولاً عند المصنف بهذا اللفظ.

(٥) قوله: ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، زيادة من (ظ)، وهي قطعة من الحديث. وسيذكره المصنف بتمامه.

محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ اليومَ من رحمة الله. ومَن ماتَ على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة. ومَن مات على بُغض آل بيتي فلا نصيبَ له في شفاعتي»(١).

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشريُّ في «تفسيره» بأطولَ مِن هذا فقال: وقال رسولُ الله ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آلِ محمد ماتَ شهيداً، ألاَ ومن مات على حُبِّ آل محمد مات مؤمناً مُستكمِلَ الإيمان، ألَا ومن ماتَ على حُبِّ آل محمد بَشَّره ملكُ الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير، ألا ومَن مَات على حُبِّ آل محمد يُزَفُّ إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حُبِّ آلِ محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد جَعَلَ اللهُ قبرَه مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومَن ماتَ على بُغض آل محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألَا ومَن ماتَ على بُغض آلِ محمد مات كافراً، ألَا ومَن مَات على بُغض آل محمد لم يَشَمَّ رائحةَ الجنة»(٢).

قال النحاس: ومذهبُ عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامَهم، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قطعوه فقال: قل: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لِقرابتي، ولا تُكذِّبوني(٣).

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخارِيِّ والشعبيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ.

قال النحاس(٤): وقول الحسن حسن، ويدلُّ على صحته الحديثُ المُسنَدُ عن

---

(١) ينظر التعليق التالي.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، ونسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي وقال: آثار الوضع عليه واضحة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦١٩ ، وسلف قول عكرمة أول هذه المسألة.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٠ .

رسول الله ﷺ كما حدَّثنا أحمدُ بن محمد الأزدي قال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان المُرادي قال: أخبرنا أسدُ بن موسى قال: حدثنا قَزَعةُ ـ وهو ابن سُويد[1] البصري ـ قال: حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا أسألُكم على ما أُنبئكم به من البيِّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادُّوا الله عزّ وجلّ وأن تتقرَّبوا إليه بطاعته». فهذا المُبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلَه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

الثانية: واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت تنوبه نوائبُ وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إنَّ هذا الرجل هداكم اللهُ به، وهو ابن أُختكم[2]، وتنوبه نوائبُ وحقوقٌ لا يسعها ما في يديه، فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أَتَوْه به فنزلت[3].

وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصارُ والمهاجرون، فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسَم عن ابن عباس قال: سمع رسولُ الله ﷺ شيئًا، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أَذِلَّاءَ فأعزَّكم الله بي. ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألا تردُّون عليَّ»؟ فقالوا: بِمَ نُجيبكَ؟ قال: «تقولون: ألم يَطْرُدْكَ قومُك فآويناك. ألم يُكَذِّبك قومُك فصدَّقناك» فعدَّد عليهم. قال: فَجَثَوْا على رُكَبهم فقالوا: أَنْفُسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4].

(١) في النسخ: يزيد، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وسلف الحديث قريباً، وذكرنا أنه ضعيف.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): أخيكم، والمثبت من (ظ).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٣.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٨٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢: رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد، وفيه لين. قلنا: وفيه يزيد بن أبي زياد، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٠١: هو ضعيف. والحديث أخرجه - دون ذكر نزول الآية - أحمد (١٢٠٢١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ بنحوه. قال =

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا؛ فنزلت هذه الآية، لِيحُثَّهم على مودَّته ومودَّة أقربائه[(١)]. قال الثعلبي: وهذا أشبهُ بالآية، لأن السورةَ مكيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب. وأصلُ القَرْف الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لِعياله، أي: يَكسِبُ. والاقتراف الاكتساب[(٢)]، وهو مأخوذٌ من قولهم: رجلٌ قُرَفَة، إذا كان مُحتالاً[(٣)]. وقد مضى في «الأنعام» القول فيه[(٤)].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: المودّة لِآل محمد ﷺ[(٥)]. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ أي: نُضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: «غَفُورٌ» للذنوب، «شَكُورٌ» للحسنات. وقال السّدي: «غَفُورٌ» لذنوب آل محمد عليه الصلاة والسلام، «شَكُورٌ» لحسناتهم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون: افترى. واتَّصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ١٧] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ يعني: كفار قريش قالوا: إنّ محمدًا

= الحافظ ابن كثير: وذِكْرُ نزولها في المدينة فيه نَظَرٌ، لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٥ بنحوه.

(٢) الصحاح (قرف).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٠ .

(٤) ٨/ ٥٠٥ .

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٥١ عن السدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ .

اختلق الكذب على الله.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ﴾ شرطٌ وجوابُه. ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأَخبرهم اللهُ أنه لو افترى عليه لَفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إنْ يشأ اللهُ» يربِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبَك مشقَّةٌ من قولهم. وقيل: المعنى: إنْ يشأ يُزِلْ تمييزك. وقيل: المعنى: لو حدَّثت نَفْسَك أن تفتريَ على الله كذبًا لَطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى[١].

وقيل: فإن يشأ الله يَخْتِمْ على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم، ويعاجلهم[٢] بالعقاب. فالخِطاب له والمرادُ الكفار؛ ذكره القشيري.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ قال ابن الأنباري[٣]: «يَخْتِمْ على قَلْبِكَ» تامٌّ.

وقال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ مجازه: واللهُ يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذِفت من قوله: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾[٤] [الإسراء: ١١] ولأنه عطفٌ[٥] على قوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾.

وقال الزجاج: قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ تمام؛ وقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ احتجاجٌ على مَن أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي: لو كان ما أتى به باطلًا لَمحاه كما جرت به عادته في المُفترين[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٢) في النسخ: وعاجلهم، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٥٣٥، وروح المعاني ٢٥/ ٣٥، والقول فيهما.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٥) كذا في النسخ، والمفسرون على أنه مرفوع ـ كما ذكر المصنف آنفاً ـ وليس معطوفاً على «يختم». ينظر الكشاف ٣/ ٤٦٨، ومجمع البيان ٢٥/ ٤٨، وروح المعاني ٢٥/ ٣٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨١.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الإسلام فَيُبيِّنه[1] ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عامٌّ، أي: بما في قلوب العباد. وقيل: خاصٌّ. والمعنى: إنك لو حدَّثت نفسَك أن تفتريَ على الله كذباً لَعلمه وطَبَعَ على قلبك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال قومٌ في نفوسهم: ما يريد إلا أن يَحُثَّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأنهم قد اتَّهموه، فأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسولَ الله، فإنا نشهدُ أنك صادقٌ ونتوب. فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: أي: عن أوليائه وأهل طاعته[2].

والآية عامة. وقد مضى الكلامُ في معنى التَّوبة وأحكامِها[3]؛ ومضى هذا اللفظ في «براءة»[4].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عن الشِّرك قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: من الخير والشرّ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب[5]، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه[6]. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين

---

(١) في (م): فيثبته.

(٢) ذكر قولي ابن عباس رضي الله عنهما البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٦.

(٣) ٦/ ١٤٩ وما بعدها.

(٤) ١٠/ ٣٦٦.

(٥) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥.

خبرين: الأوّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ والثاني: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

«ٱلَّذِينَ» في موضع نصب؛ أي: ويستجيبُ اللهُ الذين آمنوا[١]، أي: يقبل عبادةَ من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يُعطيهم مسألتَهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويُجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»[٢].

وقال ابن عباس: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ يُشَفِّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ قال: يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم[٣].

وقال المُبرِّد: معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: وَلِيستدعِ[٤] الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقةُ معنى استفعل. فـ«ٱلَّذِينَ» في موضع رفع[٥]. ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعةَ الرزق. وقال خَبَّاب بن الأرَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنَّيناها فنزلت[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٢ .

(٢) ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٤) في (ظ): ويستدع.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه: وَسَّع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا. ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بَغْيهم طَلَبهم منزلةً بعد منزلة، ودابَّةً بعد دابَّة، ومركباً بعد مركب، ومَلْبساً بعد مَلْبس[١].

وقيل: أراد: لو أعطاهم الكثيرَ لَطلبوا ما هو أكثرُ منه، لقوله: «لو كان لابن آدمَ واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا»[٢] وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواءً في المال لما انقاد بعضُهم لبعض، ولتعطَّلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سببُ الرزق؛ أي: لو أدام المطرَ لَتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارةً لِيتضرَّعوا وَيَبْسُط أُخرى لِيشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضُهم على بعض؛ فلا يبعد حملُ البغي على هذا.

الزّمخشرِيّ[٣]: «لَبَغَوْا» من البغي وهو الظُّلم؛ أي: لَبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مَأْشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي زَهْرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[٤]. ولبعض العرب:

وقد جعل الوسْمِيُّ يُنبت بيننا   وبين بني رُومان نَبْعًا وشَوْحَطا[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد (٢١١١١) من حديث أُبَيّ ﷺ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس ﷺ وفيهما: «من مال» بدل: «من ذهب»، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه، وسلف ١٣/ ٢٠٨ .

(٥) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠ ، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥ ، وابن منظور في اللسان (شحط). وفيه وفي (م): دودان، بدل: رومان.

وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠ ، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوْحط ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

يعني: أنهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن[١]. أو من البَغْي، وهو البَذَخ والكِبْر؛ أي: لَتَكَبَّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكِبْرَ من العُلوّ فيها والفساد.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يُنزِّل أرزاقَهم بقدر ما يشاء لِكفايتهم. وقال مقاتل: «يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يشاءُ» يجعل من يشاء غَنيًّا ومن يشاء فقيرًا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعالُ الربِّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يَجِبْ على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بَسَطَ عليه قادَه ذلك إلى الفساد فَيَزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيقُ الرزق هوانًا ولا سعةُ الرزق فضيلةً؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلافَ ما فعل لكانوا أقربَ إلى الصلاح. والأمرُ على الجُملة مفوَّضٌ إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنسٌ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى قال: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمُحاربة، وإني لأسرعُ شيء إلى نُصْرة أوليائي، وإني لأغضبُ لهم كما يغضب الليث الحَرِد، وما تردَّدت في شيء أنا فاعلُه تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره إساءتَه ولا بدَّ له منه. وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمنُ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومُؤَيِّدًا، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتُه. وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُه إيَّاه لَدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه لأَفسده الفَقْر. وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده الغِنى. وإني لَأُدَبِّر عبادي لِعلمي بقلوبهم، فإني عليمٌ خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يُصلحهم إلا الغِنى، فلا تُفقرني برحمتك[٢].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): التغابن، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٧ . دون قول أنس ﷺ وضعَّفه الحافظ ابن حجر في الفتح =

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وغيرهما والكسائي: «يُنزِل» مُخفَّفًا. الباقون بالتشديد[١]. وقرأ ابن وَثّاب أيضًا والأعمش وغيرهما: «قنِطوا» بكسر النون[٢]؛ وقد تقدَّم جميعُ هذا[٣]. والغيث المطر؛ وسُمِّي الغيثُ غيثاً لأنه يَغيثُ الخلق. وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها. وغاث اللهُ البلاد يَغيثها غَيْثًا. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا، فهي أرضٌ مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِروا، فسألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثًا؛ أي: مُطِرنا. وقال ذو الرُّمة: قاتل اللهُ أَمَةَ بني فلان ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطرُ عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري[٤]. وربما سُمِّي السحاب والنبات غَيْثًا.

والقنوط الإياس؛ قاله قتادة[٥]. ذُكِر أنّ رجلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحط المطرُ، وَقَلَّ الغيثُ، وقَنَط الناس؟ فقال: مُطِرتُم إنْ شاء الله؛ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾[٦]. والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماوردِيّ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: المطر؛ وهو قول السُّدي. وقيل: ظهور الشمس بعد

= ١١/ ٣٤٣، وأخرج بعض ألفاظه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٤١١، وقول أنس ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب - وقرأ بها حمزة - في السبعة ص ١٦٥، والتيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(٣) ٢/ ٢٥١ و١٢/ ٢٢٣.

(٤) في الصحاح (غيث).

(٥) بعدها في (م) و(ي): وغيره، قال قتادة. والمثبت موافق للنكت والعيون (والكلام منه) ٥/ ٢٠٣.

(٦) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

المطر؛ ذكره المَهدَوِي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكةَ سبعَ سنين حتى قَنطوا، ثم أنزل الله المطر[١]. وقيل: نزلت في الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ عن المطر يومَ الجمعة في خبر الاستسقاء[٢]؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الوَلِيُّ» الذي ينصر أولياءه. «الحَمِيدُ» المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علاماته الدَّالة على قُدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكةُ والناس[٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]. وقال الفرَّاء: أراد: ما بثَّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب[٤]. وقال أبو عليّ: تقديره: وما بثَّ في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٢٨.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٩٣)، والبخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ وأوله: بينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا...

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٥١٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/٢٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/٨٢.

«بِمَا كَسَبَتْ» بغير فاء. الباقون «فَبِمَا» بالفاء[١]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر.

قال المهدَوِيّ: إنْ قدَّرت أن «ما» الموصولة جاز حذفُ الفاء وإثباتُها، والإثباتُ أحسنُ. وإن قدَّرتها التي للشرط لم يَجُزِ الحذفُ عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٢١].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن[٣]. وقال الضحاك: ما تعلَّم رجلٌ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مُصيبة أعظمُ من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك[٤] عن عبد العزيز بن أبي روَّاد. قال أبو عبيد[٥]: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائبٌ في تلاوته، حريصٌ على حِفْظه إلا أن النِّسيان يغلِبه فليس من ذلك في شيء. ومما يُحقِّق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة أنَّ[٦] النبي ﷺ سمع قراءةَ رجل في المسجد فقال: «ماله ـ رَحِمه الله ـ لقد أذْكرني آياتٍ كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»[٧].

وقيل: «ما» بمعنى الذي، والمعنى: الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم[٨]. وقال عليّ ﷺ: هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يُكفِّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير فيما يبقى بعدَ كفارته وعفوِه؟! وقد رُوي هذا المعنى

---

(١) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٤ .

(٤) في الزهد (٨٥).

(٥) في غريب الحديث ٣/ ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) في (د) و(م): عن.

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٥)، والبخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨). والرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته هو عبّاد بن بشر ﷺ. كما في صحيح البخاري (٢٦٥٥) وفتح الباري ٥/ ٢٦٥ .

(٨) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٣ واستبعده.

مرفوعًا عنه ﷺ، قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ألَا أُخبركم بأفضلِ آية في كتاب الله حدّثنا بها النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ الآية: «يا عليّ، ما أصابَكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم. واللهُ أكرمُ من أن يُثنّيَ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلمُ من أن يُعاقب به بعد عَفْوه»[١]. وقال الحسن: لما نزلت هذه الآيةُ قال النبيّ ﷺ: «ما مِن اختلاج عِرْق ولا خَدْشِ عُود ولا نَكْبةِ حَجَر إلّا بذنب، ولما يعفو اللهُ عنه أكثر»[٢].

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بدَّ أن أسألك عما أرى بك من الوَجَع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله، إني لأُحِبُّ الوَجَع، ومَنْ أحبَّه كان أحبَّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثرُ. وقال مُرَّة الهَمْداني: رأيتُ على ظهر كفِّ شُريح قرحةً فقلت: يا أبا أُميَّة، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير[٣].

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما رَكِبه الدَّين اغتمَّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغمَّ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة[٤]. وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي: قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللَّوْمَ عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[٥]. وقال عِكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبدًا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله لِيغفره له إلا بها أو لِينال درجةً لم يكن

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٢٨ . وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سُخيلةَ، وهما مجهولان، فيما قاله الحافظ ابن حجر في التقريب. وقد أخرجه بنحوه ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥). والترمذي (٢٦٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩ ، وهو هكذا مرسل.

(٣) ذكر هذا الخبر والذي قبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٧١ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٨ .

يُوصله إليها إلا بها[١].

ورُوي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى، سَلِ اللهَ لي في حاجة يقضيها لي هو أعلمُ بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزَّق السَّبع لحمه وقَتَله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال اللهُ تبارك وتعالى له: يا موسى، إنه سألني درجةً عَلِمتُ أنه لم يبلُغْها بعمله فأصبتُه بما ترى لأجعلها وسيلةً له في نَيْل تلك الدرجة. فكان أبو سليمان الدَّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن يُنيلَه تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء[٢].

قلت: ونظيرُ هذه الآية في المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وقد مضَى القولُ فيه.

قال علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخَّرةٌ إلى الآخرة. وقيل: هذا خطابٌ للكفار، وكان إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردَّ عليهم وقال: بل ذلك بشؤم كُفركم. والأوّل أكثرُ وأظهرُ وأشهر.

وقال ثابت البُنانِيّ: إنه كان يقال: ساعات الأذى يُذهبن ساعاتِ الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبةً لهم، وفي الأطفال أن تكون مَثُوبة لهم. الثاني: أنها عقوبةٌ عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي: يعفو عن كثير من العُصاة ألّا يعجل عليهم بالعقوبة[٣]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بفائتين الله؛ أي: لن تُعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تقدَّم في غير موضع[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٢٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٥٣) بنحوه دون قول أبي سليمان.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٤ .

(٤) ٢/ ٣١١ .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالَّة على قُدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عِظَمها أعلامٌ. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. سُمِّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابَّة؛ سُمِّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي[١]. وذكر الماوَرْدي[٢] عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم[٣]. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإنّ صخراً لتأتَمُّ الهُداة به كأنه علَمٌ في رأسهِ نار[٤]

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ كذا قراءة العامة، وقراءة أهل المدينة: «الرِّيَاح» بالجمع[٥]. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فتبقى السفنُ سواكنَ على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركودًا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظَّهيرة. وكلّ ثابتٍ في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. ورَكد القوم هَدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره[٦].

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام الأولى[٧] على أن يكون لغة، مثلُ ضَلِلت أَضِل[٨]. وفتح اللام هي اللغة المشهورة.

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٤/١٢٨.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٢٨.

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٩.

(٥) السبعة ص١٧٣، والتيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٦) الصحاح (ركد).

(٧) المحرر الوجيز ٥/٣٨.

(٨) في النسخ: ظللت أظل، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٧١، وينظر ما قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات وعلامات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نِعْمَ العبد الصبَّار الشَّكور، الذي إذا أُعطِي شكر وإذا ابتُلِي صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلًى غير صابر[١].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياحَ عواصفَ فَيُوبق السفن؛ أي: يُغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يُوبق أهل السفن[٢]. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يُغرقهم معها؛ حكاه الماوردي[٣]. وقيل: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي: ويتجاوز عن كثير من الذنوب فَيُنجيهم اللهُ من الهلاك.

قال القُشَيرِيّ: والقراءة الفاشية: «وَيَعْفُ» بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يُسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدَ ويُهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يَعْفُ» على هذا لأنه يصير المعنى: إنْ يشأ يعفُ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم: «ويعفو» بالرفع، وهي جيدة في المعنى[٤].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي: إذا توسَّطوا البحر وغَشِيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكدَ علموا أنه لا مَلْجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إنْ أراد اللهُ إهلاكهم، فَيُخلصون له العبادة. وقد مضى هذا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٩ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكر قول القشيري أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١ ، ثم قال: ما قاله ليس بجيد، إذ لم يَفْهم مدلول التركيب، والمعنى: أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم.

المعنى في غير موضع[١]، ومضى القولُ في ركوب البحر في «البقرة» وغيرها بما يُغني عن إعادته.[٢]

وقرأ نافع وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع، الباقون بالنصب[٣]. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] رفعًا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتِكَ وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبرُ ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم[٤]؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يَهْلِكْ ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِكَ[٥] بعده بذِناب عَيْشٍ أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنام[٦]

وهذا معنى قول الفرّاء[٧]، قال: ولو جزم «ويعلم» جاز. وقال الزّجاج[٨]: نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزمًا؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأكرمَك. وإنْ شئتَ قلت: وأُكرمْك، بالجزم.

وفي بعض المصاحف: «ولِيعلمَ». وهذا يدلُّ على أن النصب بمعنى: وليعلم، أو لأنْ يعلم.

---

(١) ١٠/ ٤٧٥ و١٦/ ١٩٣ .

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٥) في النسخ: ويمسك، والمثبت من المصادر.

(٦) ديوان النابغة ص ١١٠ . وأبو قابوس: هو النعمان بن المنذر، وسلف البيتان ١٠/ ١٢٩ . وينظر ضبط قوله: أجبّ الظهر في خزانة الأدب الشاهد (٧٥٦).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩ .

وقال أبو عليّ والمبرّد: النصب بإضمار «أن» على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي: ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حَمَله على الاسم أضمرَ أن، كما تقول: إنْ تَأْتِني وتُعطيَني أُكرمك، فتنصب تُعطيني، أي: إن يكن منك إتيانٌ وأنْ تُعطيني[١].

ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من فِرار ومَهْرب؛ قاله قُطْرُب. السدي: مِن مَلْجأ. وهو مأخوذٌ من قولهم: حاص به البعير حيصةً إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق، أي: يميلُ عنه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يريد من الغِنى والسَّعة في الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ﴾ أي: فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخرَ به. والخِطاب للمشركين. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ووحَّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدِّيق حين أنفق جميعَ ماله في طاعة الله فلامَه الناسُ[٣]. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوفٌ على قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٤] أي: وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وقد مضى القولُ

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وحديث إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٦ .

في الكبائر في «النساء»[(١)].

وقرأ حمزة والكسائي: «كَبيرَ الإثْم»[(٢)] والواحد قد يُراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما جاء في الحديث: «مَنَعتِ العراقُ دِرْهمها وَقَفِيزَها»[(٣)]. الباقون بالجمع هنا وفي «النجم» [الآية: ٣٢].

﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قال السُّدِّي: يعني الزنى[(٤)]. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشِّرك[(٥)].

وقال قوم: كبائرُ الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحشَ وأشنعَ، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحد، فكرَّر لِتعدُّد اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصي لأنها كبائرُ وفواحشُ.

وقال مقاتل: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدود[(٦)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويَحلُمون عمن ظَلَمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتِم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامَه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله

(١) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٥)، ومسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والقفيز: اثنا عشر صاعاً. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[١]. وقال ابن عباس: شَتَم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردَّ عليه شيئًا؛ فنزلت الآية[٢]. وهذا من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويَصْفَحون لمن جَهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وهو أن يتناولك الرجلُ فتكظِم غيظَك عنه. وأنشد بعضهم:

إنـي عـفـوتُ لـظـالـمـي ظـلـمـي ووهـبـتُ ذاك لـه عـلـى عِـلْـمـي
مـا زال يَـظْـلِـمُـنـي وأرحـمُـه حـتـى بَـكـيـتُ لـه مـن الـظُّـلـم[٣]

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته، مثل البُشرى والذِّكرى ونحوه.

فكانت الأنصارُ قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه؛ فَمدَحَهُم الله تعالى به؛ قاله النقَّاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متَّفقون لا يختلفون؛ فَمُدِحوا باتِّفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورُهم حين سمعوا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢، وسلف الخبر في تفسير الآية السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، وأبو داود (٤٨٩٦) مطولاً دون ذكر الآية.

(٣) ذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٣٦٦ ونسبهما لمحمود الوراق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

بظهور رسول الله ﷺ، وورد النُّقباء إليهم حتى اجتمع رأيُهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنُّصرة له. وقيل: تشاورُهم فيما يعرِض لهم؛ فلا يستأثر بعضُهم بخبر[١] دون بعض.

وقال ابن العربي[٢]: الشُّورَى أُلفةٌ للجماعة ومِسْبارٌ للعقول وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعِنْ ... برأي لبيبٍ أو مشورةِ حازم
ولا تجعل الشُّورى عليك غَضاضة ... فإنَّ الخَوافي نافعٌ للقوادم[٣]

فمدح اللهُ المشاورةَ في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثَّلون ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ يُشاور أصحابَه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآثار[٤] كثيرٌ. ولم يكن يُشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنزلةٌ من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يَتشَاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنُصَّ عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[٥].

وقال عمر ﷺ: نرضى لِدُنيانا مَنْ رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا[٦]. وتشاوروا في أهل الرِّدَّة فاستقرَّ رأيُ أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ (والأقوال السالفة كلها منه): بخير.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٦ . والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٢/ ٥٠٣ ، وعجز البيت الأول فيه: برأي نصيح أو نصيحة حازم. وعجز البيت الثاني: مكان الخوافي قوة للقوادم. والخوافي: ريشاتٌ إذا ضمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيَتْ، والقوادم: أربع أو عشر ريشات في مُقدَّم الجناح. القاموس المحيط (خفي) و(قدم).

(٤) في النسخ: الآراء، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٦) سلف ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ و٩/ ١٦٧ من قول علي ﷺ.

وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمرُ الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهُرْمُزان: مَثَلُها وَمَثَلُ من فيها من الناس من عدوٍّ المسلمين مَثَلُ طائرٍ له رأس[١] وله جناحان ورجلان، فإن كُسِرَ أحدُ الجناحين نَهَضَتِ الرِّجلان بجناح والرأس، وإنْ كُسِرَ الجناحُ الآخر نَهَضتِ الرِّجلان والرأس وإن شُدِخ الرأسُ ذهب الرِّجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرِ المسلمين فَلْينفِروا إلى كِسْرى. وذكر الحديث[٢].

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلت الذي يَرَوْن؛ فإن أصبتُ فهم المُصيبون، وإن أخطأتُ فهم المُخطئون[٣].

الثالثة: قد مضى في «آل عمران» ما تضمَّنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الآية: ١٥٩]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المَشُورة بضم الشين؛ تقول منه: شاوَرْته في الأمر واستشرته بمعنًى[٤].

وروى الترمذي[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سُمَحاءَكم وأَمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم وأغنياؤكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظَهْرها». قال حديث غريب[٦]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم يتصدَّقون. وقد تقدّم في «البقرة»[٧].

---

(١) في النسخ: ريش، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٦ - ١٦٥٧ .

(٤) الصحاح (شور).

(٥) في سننه (٢٢٦٦).

(٦) وقال أيضاً: لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المُرِّيُّ في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

(٧) ١/ ٢٧٣ وما بعدها .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: أصابهم بَغيُ المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذَوْهم وأخرجوهم من مكة، فأذِنَ اللهُ لهم بالخروج، ومَكَّنَ لهم في الأرض، ونَصَرهم على من بَغَى عليهم[١]؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ الآيات [٣٩-٤١] كلها. وقيل: هو عامٌّ في بَغْي كل باغ من كافر وغيره[٢]، أي: إذا نالهم ظُلم لم يستسلموا لِظُلمه. وهذه إشارةٌ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

قال ابن العربي[٣]: ذَكَر اللهُ الانتصار في البغي في مَعْرِض المَدْح، وذكر العفو عن الجُرم في موضع آخرَ في مَعْرِض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدُهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور، وَقِحًا في الجمهور، مُؤذِيًا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضلَ. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق.

الثانية: أن تكون الفَلْتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزَّلَّة ويسأل المغفرة؛ فالعفو

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه عن عطاء.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٩٢.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٧.

هاهنا أفضلُ، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٨]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في «أحكامه»[١] قال: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ يدل ظاهرُه على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمولٌ على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصرَّ على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مُقْلِعاً. وقد قال عَقِيب هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحةَ الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقَّبه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وهو محمولٌ على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المُصِرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلَها.

وقيل: أي: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يُزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر[٢]. وهو راجعٌ إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صِنفين: صنف يعفُون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم[٣]. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فينتصر ممن ظَلَمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبٍّ أو شَتْم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان[٤]. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام[٥].

---

(١) ٤/٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٦.

(٣) زاد المسير ٧/٢٩١ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/٢٠٧.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/٢٦٧.

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أنَّ للإنسان أن يأخُذَ من مال مَن خانَه مثلَ ما خانه من غير عِلْمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوجِ أبي سفيان: «خُذي من مالهِ ما يَكفيكِ وولَدَكِ»[١] فأجاز لها أخذَ ذلك بغير إِذْنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «البقرة»[٢].

وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمولٌ على المُقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه اللهُ، أو لعنه الله أن يقول مثلَه. ولا يُقابل القذفَ بقذف، ولا الكذب بكذب[٣].

وقال السُّدِّي: إنما مدح اللهُ من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله[٤].

وسُمِّي الجزاء سيئةً لأنه في مُقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفى[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن اللهَ يأجُره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في «آل عمران» في هذا ما فيه كفاية[٦]، والحمد لله.

وذكر أبو نعيم الحافظ[٧] عن علي بن الحسين رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أيكم أهل الفضل، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٣/ ٢٤٩ ، وسلف ثمة حديث هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧ .

(٥) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٦) ٥/ ٣١٩ وما بعدها.

(٧) في حلية الأولياء ٣/ ١٣٩ .

الملائكةُ، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟! قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهلُ الفَضْل؛ قالوا: وما كان فَضْلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حَلُمنا وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عَفَوْنا؛ قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين. وذكر الحديث.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب مَن يتعدَّى في الاقتصاص ويُجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى[1].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيلَ إلى لَوْمه، بل يُحمَدُ على ذلك مع الكافر. ولا لومَ إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفيَ ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصاً في بدن يستحقُّه آدميٌّ، فلا حرجَ عليه إن استوفاه من غير عُدوان وثبت حقُّه عند الحُكّام، لكن يزجره الإمام في تفرُّده[2] بالقصاص لما فيه من الجُرأة على سفك الدم. وإن كان حقُّه غيرَ ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مُطالَبٌ وبفعله مُؤاخَذٌ ومُعاقَب.

القسم الثاني: أن يكون حدًّا لله تعالى لا حقَّ لآدمي فيه، كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يَثْبُتْ ذلك عند حاكم أُخِذَ به وعُوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حقٌّ إلا التعزير أدباً[3]، وإن كان جَلْداً لم يسقط به الحَدُّ لِتعدّيه مع بقاء محلِّه، فكان مأخوذاً بحكمه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) في (د): تقويه، وفي (ف) و(م): تفوته، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٢٠٨ والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) في النسخ: لأن التعزير أدب، والمثبت من النكت والعيون.

القسم الثالث: أن يكون حقًّا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يُغالب على حقِّه حتى يصل إليه إن كان هو ممن هو عالمٌ به[١]، وإن كان غيرَ عالم نُظر، فإنْ أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرارُ بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمُطالبة لِجُحود من هو عليه من عدم بيّنةٍ تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جُريج: أي: يظلمونهم بالشِّرك المُخالف لدينهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفارُ قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً[٢]. وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد: إنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بالجهاد، وإنَّ هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عامٌّ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام[٣]. وقد بيَّنّاه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: هذه الآيةُ في مقابلة الآية المتقدّمة في «براءة» وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [الآية: ٩٢]؛ فكما نفى اللهُ السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها[٥] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالًا معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل: لا؛ وهو قول سُحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إنْ قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن

---

(١) في النكت والعيون: إن كان من هو عليه عالماً به، وكلاهما بمعنى.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٢٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ .

(٥) في النسخ: نفاها، والمثبت من أحكام القرآن.

نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدلُّ عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخُلطاء شاةً وليس في جميعها نصاب: إنها مظلمة على من أُخذت له لا يرجِع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظُّلم لا أُسوةَ فيه، ولا يلزم أحدٌ أن يُولج نفسَه في ظُلم مخافةَ أن يُضاعَفَ الظُّلمُ على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ .

التاسعة: واختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يُحلل أحدًا من عِرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يُحلِّلان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أُحلِّل أحدًا، فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له: يا أبا عبد الله، الرجلُ يُسلف الرجلَ فَيَهْلِكُ ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يُحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨]. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مُخالفٌ للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة:٩٢] فلا أرى أن يجعله من ظُلمه في حِلّ .

قال ابن العربي[١]: فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُحلِّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيّب. الثاني: يُحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالاً حلَّله وإن كان ظُلماً لم يُحلِّله؛ وهو قول مالك .

وجه الأوّل ألّا يُحلِّل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقُّه فله أن يُسقطَه كما يُسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تُحلِّله[٢]، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركَه لئلا تغترَّ الظَّلَمةُ ويسترسلوا[٣] في أفعالهم القبيحة .

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ ، وما قبله منه.

(٢) في (د): يحلله، وفي (م): يتحلله، والمثبت من (ظ).

(٣) في النسخ الخطية: يستشرون، والمثبت من أحكام القرآن.

وفي «صحيح» مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لِغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأتَ مني؟ قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أكذِبُك، خَشيتُ ـ والله ـ أن أُحدِّثَك فأكذِبَك، وأن أَعِدَك فأُخْلِفك، وكنتَ صاحبَ رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِرًا. قال: قلت: آللهِ؟ قال اللهِ[١]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلّ. وذكر الحديث[٢].

قال ابن العربي[٣]: وهذا في الحي الذي يُرجى له الأداء لسلامة الذِّمَّة ورجاء التَّحَلُّل[٤]، فكيف بالميت الذي لا مُحاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة: قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأُخِذ له مالٌ فإنما له ثوابٌ ما احتُبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيحٌ في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالمُ قبل مَن ظَلَمه ولم يترك شيئاً، أو ترك ما لم يعلم وارثُه فيه بظلم لم تنتقل تِباعةُ المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى و«غفر» أي: ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظَلَمه مسلم. ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عَقَلها والله، وفهمها إذ ضيَّعها الجاهلون[٥].

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٨/ ١٣٥ : الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة، هذا هو المشهور. قال القاضي: رويناه بكسرها وفتحها معاً، قال: وأكثر أهل العربية لا يُجيزون غير كسرها.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٦).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٩ .

(٤) في النسخ: التمحل، وجاء في هامش (ي): يقال: تمحل، أي: احتال، فهو مُتَمحِّل. قاله الجوهري [الصحاح (محل)]. والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٣ ، وما بعده منه.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع تركُ العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشةَ رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونَكِ فانتصري» خرجه مسلم في «صحيحه» بمعناه[1].

وقيل: «صَبَر» عن المعاصي وستر على المساوئ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء[2] أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ مع ثلاث آيات قبلها، وقد شَتَمه بعضُ الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المَدَنِيَّات من هذه السورة.

وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آيةُ القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم[3].

وفي تفسير ابن عباس: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة[4] وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٥٧٥)، والبخاري (٢٥٨١) بنحوه أيضاً، وأخرجه بلفظ المصنف أحمد (٢٤٦٢٠).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ وما قبله وما بعده منه.

(٣) تقدم آخر المسألة السادسة.

(٤) هو عُبيدة بن الحارث بن المطلب، القرشي، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وبارز فيها مع حمزة وعلي رضوان الله عليهم عُتبةَ وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة، وأصل قصتهم في صحيح البخاري (٣٩٦٥)، وينظر الإصابة ٦/ ٣٦٩.

الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حيث قَبِلوا الفِداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخْذُله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيِّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القُربى، ولم يُصدِّقه في البعث وأن متاعَ الدنيا قليل. أي: من أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياء فلَا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل: رَأَوُا العذابَ عند الموت. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيعملوا بطاعة الله، فلا يُجابون إلى ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذابَ هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال: عليه.

ثم قيل: هم المشركون جميعاً يُعرَضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصًا، تُحبس أرواحُهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عَرْضُهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليه ذنوبهم في قبورهم، ويُعرضون على العذاب في قبورهم؛

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥٢٩ بنحوه.

وهذا معنى قول أبي الحجاج[١].

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذهب بعض القُرَّاء إلى الوقف على «خَاشِعينَ». وقوله: «مِنَ الذُّلِّ» ومُتعلِّقٌ بـ «يَنْظُرُونَ». وقيل: متعلق بـ «خَاشِعِينَ»[٢]. والخشوع الانكسار والتواضع.

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًّا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم بريبة فيكون عليه منها غَضاضة. وقال مجاهد: «مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عُمياً[٣]، وعين القلب طرفٌ خفِيٌ[٤]. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف[٥]. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: «مِن» بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذُّل والخوف، ونحوه عن الأخفش[٦]. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل[٧]. وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لِمَا يرون من أصناف العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخُسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المُخلّد، وخسروا أهليهم لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ ، والكشاف ٣/ ٤٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٣ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١ : في هذا التأويل تكلُّف، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤ : فيه تعسُّف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٣ عن قتادة والسدي.

(٦) ذكر الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٨٧ قول يونس.

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٢ .

الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهلٌ في الجنة من الحور العِين[١].

وفي «سنن» ابن ماجه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له مَنْزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخلَ النارَ وَرِثَ أهلُ الجنة منزلَه فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وقد تقدم[٢].

وفي «مسند» الدّارِميّ: عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُدخله الله الجنةَ إلا زوَّجه اثنين وسبعين زوجةً من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، وما منهنَّ واحدةٌ إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذَكَر لا يَنْثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أُدخلوا النار فورث أهلُ الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون[٣].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعواناً ونُصراء ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق يَصِلُ به إلى الحقّ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ بنحوه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٤١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢ ، وسلف ١٥/ ١٦ .

(٣) لم نقف عليه في مسند الدارمي، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٣٧)، وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك. وهَّاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٥ . وهشام بن خالد هو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢ .

في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدَّت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنًى؛ وقد تقدّم. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد يومَ القيامة؛ أي: لا يردُّه أحدٌ بعد ما حكم اللهُ به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ أي: من ملجأ يُنجيكم من العذاب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المُنكر؛ كالأليم بمعنى المُؤلِم؛ أي: لا تجدون يومئذ مُنكِراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي[١]. الزجاج[٢]: معناه: أنهم لا يقدرون أن يُنكروا الذنوبَ التي يُوقَفون عليها. وقيل: «مِنْ نَكِيرٍ» أي: إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغييرُ المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تُحاسبَهم عليها. وقيل: مُوَكَّلاً بهم لا تُفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي: ليس لك إكراهُهم على الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال[٣]. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩٥.

بَطِرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ وشدَّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدَّم من النعمة، فيعدّد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قال عَبيدة[١] وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكورًا لا إناثَ معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف، فميَّزهم بسمة التعريف[٢]. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِن يُمْن المرأة تبكيرَها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث[٣].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ قال مجاهد: هو أن تَلِدَ المرأة غلاماً ثم تلد جاريةً، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية[٤]. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً[٥]. قال القُتبيّ[٦]: التزويج هاهنا هو الجمع بين

(١) في النسخ: أبو عبيدة: والمثبت من المصادر، وهو عَبيدة السلماني.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٧ ، وأخرج أقوال عَبيدة السلماني والحسن والضحاك الطبري ٢٠/ ٥٣٧ - ٥٣٩ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٦) في غريب القرآن ص ٣٩٤ .

البنين والبنات؛ تقول العرب: زوَّجتُ إبلي، إذا جمعت بين الكبار والصغار.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولَد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَدُ. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عَظُم يَعْظُم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي: تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي: لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه إنَّ النساءَ بمثله عُقْمُ[1]

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصًا وإن عمَّ حُكمها؛ وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكَر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين[2]؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمَّت .﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يُولد له ذَكَر، وإنما ولد له ابنتان .﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يُولَد له أنثى، بل وُلِدَ له ثمانية ذكور. ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام[3]؛ لم يذكر عيسى.

ابن العربي[4]: قال علماؤنا: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني لوطاً، كان له بنات ولم يكن له ابن .﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: «أَوْ يُزَوِّجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين؛ ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله

---

(١) البيت لأبي دَهْبل الجُمحي كما في شرح الحماسة البصرية للمرزوقي ٤/ ١٦٠٥ . والكلام السالف من الصحاح (عقم).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القِبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخَلْق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحد ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النارَ لن تمتلئ حتى يَضَعَ الجَبَّارُ فيها قَدَمَه، فتقول: قَطْ قَطْ. وأما الجنة فيبقى منها، فينشئ اللهُ لها خَلْقاً آخر»[(١)].

الثانية: قال ابن العربي[(٢)]: إنَّ الله تعالى لِعموم قُدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئًا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قُدُّوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم، وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء، كائناً على الحمل، موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا»[(٣)]. وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أَشبهَ الولدُ أعمامَه، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبهَ الولدُ أخواله»[(٤)].

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه، خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٢٤٤٠)، والبخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

(٣) هذا حديث ثوبان ﷺ بنحوه، وسيذكره المصنف قريباً.

(٤) هو حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه كما سيذكر المصنف بعده.

فقال: «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت؛ فقال رسول الله ﷺ: «دَعِيها، وهل يكون الشَّبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبهَ الولد أخوالَهَ، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهَ أعمامَهَ»(١).

قال علماؤنا(٢): فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان ـ خرجه مسلم أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال لليهودي: «ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله، وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله» الحديث(٣). فجعل في هذا الحديث أيضاً العلوَّ يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشَّبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولَا عِلّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشَّبه للأخوال والذكورةَ والشّبه للأعمام والأنوثة، فتعيَّن تأويل أحد الحديثين.

والذي يتعين تأويله [العلو] الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أنَّ العلوَّ لما كان معناه الغَلَبَةَ من قولهم: سابقني فلان فسبقته، أي: غلبته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: بمغلوبين، قيل عليه: علا. ويُؤيِّد هذا التأويل قولُه في الحديث: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا».

وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي(٤) على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين

---

(١) صحيح مسلم (٣١٤)، وأخرجه أحمد (٢٤٦١٠)، وهو عند البخاري (١٣٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بنحوه ودون قوله: «إذا علا ماؤها ماء الرجل...» وقوله: وأُلَّت: أي: أُصيبت بالألَّة، وهي الحربة. المفهم ١/ ٥٧٢ .

(٢) هو قول أبي العباس القرطبي في المفهم١/ ٥٧١ - ٥٧٢ . وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) صحيح مسلم (٣١٥).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٥٧٢ والكلام منه إلى آخر المسألة.

أربعةَ أحوال: الأوّل: أن يخرج ماءُ الرجل أولاً، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماءُ المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماءُ الرجل أوّلاً، ثم يخرج ماءُ المرأة بعده ويكون أكثر، أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثرَ جاء الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه الولدُ أعمامَه بحكم الكَثْرة.

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أُنثى بحكم السَّبق، وأشبه أخواله بحكم الغَلَبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لمَّا خرج ماء المرأة بعدهاكان أكثر، كان الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه أخوالَه بحكم غَلَبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامَه بحكم غَلَبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسامِ يستتبُّ الكلام ويرتفع التعارضُ عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة: قال علماؤنا[1]: كانت الخِلْقة مستمرةً ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخُنثى، فأُتِي به فرِيضَ العرب ومُعمَّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدرِ ما يقول فيه، وأرجأهم عنه؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكارُ وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حالَه، فقالت: ما بك؟ قال لها: سهِرت لأمر قُصدت به، فلم أدرِ ما أقول فيه؟ فقالت: ماهو؟ قال لها: رجلٌ له ذَكَر وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأَمَة: ورّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح، فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين.

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ ﷺ فقضي فيها[2].

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سُئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يُورَّث؟ قال: «من حيث يبول». وروي أنه أُتي

---

(١) هو قول ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦١ - ١٦٦٢ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ .

بخنثى من الأنصار فقال: «ورّثوه من أول ما يبول»[١]. وكذا روى محمد ابن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المُزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البولُ منهما جميعاً؛ قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحُكي عن عليّ والحسن أنهما قالا: تُعَدُّ أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بِضِلَعٍ واحد[٢]. وقد مضى ما للعلماء في هذا الحديث في آية المواريث في «النساء» مجوّداً[٣]، والحمد لله.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٤]: وقد أنكر قوم من رؤوس العوامِّ وجودَ الخُنثى، لأن الله تعالى قسم الخَلْق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سَعة القُدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسعٌ عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجودَ الخُنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القُدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهذا إخبارٌ عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر؛ لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يُكذِّب مُنكرَه، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد علي الإمام الشهيد من بلاد المغرب خُنثى ليس له لحية وله ثديان، وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصُّحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ باللفظ الأول، ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) قال أبو عبد الله الشقاق شيخ ابن العربي فيما نقله عنه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٢ : ولو صح هذا لما أشكل حاله.

(٣) ٦/ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألّا تُكلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نُؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إنَّ موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[(١)] والثعلبي.

﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاما[(٢)]؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي أنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها، فاتقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطلب. خُذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[(٣)].

﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» رؤيا يراها في منامه؛ قاله زهير بن محمد[(٤)]. «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطابٌ منهم للأنبياء يسمعونه نُطقاً ويَرَونه عِياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يَرَهُ منهم إلا محمدٌ وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[(٥)].

---

(١) في أسباب النزول ص ٣٩٦، وذكره عن النقاش الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) في النسخ: محمد بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢١٢، والمصادر، وسلفت ترجمته ٢/ ٣٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة.

وقرأ الزهري وشيبة ونافع: «أَوْ يرسلُ رسولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين[١]. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي: وهو يُرسل. وقيل: «يُرسلُ» بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير: إلا مُوحياً أو مُرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه: وما كان لِبشر أن يُكلِّمه اللهُ إلا أن يُوحي أو يُرسلَ. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير: أو بأن يُرسلَ رسولاً. ولا يجوز أن يعطف «أَوْ يُرْسِلَ» بالنصب على «أَنْ يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لِبشر أن يُرسِلَه أو أن يُرسِلَ إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرُّسلَ من البشر وأرسلَ إليهم[٢].

الثانية: احتجَّ بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يُكلّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المُرسِلَ قد سُميّ فيها مُكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب.

قال ابن المنذر[٣]: واختلفوا في الرجل يحلف ألا يُكلِّم فلاناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنثَ. وقال النَّخَعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يَحنَثُ في الكتاب والرسول. وقال مَرَّة: الرسول أسهلُ من الكتاب.وقال أبو عُبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث من الكتاب. قال ابن المنذر: لا يَحْنَثُ في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك[٤]. قال أبو عمر[٥]: ومن حلف ألّا يكلّم رجلاً فسلّم عليه

(١) قراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ بنحوه.

(٣) في الإشراف ١/ ٤٧٤ .

(٤) كذا قال المصنف، وسلف أن مالكاً قال: يحنث في الكتاب والرسول. وينظر المدونة ٢/ ١٣١ .

(٥) في الكافي ١/ ٤٥٠ .

عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كلّه عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً، أو سلّم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينويَ المُشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول «سورة مريم» هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى(١)، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي: نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحيًا. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار(٢). وسمَّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى: أنزله كما شاء على من يشاء من النَّظم المُعجز والتأليف المُعجب.

ويمكن أن يُحمَلَ قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن؟ قل: إنه من أمر الله أنزله عليّ مُعجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآنَ ربيعُ القلوب كما أن الغيثَ ربيعُ الأرض(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف

---

(١) ١١/ ٨٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢، ما عدا قول الضحاك فهو في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٨.

الطريق إلى الإيمان. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنه ما كان قبل الإيحاء مُتَّصفًا بالإيمان. قال القُشَيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المُعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البِعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به.

قال القاضي أبو الفضل عياض(١): وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالَعَ سِيَرَهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقَّق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: ألِلَّعب خُلقت(٢)؟! وقيل في قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدَّق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له(٣).

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ على قراءة من قرأ: «مَنْ تَحْتَهَا»(٤) وعلى قول من قال: إن المُنادي عيسى، ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ(٥) ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري

(١) في الشفا ٢/ ٢٥٧ .

(٢) سلف ١١/ ٨٧ .

(٣) سلف ٥/ ١١٦ و١١/ ٩٣ .

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو شعبة. السبعة ص٤٠٨ ، والتيسير ص١٤٨ . وسلفت ١١/ ٩٣ .

(٥) سلفت ١٤/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره[١]. وقال ابن عطاء: اصطفيناه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما وُلِدَ إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل: أفعل؛ فذلك رُشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة[٢]. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[٣]. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة[٤]. وقيل: أُوحِي إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم.

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرتْ أن نبينا محمداً ﷺ وُلِدَ حين وُلِدَ باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء[٥]، وقال في حديثه ﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[٦]. ثم يتمكّن الأمر لهم، وتترادف نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٠ .

(٢) ١٤/ ٢٢٨ .

(٣) سلفت قصة الذبيح في الصافات [١٠٣ - ١١٣] وذكرنا ثمة أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام.

(٤) في النسخ: خمسة عشر شهراً، وسلف هذا القول ٨/ ٤٣٨ .

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٢ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٨٥ .

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢١٣ .

قال القاضي[١]: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصْطُفِي ممن عُرِف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدلَّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. قال القاضي: وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته[٢] وتقريعه بذَمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده مُحتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحُجَّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم[٣] آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة[٤]: وتكلم العلماءُ في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام، وتركِ قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِلِ الوجهين منهما العقل، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛

(١) هو القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) في (د) و(م): ألهتهم، والمثبت من (ظ) و(ي)، وهو الموافق للشفا.

(٣) في (د) و(ي) و(م): تركه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للشفا.

(٤) هذه المسألة في الشفا ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و٣٣٥ - ٣٣٧ ، وينظر الإبهاج للسبكي ٢/ ٢٧٥ وما بعدها.

لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتُنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبةً تقتضي إلى أن يكون واحدًا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعتُه مستقِلَّة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلَّ وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١]، ولا حضر حلف المطر[٢]، ولا حلْفَ المُطَيِّبين[٣]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد[٤]؟ فالجواب أن هذا حديثٌ أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدًا وقال: هذا موضوع أو شبيهٌ بالموضوع[٥]. وقال الدَّارَقُطْني: إن عثمان وَهِمَ في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يُلتفَت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام»[٦] وقوله في قصة بحِيرا حين

---

(١) السامر: مجلس السُّمَّار. القاموس (سمر).

(٢) كذا في النسخ، ولم نعرفه. والأحلاف المشهورة قبل البعثة هي حلف الأحلاف وحلف المُطيّبين وحلف الفضول. ينظر السيرة النبوية ١/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) لم يشهد النبي ﷺ حلف المطيبين لأنه كان قبل مولده ﷺ. كما في صحيح ابن حبان بعد الحديث (٤٣٧٤)، وسنن البيهقي ٦/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٧٧).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة القاضي في الشفا ٢/ ٢٦٧ وما بعده منه.

(٦) سلف في المسألة السابقة.

استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرَتِه مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علاماتِ النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فواللهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النمل: ١٢٣] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]. وهذا يقتضي أن يكون مُتعبِّدًا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والحمد لله.

الرابعة: إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري.

وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي[١]: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣][٢] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص.

---

(١) لعله بكر بن العلاء القشيري. وفي الشفا ٢/ ٢٦٦ (والكلام منه): أبو بكر القاضي.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٣٢ .

وقال الحسين بن الفضل: أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي: مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذ كنتَ في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو مُحتَمِل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة[1].

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: كنتَ من قوم أُمِّيين لايعرفون الكتابَ ولا الإيمان، حتى تكونَ قد أخذتَ ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن[2]. وقيل: الوحي؛ أي: جعلنا هذا الوحي ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]. ووحَّد الكنايةَ لأن الفعل في كَثْرة أسمائه بمنزله الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان[3].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي: تدعو وتُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم[4].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ - ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ .

وقرأ عاصم الجحدرِي وحَوْشب: «وَإِنَّكَ لَتُهْدى» غير مسمَّى الفاعل[١]؛ أي: لتُدْعَى. الباقون: «لَتَهدي» مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو»[٢].

قال النحاس[٣]: وهذا لا يُقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يُحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال سفيان في قوله عز وجل[٤]: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» أي: لتدعو. وروى مَعْمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ[٥].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وعبداً وخَلْقًا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجَعْد: احترق مصحفٌ فلم يبقَ إلا قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٦] وغَرِقَ مصحفٌ فامَّحَى كلُّه إلا قولَه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. والحمد لله وحدَه.

[تم الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء التاسع عشر، ويبدأ بتفسير سورة الزخرف]

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٤ لابن مسعود ﷺ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٢٩.

(٤) قوله: سفيان في قوله عز وجل، ليس في (م)، و(ظ) و(ي)، وأثبتناه من (د) ومعاني القرآن.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٣، وحديث النواس بن سمعان ﷺ أخرجه أحمد (١٧٦٣٤) مطولاً، وسلف ١٠/ ٤٨١.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

تفسير سورة الشورى

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطى، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر [١] قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذَيفة بن اليمان ـ: أخبرنى عن تفسير قول الله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشيء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحِرْ إليه شيئا. فقال حذيفة[٢] : أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له«عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان[٣]، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، يعنى: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ :﴿ حمٓ ﴾، عين: يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: يعنى واقع بهاتين المدينتين[٤].

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس، وعن أبى ذر، عن النبى ﷺ فى ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنى الدمشقى، عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال:«﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله تعالى»، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب

---

(١) فى ت:«وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده». (٢) فى أ: «فقال له حذيفة».

(٣) فى ت، م،أ: «مدينتين».

(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥)، ورواه نعيم بن حماد فى الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبى المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس فذكره.

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده عَلَىّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة[٢]: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى[٣].

وقد [٤] رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحى؟ فقال: « مثل[٥] صلصلة الجرس، فيفصمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده على » قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فَأعى ما يقول»[٦].

وقال الإمام [٧] أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو[٨]، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبَض». تفرد به أحمد[٩].

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٧/ ٣٣٦).
(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٣) الموطأ (١/ ٢٠٢)، وصحيح البخارى برقم (٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).
(٤) فى أ: «ولقد».
(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٥٩).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «عمر».
(٩) المسند (٢/ ٢٢٢).

شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال[1] الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِى، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[2] - وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة -: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخْرِجْتُ منك ما خرجت»[3].

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهرى، به [4]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] أى: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ[5] يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥].

قال[6] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، حدثنى أبو قبيل المعَافرى، عن شُفَىّ[7]

---

(١) فى ت: «ما رواه».
(٢) فى ت: «قال».
(٣) المسند (٤/ ٣٠٥).
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢)، وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).
(٥) قبلها فى ت، م، أ: «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) فى أ: «شقيق».

الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرغ منه؟ فقال [١] رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة[٢]، وإن عَمِلَ أى عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار[٣]، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قَبِيل، عن شُفَىّ بن ماتع [٤] الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو، به[٥].

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر[٦]، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل»[٧].

ورواه [٨]ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قَبِيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره[٩].

ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن [١٠] شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس [١١]حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد[١٢]، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير[١٣].

وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، م: «قال».
(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».
(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».
(٤) فى أ: «رافع».
(٥) المسند (٢/ ١٦٧)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).
(٦) فى م: «بكير».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٨٥).
(٨) فى ت: «روى».
(٩) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).
(١٠) فى أ: «عن».
(١١) فى ت: «عن أبى فراس».
(١٢) فى م: «المرود».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيرى، عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا(١).

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء (٢) إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عَمرو بن الحارث، عن أبى سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه (٣) أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خَلقُك الذين (٤) خلقتهم، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئا، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑨ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑩ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑫ ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع الأمور.

(١) المسند (٤/ ١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء».

(٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم[(١)] فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوي، رحمه الله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «في» بمعنى «الباء»، أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧]. والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي

---

(١) في أ: «نوعكم».

الحديث: «نحن معشر [١] الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و] [٢] تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال [الله] [٣] تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها] [٤] حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة [٥] فصول كهذه.

قوله [٦]: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

(١) فى ت، م: «معاشر».
(٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «عشر».
(٦) فى ت: «فقوله».

الأنبياء، لا نفرق [(١)] بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ أى: فى الحكم كما أمرنى الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أى: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختياراً.

وقوله: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ قال مجاهد: أى لا خصومة. قال السدى: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متَّجَه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى: يوم القيامة، كقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أى: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أى: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا فى ذلك.

ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

(١) فى ت: «لا يفرق».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد فى الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أى: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون [١] ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أى: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفى بعض ألفاظه؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِىّ، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»[٢].

فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى: يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى جهل بين؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء فى رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ولها [٣] نظائر كثيرة

وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى: لا يعجزه شىء.

(١) فى ت: «يقول».
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٣) فى ت: «ولهذا».

ثم قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّة[1] البتة بالكلية، حرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل[2] له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقال الثورى، عن مُغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه][3] قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّنَاء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»[4].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة[5] الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحىّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه فى النار»[6]. لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع[7] فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا:

---

(١) فى ت: «وهم». (٢) فى أ: «يجعل». (٣) زيادة من ت.

(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٥) من طريق الثورى به.

(٥) فى أ: «الجهالات».

(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.

(٧) فى ت، أ: «وجيع».

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى[1]، عن أبى طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِرُكُم. قال: فما يدعو داع من[2] القوم بشىء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات[3] ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا[4] عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى[5].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبى، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[6]: حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالا: حدثنا

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت، م، أ: «رسالة».
(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (١/ ٢٢٩).
(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

آدم بن أبى إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم»(١).

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعنى ابن سُوَيد ـ وابن أبى حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا، إلا أن تُوَادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»(٢).

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿ **إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾ ؟ قال: وإنكم أنتم(٣) هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾، فقال: قربى النبى ﷺ. رواهما ابن جرير(٤).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثنى يزيد ابن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عبد السلام ـ: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾(٥).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٥).
(٢) المسند (١/ ٢٦٨).
(٣) فى ت، أ: «لأنتم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٧).
(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٦).

يزيد بن أبى زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله، أو قريبا منه.

وفى الصحيحين ـ فى قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذِكْرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير[1]، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»[2].

وهذا إسناد[3] ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى مُتَخَرّق[4]، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذِكْرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من[5] السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله][6]: ولا تنكر الوصاة[7] بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت][8] فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[9].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث[10]، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»[11].

ثم قال أحمد[12]: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدْث، فإذا رأونا

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٤) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.
(٣) فى أ: «الإسناد». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».
(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.
(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(١١) المسند (١/ ٢٠٧).
(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عِرْقٌ بين عينه[١]، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ [٢] إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[٣].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدّث[٤] عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته[٥].

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى[٦] [٧].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حَيّان التيمى، حدثنى يزيد ابن حَيّان قال: انطلقت أنا وحُسَين بن مَيْسَرة، وعمر[٨] بن مسلم إلى زيد[٩] بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد[١٠] خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كَبُرت[١١] سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل][١٢]، والنسائى من طرق عن يزيد بن حَيّان به[١٣].

---

(١) فى ت، أ: «عينيه».
(٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».
(٣) المسند (١/٢٠٧).
(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).
(٦) فى أ: «أحب إلىَّ من أن أصل قرابتى».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).
(٨) فى ت، أ: «وعمرو».
(٩) فى أ: «يزيد».
(١٠) فى أ: «يزيد».
(١١) فى ت، أ: «والله لقد كبرت».
(١٢) زيادة من ت، م، أ.
(١٣) المسند (٤/٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

وقال أبو عيسى الترمذى[(١)]: حدثنا على بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من[(٢)] السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرَّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى[(٣)]، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا[(٤)]: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله[(٥)] قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا[(٦)]، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس[(٧)] قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم[(٨)] من نعمه، وأحبونى[(٩)] بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال[(١٠)]: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه[(١١)].

وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٣٣][(١٢)]، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مَثَل سفينة نوح، من

(١) فى ت: «وروى الترمذى».
(٢) فى ت: «بين».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى».
(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).
(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».
(٨) فى ت: «يغذوكم به».
(٩) فى ت: «فأحبونى».
(١٠) فى ت: «وقال».
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).
(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[١].

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن][٢] من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» فى رسم المصحف الإمام، كما حذفت فى[٣] قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

---

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.

(٢) زيادة من ت، م ، أ. (٣) فى ت، أ: «من».

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال[١]: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه [٢] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح»[٣].

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[٤] [٥].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته[٦] فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه»[٧].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعى، عن همام، فذكره[٨].

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم[٩] [لأنفسهم][١٠] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبى حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك[١١] الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

---

(١) فى أ: «قالا».
(٢) فى ت: «عمه رضى الله عنه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).
(٤) فى ت: «مثله».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).
(٦) فى ت: «راحلته».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.
(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٨).
(٩) فى ت، م: «لهم الدعاء».
(١٠) زيادة من ت، م.
(١١) فى ت، م، أ: «يرحمك».

﴿مِّن فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل[١] [مثل][٢] قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله[٣] تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبي حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفا[٥] فى الدنيا»[٦].

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمي في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن[٧] لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

---

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر».

(٧) فى ت: «من».

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[١].

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو[٢] عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة[٣] يشاكها»[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قِلاَبَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٥].

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قِلاَبَة، عن أنس[٦]، قال: والأول أصح.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ١٩).

(٢) فى ت، أ: «هى». (٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِى، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلى، عن الخَضْر بن القَوَّاس البجلى، عن أبى سخيلة[١]، عن على، رضى الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾. وسأفسرها لك يا على: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فبما كسبت أيديكم [٢]، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله[٣] تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبى سُخَيلة قال: قال على. . . فذكر نحوه مرفوعا[٤].

ثم روى ابن أبى حاتم [نحوه][٥] من وجه آخر موقوفا فقال: حدثنا أبى، حدثنا منصور بن أبى مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبى الوضاح، عن أبى الحسن، عن أبى جُحَيفَة قال: دخلت على على ابن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغى لكل مؤمن أن يَعيَه[٦]؟ قال: فسألناه، فتلا[٧] هذه الآية: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾. قال: ما عاقب الله به فى الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّى عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود فى عفوه يوم القيامة.

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعنى ابن يحيى ـ عن أبى بُرْدَة، عن معاوية ـ هو ابن أبى سفيان، رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته»[٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد[١٠]، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَن ليكفرها»[١١].

وقال[١٢] ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصرى ـ قال فى قوله: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[١٣].

وقال[١٤] أيضا: حدثنا أبى، حدثنا عمر بن على، حدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحسن، عن

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) فى ت: «والله».
(٤) المسند (١/ ٨٥).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «يصيبه».
(٧) فى ت: «قبل». (٨) فى ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/ ٩٨) قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣٠١): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(١٠) فى ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضا».
(١١) المسند (٦/ ١٥٧).
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) ورواه هناد بن السرى فى الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلا.
(١٤) فى ت: «وروى».

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

[قال:][١] وحدثنا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّانى، حدثنا جرير، عن أبى البلاد[٢] قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك[٣] قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه[٤] إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى[٥] فى البحر كالجبال فى البر، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن[٦]، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك[٧] السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شَكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها[٨]، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر[٩].

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها[١٠] عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلا». (٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».
(٤) فى أ: «سيبه». (٥) فى أ: «هذه». (٦) فى ت: «تسير بها السفن».
(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها». (٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».
(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فاجتالتها».

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول[١]، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقَت وهلكت. ولكن من لطفه[٢] ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع[٣] والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها[٤]؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم][٥] تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٦]. وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا[٧] عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور[٩]، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

---

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».

(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله».

(٧) فى أ: «للرجل».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا [١]فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة][٢] السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][٣] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ [وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][٤]﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم [٥] مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام] [٦]حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم[٧]، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت[٨] مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله[٩].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م،أ: «عنهم». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «أعصم». (٨) فى ت، م: «بنت». (٩) فى أ: «ولله الحمد والمنة».

اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله[١] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى][٢] : ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم][٣].

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير[٤]: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع[٥] ،حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا[٦] ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد[٧] بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة[٨] ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى[٩] فَطَّنته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال[١٠] لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إنى قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك[١١].

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِىّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما[١٢] ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

---

(١) فى ت: «وقوله».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن جرير»
(٥) فى أ: «سويع».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت : «يزيد».
(٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٩) فى أ: «فقلت له حتى».
(١٠) فى ت: «فقالت».
(١١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٤).
(١٢) فى م: «لم» .

النسائى[١].

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود[٢]، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبى الأحوص، عن أبى حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: « لانعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»[٣].

وقوله: ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** ﴾ أى: إنما الحرج والعنت ﴿ **عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم».

﴿ **أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أى: شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا [٤] محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت [٥] ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ فقال[٦]: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم[٧].

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ** ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾.

قال سعيد بن جبير: [يعنى] [٨] لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة [٩] التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت [١٠] الفضيل بن عياض يقول[١١]: إذا أتاك رجل

---

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١١٥): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٣٤٧) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤١٢) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».

(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».

(٧) المصنف لابن أبى شيبة (١٤/ ٦٣)

(٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت« وعن».

(١١) فى ت: «قال».

يشكو إليك رجلا فقل: «ياأخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله [١] عز وجل. فقل له[٢]: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعنى ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد[٤]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر[٥] الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان [٦] .ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُرى، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلا[٧].

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببُ سبه للصديق[٨].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء [٩] كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له[١٠]، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل [١١] فلا هادى له، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ثم قال مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أى: يوم القيامة يتمنون

(١) فى ت: «ربى». (٢) فى ت، أ: «قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».
(٤) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م، أ: «وقع».
(٦) المسند (٢/ ٤٣٦) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).
(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).
(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».
(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذة له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يقولون هل إلىٰ مرد من سبيل﴾، كما قال[تعالى][(١)]: ﴿ولو ترىٰ إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أى: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مسارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿إن الخاسرين﴾ أى: الخسار [(٢)] الأكبر ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أى: ذهب بهم إلى [(٣)] النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم[(٤)]، فخسروهم، ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أى: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير (٤٧) فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور (٤٨) ﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير﴾ أى: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلىٰ ربك يومئذ المستقر﴾[القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «الخاسر».
(٣) فى ت: «فى».
(٤) فى ت: «وأقربائهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة[١] ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ[للنساء][٢] : «يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله؟ قال: «لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[٣] . وهذا حال أكثر الناس [٤] إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٥].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا[٦] . قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة] [٧] من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام] [٨] من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

(١) فى ت، م: «النعم». (٢) زيادة من ت، م، أ.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩)من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) فى ت، م، أ: «النساء».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «هذا من هذا».
(٧) زيادة من م. (٨) زيادة من ت، م، وفى أ: «عيسى ابن مريم عليهما السلام».

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾.

هذه مقامات [(١)] الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[(٢)].

وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث[(٣)]، وكان [أبوه][(٤)] قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار [(٥)] الدنيا.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] [(٦)] وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله[(٧)]: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعنى: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ ﴾ [أى] [(٨)]يامحمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو الخلق [(٩)] القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ [الَّذِي][(١٠)] ﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «[حم][(١١)] الشورى» والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى ت: «مقدمات».
(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى عمن أخبره عن ابن مسعود به.
(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت: «دار».
(٦) زيادة من م.
(٧) فى ت: «فقوله».
(٨) زيادة من م.
(٩) فى ت، م، أ: «الحق».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ.

سورة حمٓ[1] عٓسٓقٓ[2]

مكّيّة،[3] وهي ثلاث وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④﴾

﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة، ولذلك فُصِل بينهما، وعُدّا آيتين. وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائرَ الحواميم. وقُرئ: "حم سق".[4] فعلى الأوّل هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ ﴿عٓسٓقٓ﴾ خبره. وعلى الثاني الكلّ خبر واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كلام مستأنَف وارد لتحقيق أنّ مضمون السورة موافق لِما في تضاعيف سائر الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمة في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقّ، أو أنّ إيحاءها مثلُ إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها، والتنبيهِ على فخامة شأنها. والكاف في حيّز النصب على أنّه مفعول لـ﴿يُوحِي﴾ عَلى الأوّل، وعلى أنّه نعت لمصدر مؤكِّد له على الثاني.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأوّل إشارة إلى ما فيها، وعلى الثاني إلى إيحائها. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل، أي: مثلَ ما في هذه السورة مِن المعاني / أوحي إليك في سائر السور وإلى مَن قبلك مِن [٤٩و]
الرسل في كتبهم، على أنّ مَناط المماثلة ما أشيرَ إليه مِن الدعوة إلى التوحيد

---

[1] س ي – حم.

[2] س + وتسمّى سورة الشورى.

[3] س – مكّيّة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٠/٤٦٤؛ والمحتسب لابن جنّي، ٢/٢٤٩.

والإرشاد[١] إلى الحقّ وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد. أو مثلَ إيحائها أوحي إليك عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم، لا إيحاءً مغايرًا له كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ الآية [النساء، ٤/١٦٣]، على أنّ مدار المِثليّة كونه بواسطة المَلَك.

وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحي، وأنّ إيحاء مثله عادتُه. وفي جعل مضمون السورة أو إيحائِها مشبَّهًا به مِن تفخيمها ما لا يخفى، وكذا في وصفه تعالى بوصفَي العزّة والحكمة. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه مِن التشويق.

وقُرئ: "يُوحَى"،[٢] على البناء للمفعول، على أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و"يُوحَى" خبره المسنَد إلى ضميره. أو مصدر، و"يُوحَى" مسنَد إلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مرتفِع بما دلّ عليه "يُوحَى"، كأنّه قيل: مَن يُوحِي؟ فقيل: الله. و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، أو مبتدأ -كما في قراءة "نُوحِي"-[٣] و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وما بعده خبَران له، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ خبران له. وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرِّر لعزّتِه وحِكمته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقُرئ بالياء.[٤] ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يتشقّقن مِن عظمة الله تعالى.[٥] وقيل: مِن دعاء الولد له، كما في سورة مريم.[٦] وقُرئ: "يَنْفَطِرْنَ".[٧] والأوّل أبلغ؛

---

١ س: والإشهاد؛ ي: والإشارة.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.

٣ قراءة شاذّة، قرأ بها أبو حَيوة وبِشر عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

٤ قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

٥ م - تعالى.

٦ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠].

٧ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

لأنّه مطاوِع "فَطَّر"، وهذا مطاوِع "فَطَر". وقُرئ: "تَتَفَطَّرْنَ" بالتاء[١] لتأكيد التأنيث، وهو نادر.[٢]

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطّر مِن جهتهنّ الفوقانيّة. وتخصيصُها على الأوّل[٣] لِما أنّ أعظم الآيات[٤] وأدلّها على العظمة والجلال مِن تلك الجهة، وعلى الثاني[٥] للدلالة على التفطّر مِن تحتهنّ بالطريق الأَولى؛ لأنّ تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثّرت في جهة الفوق فَلَأن تؤثّر في جهة التحت أَولى. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾،[٦] / فإنّها في معنى الأَرَضِين. [٤٩ظ]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم مِن الشفاعة والإلهام، وترتيبِ الأسباب المقرِّبة إلى الطاعة، واستدعاءِ تأخير العقوبة طمَعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. وهذا يعمّ المؤمن والكافر؛ بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلَل المتوقَّع عَمَّ الحيوانَ؛ بل الجمادَ، وحيث خُصَّ بالمؤمنين -كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر، ٧/٤٠]- فالمراد به الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مخلوق إلّا وله حظّ عظيم مِن رحمته تعالى. والآية على الأوّل زيادةُ تقرير لعظمته تعالى، وعلى الثاني بيان لكمال تقدّسِه عمّا نُسب إليه، وأنّ ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاءِ بسبب استغفار الملائكة وفَرط غفرانه ورحمته، فَفيها رمز إلى أنّه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدُهم على ما طلبوه مِن المغفرة رحمةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٢ قال ابن خالويه: «وهذا حرف نادر؛ لأنّ العرب لا تجمع بين علامتَي التأنيث، لا يقال: النساء تقُمنَ، ولكن: يقُمنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة، ٢٣٣/٢]، ولا يقال: تُرضِعن. وقد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تَتَشمْمنَ، فأنكرناه، فقد قوّاه الآن هذا». مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٣ أي: على القول الأوّل في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن عظمة الله تعالى.

٤ وفي هامش م: عرش وكرسي. «منه».

٥ أي: على القول الثاني في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن دعاء الولد له.

٦ في الآية السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ بموكَّل بهم، أو بموكول إليه أمرهم، وإنّما وظيفتك الإنذار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾. ومحلّ الكاف النصب على المصدريّة. و﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ مفعول لـ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيّن المُفْهِم أوحينا إليك قرآنًا عربيًا، لا لَبس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى معنى الآية المتقدِّمة مِن أنّه تعالى هو الحفيظ عليهم، وإنّما أنت نذير فحسبُ. فالكاف مفعول به لـ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾، و﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ حال مِن المفعول به، أي: أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي بيّن.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وهي مكّة. ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ مِن العرب، ﴿وَتُنذِرَ
[٥٠و] يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ / أي: يوم القيامة؛ لأنّه يُجمع فيه الخلائق، قال[1] تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤]. وقيل: يُجمع فيه الأرواح والأشباح. وقيل: الأعمال والعمّال. والإنذار يتعدّى إلى مفعولَين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف ههنا ثاني مفعولَي الأوّل وأوّلُ مفعولَي الثاني للتهويل وإيهام التعميم. وقُرئ: "لِيُنْذِرَ" بالياء[2] على أنّ فاعله ضمير القرآن.

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله.

﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: بعد جمعهم في الموقف، فإنّهم يُجمعون فيه أوّلًا ثمّ يُفرَّقون بعد الحساب. والتقدير: منهم فريق. والضمير للمجموعِين

---

١ س ي + الله.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/٥.

لدلالة ﴿ٱلْجَمْعِ﴾ عليه. وقُرِئا منصوبَين[١] على الحاليّة منهم، أي: وتُنذِر يوم جمعهم متفرّقين، أي: مشارفين للتفرّق، أو متفرّقين[٢] في دارَي الثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قيل: مهتدين أو ضالّين. وهو تفصيل لِما أجمَله ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: «على دينٍ واحد».[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنّه تعالى يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، ويُدخل في عذابه مَن يشاء أن يُدخله فيه، ولا ريب في أنّ مشيئته تعالى لكلٍّ مِن الإدخالَين تابعة لاستحقاق كلٍّ مِن الفريقين لدخول مدخله. ومِن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخلين فيهما قطعًا، فلم يشأ جَعْلَ الكلّ أمّة واحدة؛ بل جعلهم فريقين.

وإنّما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب مِن جهة الداخلين بموجَب سوء اختيارهم، لا مِن جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة، لا لِما قيل مِن المبالغة في الوعيد.[٤]

وقيل: مؤمنين كلّهم، وهو ما قاله مقاتل: «على دين الإسلام»،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام، ٣٥/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢]. والمعنى: ولو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ لقَسَرهم على الإيمان، ولكنّه شاء مشيئةَ حكمةٍ، / وكلّفهم وبنى أمرهم على ما [٥٠ظ] يختارون ليُدخل المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وترَك الظالمين بغير وليّ ولا نصير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٩.

٢ م س - متفرّقين ["صح" في الهامش].

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٠/١٧.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٧/٥.

٥ تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٦٤/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤.

وأنت خبير بأنّ فرضَ جعْل الكلّ مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته؛ إذ الكلّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسب حينئذ تصديرَه بإخراج بعضِهم مِن بينهم وإدخالِهم في عذابه، فالذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقُه أن يُراد الاتّحاد في الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢١٣] على أحد الوجهين، بأن يُراد بهم الذين هم في فترة إدريسَ أو في فترة نوح عليهما السلام.

فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الكفر، بأن لا يرسل إليهم رسولًا ليُنذرهم ما ذُكر مِن يوم الجَمع وما فيه مِن ألوان الأهوال، فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكفر، ولكن يُدخل مَن يشاء في رحمته، أي: شأنُه ذلك، فيُرسل إلى الكلّ مَن يُنذرهم ما ذُكر، فيتأثّر بعضهم بالإنذار، فيَصرِفون اختيارهم إلى الحقّ، فيوفِّقهم الله تعالى للإيمان والطاعة، ويدخلهم في رحمته، ولا يتأثّر به الآخَرون ويتمادَون في غَيّهم، وهم الظالمون، فيبقَون في الدنيا على ما هم عليه مِن الكفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير مِن غير وليّ يَلي أمرَهم، ولا نصيرٍ يخلِّصهم مِن العذاب.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها مِن انتفاء أن يكون للظالمين وليّ أو نصير. و﴿أم﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل،[1] إذ المراد بيان أنّ ما فعلوا ليس مِن اتّخاذ الأولياء في شيء؛ لأنّ ذلك فرع كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهر الممتنِعات. أي:

[٥١و] بل أَتَخذُوا[2] / متجاوزين الله تعالى[3] أولياء مِن الأصنام وغيرها؟ هيهات!

---

[1] هو مفهوم كلام الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١١.

[2] م: أَاِتَّخذوا. [بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة]؛ س: اتّخذوا. | الصواب فيها ما أثبتُه بهمزة واحدة مقطوعة مفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [مريم، ١٩/٧٨]، وهو ما تحتمله نسخة س.

[3] م – تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرطٍ محذوف، كأنّه قيل بعد إبطال وَلاية ما اتّخذوه أولياء: إن أرادوا وليًا في الحقيقة فالله هو الوليّ، لا وليَّ سِواه.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ومِن شأنه ذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يُتَّخذ وليًا، فليَخُصّوه بالاتّخاذ دون مَن لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكفّار فيه مِن أمور الدين فاختلفتم أنتم وهمْ، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهو إثابة المُحِقّين وعقاب المُبطلين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العظيمُ الشأنِ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أمورِي خاصّةً، لا على غيره. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كلّ ما يَعِنُّ لي مِن مُعضلات الأمور، لا إلى أحد سِواه. وحيث كان التوكّل أمرًا واحدًا مستمرًّا والإنابةُ متعدّدةً متجدّدةً حسب تجدّد موادّها أُوثِر في الأوّل صيغة الماضي، وفي الثانية صيغة المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم مِن شيء مِن الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا تُؤثِروا على حكومته حكومةَ غيره.

وقيل: وما اختلفتم فيه مِن تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم مِن كتاب الله[١] والظّاهرِ مِن سنّة رسول الله.[٢]

وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه مِن العلوم التي لا تتعلّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. ولا مساغَ لحَمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه السلام.[٣]

---

١ س + تعالى.

٢ س + صلّى الله عليه وسلّم.

٣ س: عليه الصلاة والسلام. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢١٢.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر آخَر لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾،[1] أو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبرُه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾. وقُرئ بالجرّ[2] على أنّه بدل مِن الضمير، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾،[3] وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديم الجارّ والمجرور على
[٥١ظ] المفعول الصريح قد مرّ سرّه غيرَ مرّة. / ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وجعل للأنعام مِن جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أو خلق لكم مِن الأنعام أصنافًا، أو ذكورًا وإناثًا. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم مِن الذَّرْء؛ وهو البَثّ، وفي معناه: الذَّرْوُ وَالذَّرّ. ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التدبير، فإنّ جعْل الناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد كالمنبَع للبثّ والتكثير.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس مثلَه شيء في شأن مِن الشئون التي مِن جملتها هذا التدبير البديع. والمراد مِن ﴿مِثْلِهِ﴾ ذاتُه، كما في قولهم: مِثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه، فإنّه إذا نُفِي عمَّن يناسبه كان نفيه عنه أَولى. ثمّ سُلكت هذه الطريقة في شأن مَن لا مِثلَ له. وقيل: ﴿مِثْلِهِ﴾ صفته، أي: ليس كصفته صفَة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالغُ في العِلم بكلّ ما يُسمَع ويُبصَر.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائنهما ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسّع ويضيّق حسبما يقتضيه مشيئته المؤسَّسة على الحِكَم البالغة.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٢٥.

[3] في الآية السابقة.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالِغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يَفعل على ما ينبغي أن يُفعل عليه. والجملة تعليل لِما قبلها، وتمهيد لِما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، وإيذان بأنّ ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أنّ بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قديمًا أجمعَ عليه الرسل.

والخطاب لأمّته صلّى الله عليه وسلّم،[١] أي: شرع لكم مِن الدين ما وصّى به نوحًا ومَن بَعْده مِن أرباب الشرائع وأُولي العزائم مِن مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمَرهم به أمرًا[٢] مؤكّدًا. على أنّ تخصيصهم بالذِّكر لِما ذُكر مِن علوّ شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه؛ لاتّفاقِ الكلّ على نبوّة بعضهم، وتفرّدِ اليهود في شأن موسى عليه السلام، وتفرّدِ النصارى في حقّ عيسى عليه السلام، وإلّا فما مِن نبيّ إلّا وهو مأمور بما أُمِروا به، وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدّل الأعصار مِن أصول الشرائع والأحكام، كما يُنبئ عنه التوصية، فإنّها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناءِ بشأن المأمور به.

والمراد بإيحائه إليه عليه السلام إمّا ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ الآيةَ،[٣] أو ما يعمّهما وغيرَهما ممّا وقع في سائر المواقع التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل، ١٢٣/١٦]، / وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف، ١١٠/١٨]، وغيرُ ذلك. والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه السلام بـ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ لزيادة تفخيم شأنه مِن تلك الحيثيّة. [٥٢و]

وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده مِن التوصية لِمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِما في الإيحاء مِن التصريح برسالته عليه السلام القامع لإنكار الكفرة.

---

١ س: عليه السلام.
٢ س – أمرًا.
٣ الشورى، ٧/٤٢.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناءِ بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدّمه عليه زمانًا.

وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينًا قديمًا. وتوجيه الخطاب إليه عليه السلام بطريق التلوين[١] للتشريف والتنبيه على أنّه تعالى شَرَعَه لَهم على لسانه عليه السلام.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائرِ ما يكون الرجل به مؤمنًا. والمراد بإقامته تعديلُ أركانه وحفظُه مِن أن يقع فيه زَيغ، أو المواظبةُ عليه، أو التشمُّرُ له.

ومحلّ ﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ إمّا النصب على أنّه بدل مِن مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفِين عليه، أو الرفعُ على أنّه جواب عن سؤال نشأ مِن إبهام المشروع، كأنّه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو إقامة الدين. وقيل: بدل مِن ضمير ﴿بِهِ﴾،[٢] وليس بذاك، لِما أنّه مع إفضائه إلى خروجه عن حيّز الإيحاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣] مستلزمٌ لكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم السلام. وتوجيه النهي إلى أممهم تمحُّل[٤] ظاهر، مع أنّ الأظهر أنّه متوجّه إلى أمّته عليه السلام وأنّهم المتفرّقون كما ستحيط به خُبرًا. أي: لا تتفرّقوا في الدين الذي هو عبارة عمّا ذُكر مِن الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٥/٤٨].

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شروع في بيان أحوال بعض مَن شُرِع لهم ما شُرِع مِن الدين القديم، أي: عَظُم وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعَدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص، ٣٨/٥].

---

١ التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٥/٢٦٠.

٢ س: ضميريه. | قاله البيضاوي، في **أنوار التنزيل**، ٥/٧٨.

٣ س: عليه السلام.

٤ التَّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٥/١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾ / استئناف وارد لتحقيق الحقّ. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يُجيب إلى الدعوة، أي: الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه مَن يشاء أن يجتبيَه إليه، وهو مَن صرف اختيارَه إلى ما دُعِي إليه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يُقبِل إليه حيث يُمِدّه بالتوفيق والإلطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجماليّة إلى أحوال أهل الشرك. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم اليهود والنصارى»،[٢] لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة، ٩٨/٤]، أي: وما تفرّقوا في الدين الذي دُعُوا إليه ولم يؤمنوا كما آمَن بعضُهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بحقّيّته بما شاهدوا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ مِن دلائل الحقّيّة حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلمُ بمبعثه عليه السلام.

وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرقوا في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات إلّا حالَ مجيء العلم أو إلّا وقتَ مجيء العلم ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ وحميّةً وطلبًا للرياسة، لا لأنّ لهم في ذلك شبهةً.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ لأُوقع القضاءُ بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾...[٣] إلخ بيان لكيفيّة كفر المشركين بالقرآن إثرَ بيان كيفيّة كفر أهل الكتاب. وقُرِئ: "وُرِّثُوا"،[٤] وَ"وَرِثُوا".[٥]

---

[١] س – تعالى.

[٢] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٧٨/١٧.

[٣] م س ي – ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٩/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في الكشّاف، ٢١٦/٤.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٦/٤.

أي: وإنّ المشركين الذين أُورِثوا القرآنَ مِن بعد ما أُورِث أهلُ الكتاب كتابَهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في القلق أو في الرِّيبة، ولذلك لا يؤمنون به، لا لِمَحض البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقّيّته كدأب أهل الكتابَين.

[٥٣و] هذا، وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ ضمير ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ لأمم الأنبياء / عليهم السلام وأنّ المراد تفرّقُ كلّ أمّة بعد نبيّها مع علمهم بأنّ الفرقة ضلال وفساد وأمرٌ متوعَّد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فيردّه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

وكذا ما قيل[٢] مِن أنّ الناس كانوا أمّة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان، فلمّا مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله تعالى النبيّين مبشّرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنّما اختلفوا للبغي بينهم، فإنّ مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال مِن غير إنظارٍ وإمهالٍ. على أنّ مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمّة، وإنّما ذُكِر مَن ذُكِر مِن الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنّ ما شُرِع لهؤلاءِ دينٌ قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم السلام تأكيدًا لِوجوب إقامته، وتشديدًا للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرّض لبيان تفرّق أممهم عنه ربّما يوهم الإخلال بذلك المرام.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: فلأجل ما ذُكر مِن التفرّق والشكّ المريب، أو فلأجل أنّه شُرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ أي: الناسَ كافّةً إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجَبه، فإنّ كلًّا مِن تفرّقهم وكونهم في شكٍّ مُريب، ومِن شَرْع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سببٌ للدعوة إليه والأمرِ بها. وليس المشار إليه ما ذُكر مِن التوصية والأمرِ بالإقامة والنهي عن التفرّق حتّى يتوهّم شائبة التكرار.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٧٨.
٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١٦.

وقيل: المشار إليه نفس الدين المشروع، و"اللام" بمعنى "إلى"، كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، أي: فإلى ذلك الدين فادع ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحِي إليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيّ كتابٍ كان مِن الكتب المنزَّلة، لا كالذين / آمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ. وفيه تحقيق للحقّ، وبيان لاتّفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابَين، وتعريض بهم. وقد مرّ بيان كيفيّة الإيمان بها في خاتمة سورة البقرة. [٥٣ظ]

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصلِ القضايا عند المحاكمة والخِصام. وقيل: معناه: لأُسَوّي بيني وبينكم، ولا آمرَكم بما لا أعمله، ولا أُخالفَكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرِّقَ بين أكابركم وأصاغركم. و"اللام" إمّا على حقيقتها والمأمورُ به محذوف، أي: أُمرتُ بذلك لأعدل، أو زائدةٌ، أي: أُمرتُ أن أعدِل، والباء محذوفة.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُنا جميعًا ومتولّي أمورنا، ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطّانا جزاؤها ثوابًا كان أو عقابًا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوِزكم آثارُها لنستفيد بحسناتكم ونتضرّرَ بسيّئاتكم، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجّة ولا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر ولم يبق للمُحاجّة حاجة، ولا للمخالفة مَحمل سوى المكابرة.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذا كما ترى مُحاجَزة في مواقف المُجاوبة، لا مُتارَكةٌ في مواطن المُحارَبة حتّى يُصارَ إلى النسخ بآية القتال.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

---

١ قال بالنسخ الثعلبي في الكشف والبيان، ٣٠٨/٨. وآية القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ مِن بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه. والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه، أو مِن بعد ما استجاب الله لرسوله عليه السلام وأيّده بنصره، أو مِن بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقرّوا بنُعوته عليهِ السلام، واستفتحوا به قبل مبعثه عليه السلام. وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم وأولى بالحقّ.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زالّة زائلة باطلة؛ بل لا حجّة لهم أصلًا. وإنّما عبّر عن أباطيلهم بالحجّة مُجاراةً معهم على زعمهم الباطل. ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ عظيم لمكابرتِهم الحقّ بعد ظهوره، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ملتبسًا به في أحكامه / وأخباره، أو بما يحقّ إنزاله مِن العقائد والأحكام. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي يُوازَن به الحقوق ويستوي بين الناس، أو نفسَ العدل بأن أنزل الأمْرَ به، أو آلةَ الوزن. [٥٤و]

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: أيّ شيء يجعلك عالمًا؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يُخبِر بمجيئها الكتاب الناطق بالحقّ ﴿قَرِيبٞ﴾ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئُها. وقيل: "القريب" بمعنى: ذات قربٍ، أو ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ بمعنى البعث. والمعنى: أنّها على جناح الإتيان، فاتّبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئَك اليومُ الذي يوزن فيه الأعمال ويُوَفَّى جزاؤها.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاء. كانوا يقولون: متى هي؟ ليتها قامت حتّى يظهر لنا الحقّ، أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمّد وأصحابه؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ خائفون منها مع اعتناءٍ بها لتوقّع الثواب، ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكائنُ لا محالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، مِن المِرية، أو مِن "مَرَيتُ الناقة" إذا مَسَحْتَ ضَرعَها بشدّةٍ للحَلب؛ لأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدّة. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ، فإنّ البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات، فمَن لم يهتدِ إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعدُ.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بَرّ بليغ البرِّ بهم، يُفيض عليهم مِن فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه كيفما يشاء، فيختصّ كلًّا مِن عباده بنوعٍ مِن البِرّ على ما يقتضيه / مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة. [٥٤ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كلّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلَب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل: إلقاء البَذْر في الأرض، يُطلَق على الزرع الحاصل منه، ويُستَعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنيّة على تَشبيهها بالغِلال الحاصلة مِن البذور المتضمِّن لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له ثوابه بالواحد عشرةً إلى سبعِمائة فما فوقها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئًا منها حسبما قسمنا له، لا ما يريدُه ويَبتغيه، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت هِمّته مقصورةً على الدنيا، وقد مرّ تفصيله في سورة الإسراء.[1]

---

[1] عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآيات [الإسراء، ١٧/١٨-٢٠].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١﴾

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: بل ألَهم شركاءُ مِن الشياطين؟ والهمزة للتقرير والتقريع. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتسويل ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإضافتُها إليهم لأنّهم الذين جعلوها شركاءَ لله تعالى. وإسناد الشرع إليها لأنّها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤]، أو تماثيلُ مَن سَنَّ الضلالةَ لهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاءِ السابق بتأخير الجزاء، أو العِدَة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقُرئ بالفتح[١] عطفًا على ﴿كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: ولولا كلمة الفصل وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا، فإنّ العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٢٢﴾

[٥٥و] ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة. / والخطاب لكلّ أحد ممَّن يصلح له، للقصد إلى أنّ سوء حالهم غير مختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.[٢] ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وَوَبالُه لاحق بهم لا محالةَ، أشفقوا أو لم يُشفقوا. والجملة حال مِن ضمير ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أو اعتراض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ مستقِرّون في أطيبِ بِقاعها وأنزهِها، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يشتهونه مِن فنون المستلَذّات حاصلٌ لهم عند ربّهم، على أنّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾. وقيل: ظرف لـ﴿يَشَآءُونَ﴾.

---

١ أي: بفتح همزة "وأنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج بن مسلم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

٢ وفي هامش م: وهذا ليس مِن قَبيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢] ونظائره، فتدبّر. «منه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن حال المؤمنين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المُشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايته.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الكبير هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أي: يبشّرهم به. فحُذف الجارّ ثمّ العائد إلى الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان، ٤١/٢٥]، أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله[1] عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وقُرئ: "يَبْشِرُ"،[2] مِن "أَبشَر".

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ رُوي أنّه اجتمع المشركون في مَجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أنّ محمّدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا، فنزلت.[3] أي: لا أطلب منكم على ما أنا عليه مِن التبليغ والبِشارة ﴿أَجْرًا﴾ نفعًا ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلّا أن تَوَدّوني لقرابتي منكم، أو تَودّوا أهل قرابتي.

وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجرًا قطّ، ولكن أسألكم المودّة. و﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حال منها، أي: إلّا المودّةَ ثابتة في القربى متمكّنة في أهلها أو في حقّ القرابة. و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مصدر كالزلفى بمعنى القَرابة.

رُوي أنّها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما».[4]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حَرُمتِ الجنّة / على مَن ظلم أهل بيتي، [٥٥ظ] وآذاني في عِترتي، ومَن اصطنع صنيعةً إلى أحد مِن ولد عبد المطّلب ولم يُجازِه فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لَقِيَني يوم القيامة».[5]

---

[1] س + تعالى.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٦١/٣. وأمّا "يَبْشُرُ" بفتح الياء وضمّ الشين وتخفيفها فقراءة صحيحة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٩/٤.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٧/٣ (٢٦٤١).

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤.

وقيل: ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ التقرّب إلى الله تعالى،[١] أي: إلّا أن تَودّوا الله ورسولَه في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقُرئ: "إلّا مَوَدَّةً فِي القُرْبَى".[٢]

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسِبْ أيَّ حسنة كانت، فتتناول مودّةَ ذي القربى تناولًا أوّليًا، وعن السدّي: أنّها المرادة.[٣] وقيل: نزلت في الصِّدّيق رضي الله عنه ومودّته فيهم.[٤] ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بمضاعفة الثواب. وقُرئ: "يَزِدْ"،[٥] أي: يَزِدِ الله، وقُرئ: "حُسْنَى".[٦]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاع بتوفية الثواب، والتفضّل عليه بالزيادة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمّد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوّة وتلاوة القرآن؟ على أنّ الهمزة للإنكار التوبيخي، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام -وهو هو- إلى الافتراء لا سيّما الافتراء على الله الذي هو أعظم الفِرَى وأفحشُها؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنّه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه مِن ذلك قطعًا. وتحقيقه أنّ دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنّه تعالى لا يشاء صدوره

---

١ م - تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٣٥/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في **الكشّاف**، ٢٢١/٤.

٣ أي: المودّة لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٤/٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٤. وفي **جامع البيان** للطبري، ٥٠٣/٢٠، عن السدّي، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: «يعمل حسنة».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٢١/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٨٠/٥. والعبارة في **أنوار التنزيل**: "ومودّته لهم" [أي: لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم].

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٣٥/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥.

عن النبيّ عليه السلام؛ بل يشاء عدمَ صدورِه عنه، ومِن ضرورته منعُه عنه قطعًا، فكأنّه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لَشاءَ عدم صدوره عنك، وإن يَشَأْ ذلك يَخْتِم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنًى مِن معانيه ولم تنطق بحرفٍ مِن حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك -بل تواتر الوحي حينًا فحينًا- تبيّن أنّه مِن عند الله عزّ وجلّ.[١]

هذا، وقيل: المعنى: إن يَشأْ يجعلك مِن المختوم على قلوبهم، فإنّه لا يجترئ على الافتراء عليه تعالى إلّا مَن كان كذلك، ومؤدّاه استبعاد الافتراء مِن مثله عليه السلام، وأنّه في البعد مثلُ الشرك بالله والدخولِ في جملة المختوم على قلوبهم. وعن قتادة: «﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يُنسِكَ القرآنَ، ويَقطَعْ عنك الوحي».[٢] يعني: لو افترى على الله الكذب لَفعل به ذلك. وهذا معنى ما قيل: لو كذَب على الله لأنساه القرآن. وقيل: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر حتّى لا يشقّ عليك أذاهم.[٣]

[٥٦و] / ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرِّر لنفي الافتراء، غيرُ معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ كما يُنبئ عنه إظهار الاسم الجليل. وسقوط الواو[٤] -كما في بعض المصاحف-[٥] لاتّباع اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]. أي: ومِن عادته تعالى أنّه يمحو الباطل ويثبِت الحقّ بوحيه أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ[٦] بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء، ١٨/٢١]، فلو كان افتراءً كما زعموا لَمحَقَه ودمَغه.

---

١ س: تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.

٣ عن مجاهد في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.

٤ أي: الواو مِن: ﴿وَيَمْحُ﴾.

٥ بل اتّفقت جميع المصاحف العثمانيّة على ذلك. نقل أبو عمرو الداني عن ابن الأنباري قوله: «وحُذفت الواو مِن أربعة أفعال مرفوعة، أوّلها في سبحان: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]، وفي عسق: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]، وفي القمر: ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، وفي العلق: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق، ١٨/٩٦]». قال أبو عمرو: «ولم تختلف المصاحف في أنّ الواو مِن هذه المواضع ساقطة». المُقنع لأبي عمرو الداني، ص ٤٢.

٦ م س ي: يقذف.

أو عِدَةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه مِن البَهْتِ والتكذيب، ويثبت الحقّ الذي هو عليه **بالقرآن** أو بقضائه الذي لا مردّ له بنُصرته عليهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيُجرِي عليها أحكامها اللائقة بها مِن المَحو والإثبات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التوبة: هو الرجوع عنِ المعاصي بالندم عليها، والعزمُ على أن لا يعاودها أبدًا. وروى جابر رضي الله عنه أنّ أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «اللّهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك»، وكبّر، فلمّا فرغ مِن صلاته قال له عليّ رضي الله عنه: «يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين، وتوبتُك هذه تحتاج إلى التوبة»، فقال: «يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟» قال: «اسمٌ يقع على ستّة معانٍ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما رَبَّيْتَها في المعصية، وإذاقَتُها مرارةَ الطاعة كما أذَقْتَها حلاوة المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحك ضحكتَه».[١]

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرها لمَن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢] كائنًا ما كان مِن خير وشرّ، فيُجازي ويتجاوز حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. وقُرئ: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.[٣]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤.

[٢] م س ي: يَفْعَلُونَ. | و"يَفْعَلُونَ" بالياء قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب بخلف عن رُويس وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وقد جعل المصنِّف هنا القراءة بالياء أصلًا ثمّ أشار إلى القراءة بالتاء الموافقة لرواية حفص بقوله: "وقُرئ"، وذلك على خلاف منهجه في الكتاب.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، وهي رواية حفص عن عاصم، وهي الوجه الثاني لرُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٢٦﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ / أي: يستجيب الله لهم، فحذف [٥٦ظ]
اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أي: كالوا لَهم، والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم، فإنّها كدعاء وطلبٍ لِما يترتّب عليها، ومنه قوله عليه السلام: «أفضل الدعاء الحمد لله».[1] أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم[2] أنّه قيل له: ما بالُنا ندعو فلا نُجابَ؟ قال: «لأنّه دعاكم ولم تجيبوه»، ثمّ قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس، ٢٥/١٠].[3]

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألوا واستحقّوا بموجَب الوعد. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين مِن الثواب والفضل المزيد.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لَتكبّروا وأفسدوا فيها بطَرًا، ولَعَلا بعضُهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء، كما عليه الجِبلّة البشريّة. وأصل البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى مِن حيث الكمّيّة أو الكيفيّة.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقدير ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن ينزّله ممّا يقتضيه مشيئته.

---

١ سنن الترمذي، ٤٦٢/٥ (٣٣٨٣)؛ سنن ابن ماجه، ٧١٢/٤ (٣٨٠٠).

٢ هو إبراهيم بن أدهَم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، البلخي، نزيل الشام، أبو إسحاق (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م)، الإمام، العارف، سيّد الزهاد. كان أبوه مِن أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير مِن علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش مِن العمل بالحصاد والحَمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. جاءه إلى المصيصة عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أنّ أباه قد مات، وخلّف له مالًا عظيمًا، فأعتق العبد ووَهبه الدراهم، ولم يَعبأ بمال أبيه. رُوي أنّه كان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعِظ أوجَز سفيانُ في كلامه مخافة أن يزِلّ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٧/٧؛ والأعلام للزركلي، ٣١/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدّر لكلّ واحد منهم في كلّ وقت مِن أوقاتهم ما يليق بشأنهم، فيُفقِر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبِض ويبسط، حسبما يقتضيه الحكمة الربّانيّة. ولو أغناهم جميعًا لبغَوا، ولو أفقرهم لهلَكوا. ورُوي أنّ أهل الصفّة تمنّوا الغِنَى، فنزلت.[١] وقيل: نزلت في العرب كانوا إذا أخصَبوا تحارَبوا، وإذا أجْدَبوا انتجَعوا.[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم مِن الجَدْب، ولذلك خُصّ بالنافع منه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"،[٣] مِن الإنزال. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يئِسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحقّقه بدونه أيضًا لتذكير كمال النعمة. وقُرئ بكسر النون.[٤]

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركاتِ الغيث ومنافعَه في كلّ شيء مِن السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمتَه الواسعةَ المنتظِمةَ لِما ذُكر انتظامًا أوّليًا. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولّى عبادَه بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد على ذلك لا غيرُه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه مِن تعاجيب[٥] الصنائع، فإنّها بذاتها / وصفاتها تدلّ على شئونه العظيمة، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ [٥٧و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨١/٥. و"انتجعوا" بمعنى: ارتحلوا للنجعة؛ وهي طلب الكلأ في غير بلادهم؛ لعدم ما تتعيّش به دوابّهم، فإذا تفرّقوا اشتغلوا عن القتال. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٢٠/٧.

٣ م: يُنزّل [بتشديد الزاي، وهو سهو] | قرأ: "يُنْزِلُ الْغَيْثَ" بإسكان النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ كذلك: "يُنْزِلُ بِقَدَرٍ" في الآية السابقة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٤ أي: "قَنِطُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٤.

٥ التعاجيب: العجائب، لا واحد لها مِن لفظها. الصّحاح للجوهري، «عجب».

عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو "الخلق" ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مِن حيّ، على إطلاق اسم المسبَّب على السبب،[1] أو ممّا يدبّ على الأرض، فإنّ ما يختصّ بأحد الشيئين المتجاورين يصحّ نسبته إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وإنّما يخرج مِن المِلح. وقد جُوّز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشيٌ مع الطيران فيوصفوا بالدبيب، وأن يخلق الله في السماء حيوانًا يمشون فيها مشيَ الأناسيّ على الأرض، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ٨/١٦]، وقد رُوي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فوقَ السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك ثمانية أَوْعال[2] بين رُكَبِهِنّ وأظلافهنّ[3] كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك العرشُ العظيم».[4]

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البعث للمحاسبة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ متعلِّق بما قبله، لا بقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾، فإنّ المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرتُه، و﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضيَ تدخل المضارعَ.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيّ مصيبة كانت ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتُموها. و"الفاء" لأنّ ﴿مَا﴾ شرطيّة، أو متضمّنة لمعنى الشرط. وقُرئ بدونها[5] اكتفاءً بما في الباء مِن معنى السببيّة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مِن الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإنّ ما أصاب غيرَهم لأسباب أُخَر، منها تعريضه للثواب بالصبر عليه.

---

١ وفي هامش م: فإنّ الحياة سبب للدّبيب. «منه».

٢ أَوْعال: جمع وَعْل بالفتح، وككَتِف؛ وهو تَيس الجبَل. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وعل».

٣ أظلاف: جمع ظِلْف بالكسر؛ وهو للبقرة والشاة والظبي، وشبهها بمنزلة القدم لنا. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «ظلف».

٤ مسند الإمام أحمد، ٢٩٢/٣ (١٧٧٠)؛ سنن أبي داود، ١٠٥/٧ (٤٧٢٣).

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضي عليكم مِن المصائب وإن هربتم مِن أقطارها كلَّ مَهرب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحميكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وقُرئ: "الجَوَارِي".[١] ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال على الإطلاق لا التي عليها النار للاهتداء خاصّةً.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

[٥٧ظ] ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تُجريها. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢] / ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَين ثوابتَ على ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات، لا غيرَ متحرّكات أصلًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن السفن اللاتي يجرين تارةً ويَركُدْنَ أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد، دالّةً على ما ذُكر مِن شئونه تعالى. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلّ مَن حبس نفسه عن التوجّه إلى ما لا ينبغي، ووكَل همّتَه بالنظر في آيات الله تعالى[٣] والتفكّر في آلائه، أو لكلّ مؤمِن كامل، فإنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يُسْكِنِ﴾، والمعنى: إن يشَأْ يسكنِ الريح فيركُدنَ، أَوْ يُرسِلْها فَيَغرَقنَ بِعَصْفِها. وإيقاعُ الإيباق عليهنّ مع أنّه حالُ أهلهنّ للمبالغة والتهويل. وإجراء حُكمه على العفو في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

---

١ قرأ بإثبات الياء وصلًا نافع وأبو جعفر أبو عمرو، وقرأ بإثباتها وصلًا ووقفًا ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٣ م - تعالى.

لِما أنّ المعنى: أو يُرسلْها فيُوبِقْ ناسًا ويُنجِ آخرين بطريق العفو عنهم. وقُرئ: "وَيَعْفُو"[1] على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطفٌ على علّة مقدّرة، مثل: لِينتقم منهم وليِعلمَ... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم، ٢١/١٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف، ٢١/١٢]، ونظائرِهما. وقُرئ بالرفع[2] على الاستئناف، وبالجزم[3] عطفًا على ﴿يَعْفُ﴾،[4] فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمَعْ بين إهلاك قوم وإنجاءِ قوم وتحذير قوم. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾[5] مِن مَهرب مِن العذاب. والجملة معلَّق عنها الفعل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ﴾ ممّا ترغبون وتتنافسون فيه. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعها تتمتّعون به مدّةَ حياتكم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثواب الآخرة ﴿خَيْرٞ﴾ ذاتًا لِخلوص نفعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زمانًا حيث لا يزول ولا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا. والموصول الأوّل لِما كان متضمّنًا لمعنى الشرط مِن حيث إنّ إيتاء ما أُوتوا سبب للتمتّع بها في الحياة الدنيا. دخلت جوابَها الفاءُ بخلاف الثاني. وعن عليّ رضي الله عنه / أنّه تصدّق أبو بكر رضي الله عنه[6] بماله كلّه، فَلَامَه جمعٌ مِن المسلمين، فنزلت.[7] [٥٨و]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وعن أهل المدينة بنصب الواو. انظر: البحر المحيط لأبي حيان، ٣٤٠/٩؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.
[3] أي: "وَيَعْلَمِ الَّذِينَ" بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
[4] في الآية السابقة.
[5] س ي + أي.
[6] س – رضي الله عنه.
[7] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٥.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر مِن هذا الجنس ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ مع ما بعده عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[١] أو مدح بالنصب أو الرفع. وبناءُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾ على الضمير خبرًا له للدلالة على أنّهم الأخصّاء بالمغفرة حال الغضب لعِزّة منالِها. وقُرئ: "كَبِيرَ الإِثْـمِ".[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: كَبِيرَ الإِثْـمِ: الشرك.[٣]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نزَل في الأنصار، دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان فاستجابوا له، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، لا ينفردون برأيٍ حتّى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزَبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: في سبيل الخير، ولعلّ فصلَه عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ينتقمون ممّن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهةَ التذلّل، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمّات الفضائل، وهذا لا ينافي وصفَهم[٤] بالغفران، فإنّ كلًّا منهما فضيلة محمودة في موقعِ نفسِه، ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه، فإنّ الحِلم عن العاجز وعَوْرَاءِ الكرام محمود، وعن المتغلِّب ولَغواءِ اللِّئام مذموم، فإنّه إغراءٌ على البَغي، وعليه قول مَن قال:

إذا أنـت أكـرمـتَ الـكـريـمَ ملَكْتَهُ   وإن أنـت أكـرمـتَ الـلّـئـيـمَ تـمـرّدَا
فوضعُ الندى في موضع السيفِ بالعُلَى   مضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندَى[٥]

---

١ في الآية السابقة.
٢ أي: بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧/٤.
٤ س - بسائر مهمّات الفضل وهذا لا ينافي وصفهم؛ ي: وصفها.
٥ للمتنبي في ديوانه، ص ١٦٣.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[١] بيان لوجه كون الانتصار مِن الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءةً إلى الغير، بالإشارة إلى أنّ البادئ هو الذي فعَله لنفسه، فإنّ الأفعال مستتبِعةٌ لِأَجزيتها حتمًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. وفيه تنبيه على حُرمة التعدّي. وإطلاق السيّئة على الثانية لأنّها تسوء مَن نزلت به.

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عنِ المسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين مَن يعاديه / بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت، ٤١/٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَة مبهمة مُنبئة عن عِظَم شأن الموعود وخروجه عن الحدّ المعهود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البادئين بالسيّئة،[٢] والمتعدّين في الانتقام. [٥٨ظ]

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: بعد ما ظُلِم، وقد قُرئ به.[٣] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، كما أنّ الضميرَين لَها باعتبار اللفظ. ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة أو المعاقبة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرار،[٤] أو يعتدون في الانتقام. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبّرون فيها تجبّرًا وفسادًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الظلم والبغي بغير الحقّ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

---

١ س - ﴿مِّثۡلُهَا﴾.

٢ س: بالسنة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٤ س: بالإصرار.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لِمَن ظَلَمه ولم ينتصر، وفوّض أمره إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إنّ ذلك منه، فحُذف ثقةً بغاية ظهوره، كما في قولهم: السَّمْن مَنَوان بدرهم.[١] وهذا في الموادّ التي لا يؤدّي العفو إلى الشرّ كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن ناصر يتولّاه مِن بعد خذلانه تعالى إيّاه. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رجعةٍ إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ حتّى نؤمِن ونعملَ صالحًا.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب. والخطاب في الموضعين لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلّلين متضائلين ممّا دهاهم. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدئ نظرهم إلى النار مِن تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ، كالمَصبور[٢] ينظر إلى السيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المتّصفين بحقيقة الخُسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا ظرف لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقول في الدنيا، أو لـ﴿قَالَ﴾، أي: يقولون حين يرونهم على تلك الحال. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه.

---

١ تقديره: منَوان منه بدِرهم. و"منَوان" مثنّى "منا"، وهو ما يوزن به. انظر: الصِّحاح للجوهري، «منا».

٢ المصبور: هو المحبوس على القتل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صبر».

/ وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ إمّا مِن تمام كلامهم، أو [٥٩و]
تصديق مِن الله تعالى لهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدّي سلوكُه إلى النجاة.

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ إذ دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيّه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يردّه الله بعد ما حكم به، على أنّ ﴿مِن﴾ صلةُ ﴿مَرَدَّ﴾، أو مِن قبل أن يأتي مِن الله يومٌ لا يمكن ردّه.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: مفرّ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي: إنكار لِما اقترفتموه؛ لأنّه مدوَّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم.

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ تلوين للكلام،[١] وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرِهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول عليه السلام، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمّا تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم. ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ وقد فعلتَ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ أي: نعمةً مِن الصحّة والغنى والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريدَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الجنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي:

---

[١] التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

بلاء مِن مرضٍ وفقرٍ وخوفٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأسًا، ويذكر البليّة ويستعظمها ولا يتأمّل سببها؛ بل يزعم أنّها أصابَتْها بغير استحقاق لها. وإسنادُ هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها مِن خواصّ المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد.

وتصدير الشرطيّة الأُولى بـ﴿إِذَا﴾ مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أنّ إيصال النعمة محقَّق الوجود كثير الوقوع، وأنّه مقتضى الذات. كما أنّ تصدير الثانية بـ﴿إِن﴾ وإسنادَ الإصابة إلى السيّئة وتعليلَها بأعمالهم للإيذان بنُدرة وقوعها، وأنّها بمَعزِل مِن الانتظام في سلك الإرادة بالذات. ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النِّعم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمِن قضيّته أن يملك التصرّف فيهما وفي كلّ ما فيهما / كيفما يشاء، ومِن جملته أن يقسم النعمة والبليّة حسبما يريده. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ممّا تعلمه وممّا لا تعلمه، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ مِن الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم مِن غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد. [٥٩ظ]

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرن بين الصنفين فيَهَبُهما جميعًا ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ قالوا:[١] معنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أن تلِد غلامًا ثمّ جاريةً ثمّ غلامًا، أو تلد ذكرًا وأُنثى توأمين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والمعنى: يجعل أحوال العباد في حقّ الأولاد مختلفة على ما يقتضيه المشيئة فيهنّ، فيهب لبعضٍ إمّا صِنفًا واحدًا مِن ذكر أو أنثى، وإمّا صِنفين، ويُعْقِم آخرين.

---

[١] وفي هامش م: كواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٨٢ظ. | وهذا القول مرويّ عن مجاهد. انظر: تفسير مجاهد، ص ٥٩١؛ وجامع البيان للطبري، ٢٠/٥٣٨.

ولعلّ تقديمَ الإناث لأنّها أكثر لتكثير النسل، أو لأنّ مساق الآية للدلالة
على أنّ الواقع ما يتعلّق به مشيئته تعالى، لا ما يتعلّق به مشيئة الإنسان، والإناث ٢
كذلك، أو لأنّ الكلام في البلاء، والعربُ تعدُّهنّ أعظمَ البلايا، أو لتطييب
قلوب آبائهنّ، أو للمحافظة على الفواصل، ولذلك عُرّف، أو لجَبر التأخير.

وتغيير العاطف في الثاني لأنّه قسيم المشترَك بين القسمين، ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأنّه قسيم المشترَك بين الأقسام المتقدّمة.

وقيل: المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، وللنبيّ صلوات الله عليهم[١] ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: وما صحّ لفردٍ مِن أفراد البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ بوجه مِن الوجوه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلّا بأن يُوحِيَ إليه، ويلهمه، ويقذِف في قلبه، كما أوحى إلى أمّ موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وقد رُوي عن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره».[٢]

أو بأن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام مِن غير أن يُبصر السامعُ مَن يكلّمه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، فإنّه تمثيل له بحال
الملِكِ المحتجِب / الذي يكلّم بعض خواصّه مِن وراء الحجاب، يُسمع صوته [٦٠و]
ولا يُرى شخصه، وذلك كما كلّم موسى، وكما يكلّم الملائكةَ عليهم السلام.

أو بأن يكلّمه بواسطة الملَك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملَكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسَل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٩/٩.

أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحيَه إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام في عامّة الأوقات مِن الكلام.

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَحْيًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ مصدران واقعان موقع الحال. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ظرف واقع موقعها، والتقدير: وما صحّ أن يكلّم إلّا مُوحِيًا أو مُسمِعًا مِن وراء حجاب أو مرسِلًا. وقُرئ: "أَوْ يُرْسِلُ" بالرفع[1] على إضمار مبتدأ.

ورُوي أنّ اليهود قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[2] «أَلَا تُكَلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًا كما كلَّمه موسى ونظر إليه، فإنّا لَن نؤمِن حتّى تفعلَ ذلك»، فقال عليه السلام: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»، فنزلت.[3]

وعن عائشة رضي الله عنها: «مَن زعم أنّ محمّدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِريةَ»، ثمّ قالت: «أوَلم تسمعوا ربّكم يقول...» فتَلَتْ هذه الآية.[4]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعالٍ عن صفات المخلوقين لا يتأتّى جَريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلّا بأحد الوجوه المذكورة، ﴿حَكِيمٌ﴾ يُجري أفعاله على سَنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة، وأخرى بدونها، إمّا إلهامًا، وإمّا خطابًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومِثل ذلك الإيحاء البديع ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياةً أبديّةً. وقيل: هو جبريل عليه السلام، ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحي.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: الإيمانُ بتفاصيل ما في تضاعيف / الكتاب مِن الأمور التي لا يهتدي إليها العقول، [٦٠ظ]

[1] قرأ بها نافع وابن ذكوان بخلف عنه، وقرآ كذلك: "فيوحي" بإسكان الياء. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

[2] س: عليه السلام.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٤.

[4] صحيح البخاري، ٦/١٤٠ (٤٨٥٥)؛ صحيح مسلم، ١/١٥٩ (١٧٧).

لا الإيمانُ بما يستقلّ به العقل والنظر، فإنّ درايته عليه السلام له ممّا لا ريب فيه قطعًا.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيّتها. ومفعول ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ محذوف ثقةً بغاية الظهور، أي: وإنّك لتَهدي بذلك النور مَن نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام. وقُرئ: "لَتُهْدَى"،[١] أي: لَيَهدِيك الله، وقُرئ: "لَتَدْعُو".[٢]

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الأوّل. وإضافته إلى الاسم الجليل ثمّ وصفُه تعالى بقوله تعالى:[٣] ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه، فإنّ كون جميع ما فيهما مِن الموجودات له تعالى خلقًا وملكًا وتصرّفًا ممّا يوجب ذلك أتمَّ إيجابٍ. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: أمور ما فيهما قاطبة، لا إلى غيره، ففيه مِن الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالّين عنه ما لا يَخفى.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ كان ممَّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حَوشب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ م - تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الشورى

وتُسمَّى سورة «حم عسق» و«عسق»، نزلَتْ على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير بمكة[1]، وأطلق غيرُ واحد القولَ بمكِّيتها من غير استثناء.

وفي «البحر»: هي مكية إلا أربعَ آيات: من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخر أربع آيات[2].

وقال مقاتل: فيها مدنيٌّ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ إلى ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ [الآيتان ٢٣-٢٤].

واستثنى بعضُهم قولَه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ﴾ إلخ [الآية: ٢٤]؛ قال الجلال السيوطي[3]: ويدلُّ له ما أخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها؛ فإنها نزلت في الأنصار[4]، وقولَه سبحانه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [الآية: ٢٧] إلخ فإنها نزلت في أصحاب الصُّفة رضي الله عنهم[5].

واستثني أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الآيات: ٣٩-٤١] حكاه ابن الفرس.

وسيأتي إنْ شاء الله تعالى ما يدلُّ على استثناء غيرِ ذلك على بعض الروايات، وجوِّز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في الإتقان ١/ ٤٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٢٣٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عند الحاكم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٥ عن عليٍّ رضي الله عنه.

وعددُ آياتها ثلاثٌ وخمسون في الكوفي وخمسون فيما عداه، والخلافُ في «حم عسق» وقوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الآية: ٣٢] كما فصَّله الداني[١] وغيره.

ومناسبةُ أوَّلها لآخر السورة قبلَها اشتمالُ كلٍّ على ذِكْر القرآن، وذبِّ طعن الكَفَرة فيه، وتسليةِ النبي ﷺ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾ لعلَّهما اسمان للسورة، وأُيِّدَ بِعَدِّهما آيتين، والفَصْلِ بينهما في الخطِّ، وبورودِ تسميتها «عسق» من غير ذِكْر «حم»، وقيل: هما اسمٌ واحدٌ وآيةٌ واحدة، وحقُّه أن يُرسَم متصلاً كما في «كهيعص» [مريم: ١] لكنه فُصل ليكون مفتتحُ السورة على طِرز مفتتح أخواتها، حيث رُسم في كلٍّ مستقِلًّا، وعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. وعلى الثاني الكلُّ خبرٌ واحد.

وقيل: إن «حم عسق» إشارةٌ إلى هلاك مدينتين تُبنيان على نهر من أنهار المشرق يشقُّ النهر بينهما يجتمع فيهما كلُّ جبار عنيد، يبعثُ اللهُ تعالى على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مظلمةً قد احترقتْ كأنها لم تكن مكانَها، ويخسفُ بالأُخرى في الليلة الأُخرى، ورُوي ذلك عن حذيفة[٢].

وقيل: إن «حم» اسمٌ من أسماء الله تعالى و«عين» إشارةٌ إلى عذاب يوم بدر و«سين» إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] و«قاف» إلى قارعةٍ من السماء تُصيب الناس. ورُوي ذلك بسندٍ ضعيف عن أبي ذرّ[٣].

---

(١) في البيان في عدِّ أي القرآن ص٩١.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: أثر عجيب منكر.
(٣) أخرجه أبو يعلى وابن عساكر كما في الدر المنثور ٦/ ٢.

والذي يغلب على الظنّ عدمُ ثُبوت شيء من الروايتين.

وفي «البحر»: ذكر المفسرون في «حم عسق» أقوالاً مضطربةً لا يَصِحُّ منها شيء، ضربنا عن ذِكْرها صفحاً[1]. وما ذكرناه أولاً قد اختاره غيرُ واحد، ومنهم من اختار أنها مُقَطَّعات جِيء بها للإيقاظ.

وقرأ ابنُ عباس وابن مسعود: «حم سق» بلا عين[2].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لِتحقيق أنَّ مضمونَ السورة موافقٌ لما في تضاعيفِ الكُتب المُنزلة على سائر الرُّسل المتقدِّمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءها [مثلُ إيحاءها][3]، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيهِ على فَخامةِ شأنها، والكافُ مفعول «يوحي» على الأول، أي: يُوحي مثلَ ما في هذه السورة من المعاني، أو نعتٌ لمصدر مؤكّد على الثاني، أي: يوحي إيحاءً مثلَ إيحائها إليك وإلى الرُّسل، أي: بواسطة المَلك، وهي في الوجهين اسمٌ كما هو مذهبُ الأخفش، وإن شئتَ فاعتبرها حرفاً، واعتبر الجار والمجرور مفعولاً، أو متعلِّقاً بمحذوف وقع نعتاً.

وقولُ العلامة الثاني في «التلويح»: إنَّ جار الله لا يُجوِّز الابتداءَ بالفعل، ويُقدِّر المبتدأ في جميع ما يقع فيه الفعلُ ابتداءً، كلامٌ غير مُسلَّم، وقد تردَّدوا فيه حتى قيل: إنه لم يظهر له وجه.

وجَوَّز أبو البقاء[4] كون «كذلك» مبتدأ «ويُوحي» الخبر، والعائد محذوفٌ، أي: مثلُ ذلك يُوحيه إليك.. إلخ، وحذفُ مثله شائعٌ في الفصيح، نعم هذا الوجه خلافُ الظاهر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٢١، والكلام منه.

(٤) في إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٨٨.

والإشارةُ ـ كما أشرنا إليه ـ إلى ما في السورة أو إلى إيحائها، والدلالةُ على البُعد لِبُعد منزلةِ المُشار إليه في الفضل. وصيغةُ المضارع على حكاية الحال الماضيةِ للدلالةِ على استمراره في الأزمنة الماضية، وأن إيحاءَ مثلهِ عادتُه عز وجل. وقيل: إنها على التغليب، فإن الوحي إلى مَنْ مضى مضَى، وإليه عليه الصلاة والسلام بعضُه ماضٍ وبعضُه مُستقبَل، وجوّز أن تكون على ظاهرها، ويُضمر عامل يتعلَّق به «إلى الذين» أي: وأَوحى إلى الذين، وهو كما ترى. وفي جَعْل مضمون السورة أو إيحائها مُشَبّهاً به من تفخيمها ما لا يخفى.

وقرأ مجاهد وابن كثير وعيَّاش ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو: «يُوحَى» مَبنيّاً للمفعول[(١)]، على أن «كذلك» مبتدأ و«يُوحَى» خبره المُسند إلى ضميره، أومصدر و«يوحَى» مسند إلى «إليك»، و«الله» مرتفعٌ عند السكَّاكي[(٢)] على الفاعلية ليوحي الواقع في جواب: مَن يُوحي؟ نحو ما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والأصال رجالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] على قراءة «يُسبَّح» بالبناء للمفعول[(٣)]، وقوله:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائح[(٤)]

وقال الزمخشري: رافِعُه ما دلَّ عليه «يوحَى»، كأنَّ قائلاً قال: من المُوحي؟ فقيل: الله[(٥)]. وإنما قدّر كذلك ـ على ما قاله صاحب الكشف ـ ليدلَّ على أنَّ الإيحاءَ مُسلَّمٌ معلوم، وإنما الغرضُ من الإخبار إثباتُ اتِّصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي، لا إثباتُ أنه مُوح. ولم يَرْتَضِ[(٦)] القول بعدم الفرقِ بين هذا وقولهِ تعالى:

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣٦٧، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والمشهور عنه كقراءة الجمهور: «يُوحي». والكلام من البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.

(٢) في مفتاح العلوم ص٨٧.

(٣) هي قراءة ابن عامر وشعبة، وسلفت عند تفسير الآية المذكورة من سورة النور.

(٤) البيت في الكتاب ١/ ٢٨٨ ونسبه للحارث بن نهيك، والخزانة ١/ ٣٠٣ و٣١٣، وقال البغدادي: الصواب أنه لنهشل بن حَرّيّ.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٩.

(٦) أي: صاحب الكشف. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ بل أوجب الفرق؛ لأنَّ الفعلَ المضارع هنالك على ظاهره لم يؤتَ به للدلالة على الاستمرار. ولهم فيه مقال.

و«العزيز الحكيم» صفتان له تعالى عند الشيخين(١)، وجوَّز أبو حيان(٢) كونَ الاسم الجليل مبتدأ وما بعدَه خبرٌ له. وقيل: «الله العزيز الحكيم» إلى آخر السورة قائمٌ مقام فاعل «يُوحي» أي: هذه الكلمات.

وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر وأبان: «نوحي» بنون العظمة(٣)، فـ«الله» مبتدأ وما بعدَه خبر، أو«العزيز الحكيم» صفتان، وقولُه تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾ خبرٌ له، وعلى الأوجه السابقة استئنافٌ مُقرِّرٌ لِعزَّته تعالى وحِكمته عز وجل.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقُرئ: «يكاد» بالياء(٤) ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمة الله تعالى وجلالِهِ جلَّ شأنه، ورُوي ذلك عن قتادة.

وأخرج جماعةٌ منهم الحاكم - وصحَّحه - عن ابن عباس أنه قال: تكادُ السماوات يتفطَّرن من الثِّقل(٥).

وقيل: مِن دعاء الشَّريك والولد له سبحانه؛ كما في سورة مريم، وأُيِّد هذا بقوله تعالى بعدُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٦] فإيرادُ «الغفورُ الرحيم» بعدُ لأنهم استوجبوا بهذه المَقالةِ صبَّ العذاب عليهم، لكنه صُرف عنهم لِسَبقِ رحمته عزَّ وجل، والآية عليه واردةٌ للتنزيه بعد إثبات المالكية والعَظَمة، والأولُ أَولى في هذا المقام؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لبيان عظمتِهِ تعالى وعُلُوِّه جلَّ جلاله، ويُؤيِّده تركُ العاطف، ويليهِ ما رُوي عن الحِبْر؛ فإنَّ الآية وإنْ تضمَّنتْ عليه الغرضَ المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناءً على القول الأول أظهر.

---

(١) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤٠٩، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢١.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤، والبحر المحيط ٧/ ٥٠٧.
(٤) قرأ بها نافع والكسائي. التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٤٢.

وقرأ البصريان وأبو بكر: «يَنْفَطِرْنَ» بالنون[(١)]، والأول أبلغ؛ لأن المطاوِعَ والمطاوَعَ من التفعيل والتفعُّل الموضوع للمبالغة بخلاف الثاني، فإنه انفعالٌ مطاوع للثلاثي.

وروى يونس عن أبي عمرو أنه قرأ: «تتفطَّرن» بتاءين ونون في آخره على ما في «الكشاف»[(٢)]، و«تَنْفطرن» بتاء واحدة ونون على ما في «البحر»[(٣)] عن ابن خالويه[(٤)]، وهو على الروايتين شاذٌّ عن القياس والاستعمال؛ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامتي التأنيث، فلا تقول: النساءُ تَقُمنَ، ولا الوالداتُ تُرضِعْنَ، والوجهُ فيه تأكيدُ التأنيث كتأكيدِ الخطابِ في أرأيتَك؛ ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد في «نوادر ابن الأعرابي»: الإبل تَتشمَّمنَ.

﴿مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾ أي: يبتدئ التفطُّر من جهتهنَّ الفوقانية، وتخصيصُها ـ على الأول[(٥)] في سبب التفطُّر ـ لِمَا أنَّ أعظمَ الآيات وأدلَّها على العظمة والجلال ـ كالعرش والكرسي والملائكة ـ من تلك الجهةِ، ولذا كانت قِبلةَ الدعاء، وعلى الثالثِ: للدلالة على التفطُّر من تحتهنَّ بالطريق الأولى؛ لأنَّ تلك الكلمةَ الشَّنعاء الواقعةَ في الأرض حين أثَّرت من جهة الفَوق فلأَنْ تُؤثِّر من جهة التحت أولى، وكذا على الثاني؛ لأنَّ العادةَ تفطُّر سطح البيت ـ مثلاً ـ من جهته التحتانية بحصول ثِقل عليه.

وقيل: الضمير للأرض، أي: لجنسها، فيشمل السبعَ ولذا جمع الضمير. وهو خلافُ الظاهر.

وقال علي بن سليمان الأخفش[(٦)]: الضمير للكُفَّار، والمراد: من فوق الفِرق

(١) التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٢) ٣/ ٤٥٩، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.
(٣) ٧/ ٥٠٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٤.
(٥) يعني على الوجه الأول. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.
(٦) ذكره عنه أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٨، وعنه نقل المصنف.

والجماعات المُلحدة، وبهذا الاعتبار أنّث الضمير، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن التفطُّر من أجل أقوال هاتيكَ الجماعات. وفيه ما فيه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُنزِّهونه سبحانه عما لا يَليق به جلَّ جلاله مُلتبسين بحمده عز وجل، وقيل: يُصلُّون. والظاهر العموم في الملائكة، وقال مقاتل: المرادُ بهم حملةُ العرش.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مَغْفرتَهم؛ من الشفاعة والإلهام وترتيبِ الأمور المُقرِّبة إلى الطاعة؛ كالمعاونة في بعض أمور المعاش، ودَفْع العوائق، واستدعاء تأخيرِ العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبةِ الفاسق، وهذا يَعُمُّ المؤمنَ والكافر. بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخَلل المتوقَّع عمَّ الحيوانَ، بل الجماد. وهو فيما ذكر مجازٌ مرسل، أواستعارة.

وقال السدي وقتادة: المرادُ بمن في الأرض المؤمنون، لقوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] والمرادُ بالاستغفار ـ عليه ـ حقيقتُه، وقيل: الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ إذْ ما من مخلوق إلا وله حظٌّ عظيم من رحمته تعالى، وإنه سبحانه لذو مغفرةٍ للناس على ظُلمهم، وفيه إشارة إلى قبول استغفارِ الملائكة عليهم السلام، وأنه سبحانه يَزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمةً.

والآيةُ على كون قوله تعالى: (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ) لبيانِ عظمته جلَّ شأنه مُقرِّرةٌ لما دلَّ عليه ذلك ومُؤكِّدةٌ له؛ لأن تسبيحَ الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيدِ عظمته تبارك وتعالى وعظيمِ جلاله جلَّ وعلا، والاستغفار لغيرهم للخوفِ عليهم من سَطْوة جَبروته عزَّ وجل، والتذييلُ بقوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ) إلخ على هذا ظاهر.

وعلى كون تَفطُّر السماواتِ لِنسبةِ الولدِ والشَّريك بيانٌ لِكمالِ قُدسهِ تعالى عما نُسب إليه عزَّ وجل، فيكون تسبيحُهم عما يقوله الكَفَرة، واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرَّؤوا عمَّا صدرَ من هؤلاء، والتذييلُ للإشارة إلى سببِ ترك مُعاجلة العذابِ

مع استحقاقهم له. وعَمَّم بعضُ المُستغفَر لهم، وأدخل استغفارَ الملائكة في سبب ترك المعاجلة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شُركاءَ وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم بها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ أي: بموكَّل بهم، أو: بموكول إليك أمرُهم، وإنما وظيفتُك البلاغُ والإنذار، فـ «وكيل» فَعيل بمعنى مفعول من المزيد أوالثلاثي.

وما في هذه الآية من المُوادعة على ما في «البحر» منسوخٌ بآية السيف[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ «ذلك» إشارة إلى مصدر «أوحينا»، ومحلُّ الكاف ـ على ما ذهب إليه الأخفش[2] من ورودها اسماً ـ النصبُ على المصدرية، و«قرآناً» مفعولٌ لـ «أوحينا»، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيِّن المُفهِم أوحينا إليك قرآناً عربيّاً لا لَبْس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى ما تقدم من «الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» فالكاف مفعولٌ لـ «أوحينا»، و«قرآناً عربياً» حالٌ من المفعول به، أي: أوحيناه إليك وهو قرآنٌ عربي. وجوِّز نصبُه على المَدْح أوالبدلية من «كذلك».

وقيل: أَولى من هذا أن يكون إشارةً إلى معنى الآيةِ المتقدِّمة من أنه تعالى هو الحفيظُ عليهم، وأنه عليه الصلاة والسلام نذيرٌ فحسب، لأنه أتمُّ فائدةً وأشملُ عائدةً، ولابدَّ عليه من التجوُّز في «قرآناً عربيّاً» إذْ لا يصِحُّ أن يقال: أوحينا ذلك المعنى وهو قرآنٌ عربيّ؛ لأنَّ القرآنية والعربية صفةُ اللفظ لا المعنى، لكن أمره سهل لِقُربه من الحقيقة، لِمَا بين اللَّفظ والمعنى من المُلابسة القوية حتى يُوصف أحدُهما بما يُوصَفُ به الآخر، مع ما في المجاز من البلاغة.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهل أُمِّ القُرى، على التجوُّز في النسبة، أو بتقدير المضاف، والمراد بأُمِّ القُرى مكة، وسُمِّيتْ بذلك ـ على ما قال الراغب[3] ـ لما رُوي

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٨.
(٢) كما في البحر ٧/ ٥٠٩.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (أمّ).

أنه دُحيت الدنيا من تحتها، فهي كالأصلِ لها، والأمُّ تُقال لكل ما كان أصلاً لشيء.

وقد يقال: هي أمٌّ لما حولها من القُرى لأنها حدثَتْ قبلَها، لا كلِّ قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هي أُمُّ البلاد، باعتبار احتياج أهالي البلاد إليها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، على ما ذهب إليه كثيرٌ، وخُصَّ المذكورون بالذِّكر لأنَّ السورةَ مكيةٌ، وهم أقربُ إليه عليه الصلاة والسلام، وأولُ مَن أُنذر، أو لِدَفْع ما يُتوَهَّم من أنَّ أهلَ مكة ومَن حَوْلَها لهم طمعٌ في شفاعته ﷺ وإن لم يُؤمنوا؛ لحقِّ القَرابة والمُساكنة والجِوار، فخصَّهم بالإنذار لإزالة ذلك الطمع الفارغ.

وقيل: «مَن حولها» جميعُ أهل الأرض، واختاره البغوي[1]، وكذا القُشيري[2]، وقال: لأنَّ الكعبةَ سُرَّةُ الأرض، والدنيا مُحدِقة بما هي فيه، أعني مكة. وهذا عندي لا يكاد يصِحُّ مع قولهم: إنَّ عَرْضَها: كام، وطولَها: عز[3]، وأن المعمورَ في جانب الشمال أكثر منه في جانب الجنوب.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: يوم القيامة؛ لأنه يُجمع فيه الخلائق، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: تُجمع فيه الأرواح والأشباح، وقيل: الأعمال والعُمَّال.

والإنذار يتعدَّى إلى مفعولين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف هاهنا ثاني مفعولي الأول، وهو يوم الجمع، والمراد به عذابه، وأوَّلُ مفعولي الثاني، وهو أمّ القُرى ومَنْ حولها، فقد حُذف من الأول ما أُثبت في الثاني ومن الثاني ما أُثبت في الأول، وذلك من الاحتباك.

وقال جار الله[4]: الأول عامٌّ في الإنذار بأمور الدنيا والآخرة، ثم خصَّ بقوله

---

(١) في تفسيره ٤/ ١٢٠.
(٢) في لطائف الإشارات ٣/ ٣٤٣.
(٣) لعله يعني أنَّ عرضها في حساب الجُمَّل: واحد وستون، وطولها: واحد وسبعون.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٦١.

تعالى: «وتُنذر يومَ الجمع» يومُ القيامة زيادةً في الإنذار وبياناً لِعظمة أَهوالِهِ؛ لأن الإفراد بالذِّكر يدلُّ عليه، وكذلك إيقاعُ الإنذار عليه ثانياً.

والظاهرُ عليه أن حذفَ المفعول الثاني من الأول لإفادةِ العموم وإنْ كان حذفُ الأول من الثاني لذلك أيضاً [أي:][1] وتُنذر كلَّ أحد يومَ الجمع.

وقيل: «يوم الجمع» ظرفٌ، فيكون المفعولان محذوفين.

وقرئ: «لِيُنذِرَ» بياء الغيبة[2]، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ القرآن لعدم حسن الالتفات هاهنا.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ اعتراضٌ في آخر الكلام مُقرِّرٌ لما قبلَه، ويحتمل الحالية من «يوم الجمع»، أوالاستئناف.

﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ أي: بعد جَمْعهم في الموقف، فإنهم يُجمعون فيه أولاً، ثم يُفَرَّقون بعد الحساب، و«فريق» مبتدأ و«في الجنة» صفته، والخبرُ محذوفٌ، وكذا «فريقٌ في السعير» أي: منهم فريقٌ كائن في الجنة، ومنهم فريقٌ كائنٌ في النار، وضميرُ منهم للمجموعين، لدلالة الجمع عليه، وجملةُ المبتدأ والخبر استئنافٌ في جواب سؤالٍ تقديره: ثم كيف يكون حالُهم؟ أوحالٌ، ولا ركاكةَ فيه، واشتراطُ الواو فيه غيرُ مُسلَّم.

وجُوِّز كون «فريق» فاعلاً للظرف المُقدَّر، وفيه ضعفٌ. وكونُه مبتدأً، والظرفُ المُقدَّر في موضع الصِّفة له و«في الجنة»خبره، أي: فريق كائنٌ منهم مستقرٌّ في الجنة. وكونُه مبتدأً خبرُه ما بعده من غير أن يكونَ هناك ظرفٌ مُقدَّر واقعٌ صفةً، وساغ الابتداءُ بالنكرة لأنها في سياق التفصيل والتقسيم، كما في قوله:

فـــوب لَــبِــسْــتُ وثـــوب أجـــر[3]

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٩، وفي الكتاب ١/ ٨٦، والخزانة ١/ ٣٧٣، وصدره فيهما: فأقبلت زحفاً على الركبتين، ورواية الديوان:

=

وكونُه خبرَ مبتدأ محذوف، أي: المجموعون فريقٌ... إلخ.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «فريقاً» «وفريقاً» بنصبهما[1]، فقيل: هو على الحال من مقدَّر، أي: افترقوا ـ أي: المجموعون ـ فريقاً وفريقاً، أو من ضمير جمعهم المُقدَّر؛ لأنَّ «أل» قامت مَقامه، أي: وتُنذر يومَ جمعهم متفرِّقين وهو من مجاز المشارفة، أي: مُشارفين للتفرُّق. أوالحال مُقدَّرة فلا يلزم كون افتراقِهم في حال اجتماعهم، أويقال: إنَّ اجتماعهم في زمان واحد لا يُنافي افتراقَ أمكنتهم، كما تقول: صلّوا في وقتٍ واحد في مساجدَ مُتفرِّقة، فالمراد: مُتفرِّقين في دارَي الثواب والعقاب، وإذا أُريد بالجمع جمع الأرواح بالأشباح، أو الأعمال بالعُمَّال لا يُحتاج إلى توفيق أصلاً.

وجوّز كون النصب بِتُنذر المُقدَّر أو المذكور، والمعنى: تُنذر فريقاً من أهل الجنة وفريقاً من أهل السعير؛ لأنَّ الإنذارَ ليس في الجنة والسعير. ولا يخفى تكلُّفه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جَعْلَهم أُمَّةً واحدةً ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُهتدين، أوضالِّين، وهو تفصيلٌ لما أجمله ابنُ عباس في قوله: على دين واحد[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنه تعالى يُدخل في رحمته من يشاء أن يُدخِلَه فيها، ويُدخل مَن يشاء في عذابه أَنْ يُدخله فيه، ولا ريبَ في أنَّ مشيئته تعالى لكلٍّ من الإدخالين تابعةٌ لاستحقاق كلٍّ من الفريقين لِدخول ما أدخله، ومن ضرورة اختلافِ الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخِلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جَعْلَ الكُلِّ أُمَّةً واحدةً، بل جعلهم فريقين، وإنما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ وكان الظاهرُ أن يقال: ويُدخل مَن يشاء في عذابه ونِقمته، للإيذان بأنَّ الإدخالَ في العذابِ من جهة الداخِلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته عزَّ وجل كما في الإدخال في الرحمة.

= فـلـمّـا دنـوت تـسـدَّيـتُـهـا فـثـوبـاً نـسـيـت وثـوبـاً أجـرّ

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١.

واختار الزمخشري[1] كون المراد: أمةً واحدةً مؤمنين، وهو ما قاله مقاتل: على دين الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] والمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى مشيئةَ قُدرةٍ لَقَسرهم على الإيمان، ولكنه سبحانه شاء مشيئةَ حِكمة، وكلَّفهم وبنى أمرهم على ما يختارون لِيُدخلَ المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: «من يشاء» وترك الظالمين بغير وليّ ولا نصير، والكلامُ متعلّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الآية: ٦] كالتعليل للنهي عن شِدَّة حِرْصه ﷺ على إيمانهم، فـ«الظالمون» مُظهَرٌ أُقيم مُقام ضمير المُتَّخِذين لِيُفيدَ أنَّ ظُلمهم علَّةٌ لما بعده، أوهو للجنس ويتناولهم تناولاً أولياً، وعدلَ عن الظاهر إلى ما في النظم الجليل - إذ الكلامُ في الإنذار، وهو أبلغُ في تخويفهم - لإشعاره بأنَّ كونهم في العذاب أمرٌ مفروغٌ منه، وإنما الكلامُ في أنه بعد تَحتُّمه هل لهم من يُخلِّصهم بالدَّفْع أوالرفع، فإذا نفى ذلك عُلم أنهم في عذابٍ لا خَلاص منه.

وتُعقِّب بأنَّ فرضَ جَعْلِ الكُلِّ مؤمنين يأباه تصديرُ الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته تعالى، إذ الكُلُّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسبُ حينئذ تصديرَه بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه.

وربما يقال: حيث إن الآيةَ متعلِّقةٌ بما سمعتَ كان المرادُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجعلَ الجميعَ مؤمنين كما تُريد وتَحرِصُ عليه، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل جعل بعضَهم مؤمناً كما أردتَ، وجعل بعضَهم الآخر - وهم أولئك المُتخِذون من دونه أولياءَ - كُفَّاراً لا خَلاصَ لهم من العذاب حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ، وكان التصديرُ بما صدّر به مناسباً كما لا يخفى على من له ذوقٌ بأساليبِ الكلام، إلا أن الظاهرَ على هذا: أَدخل مَنْ شاء، دون: يُدخِلُ مَنْ يشاء، لكن عدل عنه إليه حكايةً للحال الماضية.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦١.

وقال شيخُ الإسلام(١): الذي يقتضيه سياقُ النظم الكريم وسياقُه أنْ يُرادَ الاتحادُ في الكُفر كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣] على أحد الوجهين، فالمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى لَجعلهم أمةً واحدةً مُتَّفقةً على الكُفر بأنْ لا يُرسلَ إليهم رسولاً لِيُنذرهم ما ذُكِرَ من يومِ الجَمْع وما فيه من ألوان الأهوال، فيبقوا على ما هم عليه من الكُفر، ولكن يُدخل مَنْ يشاء في رحمته سبحانه، أي: شأنُه عزَّ شأنه ذلك فيُرسل إلى الكُلِّ مَنْ يُنذرهم ما ذُكِرَ، فيتأثَّر بعضُهم بالإنذار، فيصرفون اختيارَهم إلى الحقِّ فيُوَفِّقهم اللهُ تعالى للإيمان والطاعات، ويُدخِلهم في رحمته عزَّ وجل، ولا يتأثَّر به الآخرون ويتمادَوْن في غيِّهم، وهم الظالمون، فيبقَوْن في الدنيا على ما هم عليه من الكُفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير وليٍّ يلي أمْرَهم ولا نصيرٍ يُخلِّصهم من العذاب. انتهى.

ولا يخفى أنَّ بين قوله تعالى: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) الآية، وقوله سبحانه: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) بالمعنى الذي اختاره هنا فيهما نوعَ تَنافٍ، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى المُوفِّق.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين وليٌّ أو نصير.

وكلامُ «الكشاف»(٢) يُومِئ إلى أنه متصلٌ بقوله تعالى: «والذين اتخذوا» إلخ، على معنى: دَع الاهتمامَ بشأنهم واقطَع الطمعَ في إيمانهم، وكيتَ وكيتَ، أليسوا الذين اتَّخذوا من دون الله تعالى أولياءَ؟! وهو سبحانه الوليُّ الحقيقيُّ القادرُ على كلِّ شيء، وعدلوا عنه عز وجل إلى ما لا نسبةَ بينه تعالى وبينه أصلاً، وأن قولَه سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ) الآية اعتراضٌ مُؤكِّد لمضمون الآيتين.

و«أم» على القولين منقطعة، وهي تُقدَّر في الأغلب بِبَلْ والهمزة، وقدَّرها جماعةٌ هنا بهما إلا أنَّ بل على القول الثاني للإضراب، وعلى القول الأول للانتقال

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٣.
(٢) ٣/ ٤٦١.

من بيان ما قبلَها إلى بيان ما بعدَها، والهمزة قيل: لإنكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لإنكار الوقوع ونَفْيه على أبلغ وجه وآكدِه، إذ المرادُ بيانُ أن ما فعلَوا ليس من اتخاذ الأولياء في شيء؛ لأنَّ ذلك فرعُ كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهرُ المُمتنِعات، أي: بل اتَّخذوا مُتجاوزين اللهَ تعالى أولياءَ من الأصنام وغيرها.

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قيل: هو جوابُ شرط مُقدَّر، أي: إنْ أرادوا وليّاً بحقٍّ فالله تعالى هو الوليُّ بحقٍّ، لا وليَّ بحقٍّ سواه عز وجل، وكونه جوابَ الشرط على معنى الإخبار ونحوه. وقال في «البحر»[1]: لا حاجةَ إلى اعتبار شرطٍ محذوف والكلامُ يَتِمُّ بدونه. ولعله يُريد ما قيل: إنه عطفٌ على ما قبلَه، أو إنه تعليلٌ للإنكار المأخوذ من الاستفهام، كقولك: أتضربُ زيداً فهو أخوك، أي: لا ينبغي لك ضربُه فإنه أخوك. وتُعقِّب بأنَّ المعروف في مثله استعمالُه بالواو، وإنما يحسن التعليل في صريح الإنكار، ولا يُناسب معنى المضي أيضاً.

﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: شأنه ذلك نحو: فلانٌ يَقْري الضيفَ، ويَحمي الحريمَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⑨﴾ فهو سبحانه الحقيقُ بأنْ يُتَّخذ وليّاً، فَلْيخصُّوه بالاتِّخاذ دون مَن لا يقدِرُ على شيء ما أصلاً.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ إلى آخره حكايةٌ لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكُفَّار فيه من أمور الدين، كاتِّخاذ اللهِ تعالى وحدَه وليّاً، فاختلفتم أنتم وهم ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجعٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المُحِقِّين وعقابُ المُبْطِلين.

ويجوز أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمِّناً التسليةَ، ويكون قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلخ بتقدير: قُلْ، والإمام[2] اعتبره من أول الكلام.

وأيًّا ما كان فالإشارةُ إليه تعالى من حيث اتّصافُه بما تقدَّم من الصفات ـ على ما قاله الطيبي ـ من كونه تعالى هو يُحيي الموتى، وكونه سبحانه على كلِّ شيء قدير، وكونه عزَّ وجلّ ما اختلفوا فيه فَحُكمه إليه.

---

(١) ٧/ ٥٠٩.

(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

وقال في «الإرشاد»: أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أموري خاصةً لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ أرجعُ في كلِّ ما يَعِنُّ لي من مُعضِلات الأمور لا إلى أحد سواه، وحيث كان التوكّل أمراً واحداً مستمرّاً، والإنابةُ متعدِّدةٌ متجدِّدةٌ حسب تجدُّد موادِّها، أُوثر في الأول صيغةُ الماضي وفي الثاني صيغةُ المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتُم من شيء من الخُصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تُؤثروا على حكومته حكومةَ غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آيةٍ واشتبه عليكم، فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم من كتاب الله تعالى، والظاهرِ من سُنة رسولِ الله ﷺ.

وقيل: وما وقع بينكم الخلافُ فيه من العلوم التي لا تتعلَّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى عِلْمه فقولوا: اللهُ تعالى أعلم؛ كمعرفة الروح[1].

وأُورد على الكلِّ أنه مُخالف للسِّياق؛ لأن الكلام مسوقٌ للمشركين، وهو على ذلك مخصوصٌ بالمؤمنين.

وظاهرُ كلام الإمام[2] اختيارُ الاختصاص، فإنه قال في وجه النَّظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسولَه ﷺ أن يحمل الكُفَّار على الإيمان، كذلك منع المؤمنين أن يَشْرعوا معه في الخُصومات والمنازعات، وذكر أنه احتجَّ نُفاةُ القِياس به فقالوا: إما أن يكونَ المرادُ منه: وما اختلفتم فيه من شيء فحُكمه مستفادٌ من نصِّ الله تعالى، أو من القياس على ما نصَّ سبحانه عليه، والثاني باطل؛ لأنه يقتضي أن تكون كلُّ الأحكام مبنيةً على القياس، فتعيَّن الأول، ولِقائل أن يقولَ: لم لا يجوز أنْ يكونَ المرادُ: فحكمه معروفٌ من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيانُ بالنصّ أو بالقياس؟ وأُجيب عنه بأنَّ المقصودَ من التحاكم إلى الله تعالى قَطْعُ الاختلاف؛

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤.
(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾، والرجوعُ إلى القياس مما يُقوِّي الاختلاف، فوجب الرجوعُ إلى النصوص. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ النصوصَ غيرُ كافيةٍ في جميع الأحكام، وأن الآيةَ على ما سمعتَ أولاً مما لا يكادُ يصِحُّ الاستدلالُ بها على هذا المطلبِ من أول الأمر.

وفي «الكشاف»: لا يجوز حملُ الاختلاف فيها على اختلافِ المجتهدين في أحكام الشريعة؛ لأن الاجتهادَ لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ[١].

ولا يخفى عليك أن هذه المسألة مُختلَفٌ فيها، فقال الأكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلاً، ومنهم من أحاله. ثم المُجوِّزون منهم مَن مَنَعَ وقوعَ التعبُّد به، وهو مذهب أبي علي وابنه أبي هاشم[٢]، وإليه ذهب صاحب «الكشاف»، وذِكْر ما يخالفه نقلٌ لمذهب الغير، وإنْ لم يُعقِّبه بردّ كما هو عادتُه في الأكثر، ومنهم من ادَّعى الوقوعَ ظنّاً، ومنهم مَن جَزَمَ بالوقوع، وقيل: إنه الأصح عند الأصوليين، ومنهم من توقَّف، والبحثُ فيها مستوفًى في أصول الفقه.

والذي نقوله هنا: إن الاستدلالَ بالآية على مَنْعه لا يكاد يَتِمُّ، وأقلُّ ما يقال فيه: إنه استدلالٌ بما فيه احتمال.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخر لـ «ذلكم»، أوخبر لمبتدأ محذوف، أي: هو فاطرُ، أوصفةٌ لـ «ربِّي»، أوبدلٌ منه، أومبتدأ خبره ﴿جَعَلَ لَكُم﴾.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير «إليه» أو«عليه»[٣]، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: «إلى الله» وما بينهما جملةٌ معترضة بين الصِّفة والموصوف.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(٢) أبو علي: هو محمد بن عبد الوهاب البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، منها كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب التفسير الكبير. مات سنة (٣٠٣هـ). وابنه أبو هاشم ـ واسمه عبد السلام ـ من كبار الأذكياء، أخذ عن والده، له كتاب الجامع الكبير. مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٤/ ١٨٣ و١٥/ ٦٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

وقد تقدَّم معنى «فاطر». و«جعل» أي: خلق ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً كما خلقَ لكم من أنفسكم أزواجاً، ففيه جملةٌ مُقدَّرة لدلالة القرينة، أو: وخلقَ لكم من الأنعام أصنافاً، أو ذكوراً وإناثاً.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يُكثِّركم؛ يقال: ذرأ اللهُ تعالى الخَلْقَ: بَثَّهم وكَثَّرهم، والذرء والذَّرُّ أخوان ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذُكر من التدبير، وهو أنْ جعلَ سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالدٌ، وجعل التكثُّر في هذا الجَعْل لوقوعه في خلاله وأثنائه، فهو كالمنبع له. ويجوز أن تكون «في» للسببية.

وغُلِّب في «يذرؤكم» المُخاطَبون العُقَلاء على الغُيَّبِ مما لا يعقل، فهناك تغليبٌ واحدٌ اشتمل على جهتي تغليب، وذلك لأنَّ الأنعامَ غائبٌ غيرُ عاقل، فإذا أُدخلت في خطاب العُقَلاء كان فيه تغليبُ العقل والخطاب معاً، وهذا التغليب ـ أعني التغليبَ لأجل الخطابِ والعقل ـ من الأحكام ذاتِ العلَّتين، وهما هنا الخطابُ والعقل، وهذا هو الذي عناه جارُ الله[1]، وهو مما لا بأسَ فيه؛ لأن العلَّةَ ليست حقيقةً.

وزَعْمُ ابن المُنَيِّر[2] أن الصحيحَ أنهما حُكمان مُتباينان غير مُتداخِلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العُقَلاء أعمّ من كونه مُخاطباً أوغائباً، والثاني: مجيئه بعد ذلك على نَعْت الخطاب، فالأول لِتغليبِ العقل، والثاني لِتغليب الخِطاب = ليس بشيء، ولا يُحتاج إليه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢، وقول الزمخشري هو: والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلَّباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيَّب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين.

(٢) في الانتصاف ٣/ ٤٦٢.

وكلامُ صاحب «المفتاح» يحتمل اعتبار تغليبين: أحدهما: تغليب المُخاطبين على الغُيَّب، وثانيهما: تغليبُ العُقَلاء على ما لا يَعقل[1].

وقال الطيبي: إن المقامَ يأبى ذلك؛ لأنه يُؤدِّي إلى أنَّ الأصل: يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكنّ ويذرؤها، لكن الأصل: يذرؤكم ويذرؤها لا غير؛ لأنَّ «كُم» في «يذرؤكم» هو «كُم» في «جعلَ لكم مِنْ أنفسكم أَزواجاً» بعينه، لكن غُلِّب هاهنا على الغُيَّب، فليس في يذرؤكم إلا تغليبٌ واحد. انتهى.

ثم إنه لا ينبغي أن يقال: إنَّ التذرئة حكمٌ عُلِّل في الآية بعلَّتين، إحداهما: جَعْلُ الناس أزواجاً، والثانية: جعل الأنعام أزواجاً، ويجوز أن يكون هو الذي عناه جارُ الله؛ لأن الحُكمَ هو البثُّ المطلق، وعلَّته المجموع، وإن جُعِلَ كلُّ جزء منه علةً فكلُّ بَثٍّ حكمٌ أيضاً، فأين الحكمُ الواحد المُتعدِّد عِلَّته؟ فافهم.

وعن ابن عباس أن معنى «يذرؤكم فيه»: يجعل لكم فيه معيشةً تعيشون بها[2]. وقريبٌ منه قولُ ابن زيد: يرزقُكم فيه. والظاهر عليه أن الضميرَ لجَعْل الأزواج من الأنعام.

وقال مجاهد: أي: يخلقُكم نسلاً بعد نَسْل، وقَرْناً بعد قَرْن، ويتبادرُ منه أن الضميرَ للجَعْل المفهوم من «جعلَ لكم من أنفسكم أزواجاً» ويجوز أن يكون كما في الوجه الأول، ويُفهم منه أنَّ الذَّرْءَ أخصُّ من الخَلْق، وبه صرَّح ابنُ عطية[3]، قال: ولفظةُ ذرأ تزيدُ على لفظة خَلَق معنًى آخرَ ليس في خَلَق، وهو توالي الطَّبقات على مرِّ الزمان.

وقال القتبي[4]: ضمير «فيه» للبطن، لأنه في حُكم المذكور، والمرادُ: يخلقكم في بطون الإناث. وفي روايةٍ عن ابن زيد أنه لِمَا خلق من السماوات والأرض، وهو كما ترى، ومثلُه ما قبلَه، والله تعالى أعلم.

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٤٢-٢٤٣.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٤٧٦.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/٢٨.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١، وينظر تفسير القرطبي ١٨/٤٤٩.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفي للمشابهة من كلِّ وجه، ويدخل في ذلك نفيُ أن يكونَ مثلَه سبحانه شيءٌ يُزاوجه عز وجل، وهو وجهُ ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها، أوالمرادُ: ليس مِثْلَه تعالى شيءٌ في الشؤون التي من جُملتها التدبيرُ البديع السابق، فترتبطُ بما قبلها أيضاً.

والمرادُ من «مثله»: ذاتُه تعالى، فلا فرقَ بين: ليس كذاتِهِ شيء، و: ليس كمثله شيء، في المعنى، إلا أن الثاني كنايةٌ مشتملة على مُبالغة، وهي أن المُماثلة مَنْفيةٌ عمن يكون مثلَه وعلى صفته، فكيف عن نَفْسه؟ وهذا لا يستلزم وجودَ المِثْل، إذ الفرضُ كافٍ في المبالغة، ومثل هذا شائعٌ في كلام العرب نحو قول أَوْس بن حَجَر:

ليس كمثلِ الفتى زهيرٍ خلقٌ يُوازيه في الفضائل[(١)]

وقول الآخر:

وقَتْلى كمثلِ جذوع النخيلِ تَغَشَّاهم مُسْبِلٌ مُنْهمر[(٢)]

وقول الآخر:

سعد بن زيد إذا أبصرتَ فَضْلَهُمُ ما إن كمِثْلهمُ في الناس من أحد[(٣)]

وقد ذكر ابنُ قتيبة[(٤)] وغيره أنَّ العرب تُقيم المِثْل مقامَ النَّفس، فتقول: مِثْلُك لا يَبْخَل، وهي تُريد: أنت لا تَبْخَل، أي: على سبيل الكناية، وقد سمعتَ فائدتها. وفي «الكشف» أنها الدلالة على فَضْل إثباتٍ لذلك الحُكم المطلوب وتمكينه، وذلك لوجهين؛ أحدهما: أنه فرضٌ جامعٌ يقتضي ذلك، فإذا قلتَ: مثلُك لا يبخل، دلَّ على أنَّ مُوجب عدم البخل موجودٌ، بخلافه إذا قلت: أنت لا تبخل. والثاني: أنه إذا جُعل من جماعةٍ لا يبخلون يكون أدلَّ على عدم البخل لأنه جعل معدوداً من

(١) ليس في ديوانه، وأورده أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٢) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٣٠، والبحر ٧/ ٥١٠.
(٣) لم نهتد إلى قائله، وهو في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١.

جُملتهم، ومن ذلك قولهم: قد أَيفعت لِداته، أي: أترابُه وأمثالُه في السِّن، وقولُ رُقَيْقة بنت أبي صَيْفي بن هاشم في سُقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطَّيِّبُ الطاهر لِداته، تعني رسولَ الله ﷺ، إلى غير ذلك.

وقيل: إنَّ مِثْلاً بمعنى الصِّفة وشيئاً عبارة عنها أيضاً، حكاه الراغب(١)، ثم قال: والمعنى: ليس كصفته تعالى صفةٌ؛ تنبيهاً على أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصِّفاتُ له عز وجل حسبَ ما يُستعمل في البشر.

وذهب الطبري وغيره إلى أنَّ مِثْلاً زائدةٌ للتأكيدِ(٢)، كالكاف في قوله:

بالأمس كانوا في رخاء مأمولْ ... فأصبحت مثلَ كَعصفٍ مأكولْ(٣)

وقول آخر:

أَهَلْ عرفتَ الدار بالغَرِيَّيْنْ ... وصالياتٍ كَكما يُؤَثْفَيْنْ(٤)

وتعقَّبه أبو حيان(٥) بأنه ليس بجيد؛ لأنَّ مِثْلاً اسمٌ، والأسماء لا تُزاد، بخلاف الكاف، فإنها حرفٌ فتصلح للزيادة.

ونُسب إلى الزجاج(٦) وابن جني والأكثرين القولُ بأنَّ الكافَ زائدةٌ للتأكيد،

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٦-٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٥١٠.

(٣) لم نقف على البيت الأول، والبيت الثاني لرؤبة، وهو في ملحق ديوانه ص١٨١ بلفظ: فصُيِّروا مثل. . .، وسلف ١/ ٤٦٠.

(٤) الرجز لخطام المجاشعي، وهو في اللسان (غرا) كما يلي:

أَهَلْ عرفتَ الدار بالغَرِيَّيْنْ ... لم يبق من آيٍ بها يُحلَّيْنْ

غير خطامٍ ورمادٍ كِنْفَيْنْ ... وصالياتٍ ككما يُؤَثْفَيْنْ

والثاني في الكتاب ١/ ٣٢، والخزانة ٢/ ٣١٣. والغَرِيَّان قال ابن بري كما في اللسان (غرا): هما بناءان طويلان سُمِّيا بالغريين لأن النعمان بن المنذر كان يُغرِّيهما بدم من يقتله في يوم بؤسه.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥.

وردَّه ابنُ المُنَيِّر(١) بأنَّ الكاف تُفيد تأكيدَ التشبيه لا تأكيدَ النفي، ونفيُ المُماثلة المهملة أبلغُ من نَفْي المُماثلة المؤكَّدة، فليست الآيةُ نظيرَ شَطْري البيتين. ويقال نحوُه فيما نُقل عن الطبري ومن معه.

وأُجيب: بأنه يُفيد تأكيدَ التشبيه إنْ سلباً فسلب وإنْ إثباتاً فإثبات، فيندفع ما أُورد. نعم الأول هو الوجه، والمِثْل قال الراغب: أعمُّ الألفاظِ الموضوعة للمشابهة وذاك أنَّ النِّدَّ يقال لما يُشارِك في الجوهر فقط، والشِّبه لما يُشارِك في الكَيْفية فقط، والمُساوي لما يُشارِك في الكمية فقط، والشَّكل لما يُشارِك في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْل عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمَّا أراد اللهُ تعالى نفيَ الشِّبه من كلِّ وجه خصَّه سبحانه بالذِّكر(٢).

وذكر الإمام الرازي(٣) أن المِثْلين عند المُتكلِّمين هما اللذان يقوم كلٌّ منهما مقامَ الآخر في حقيقته وماهيته، وحَمَل المِثْل في الآية على ذلك، أي: لا يُساوي اللهَ تعالى في حقيقة الذاتِ شيءٌ، وقال: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأن العباد يُوصفون بكونهم عالِمين قادِرين، كما أنَّ اللهَ تعالى يُوصف بذلك، وكذا يوصفون بكونهم معلومِين مذكورين مع أنَّ اللهَ تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلامَ في هذا المقام، وفي القلبِ منه شيء.

وفي «شرح جوهرة التوحيد»: اعلَمْ أن قُدَماء المعتزلة كالجُبَّائي وابنه أبي هاشم ذهبوا إلى أن المُماثلة هي المُشاركة في أخصِّ صفاتِ النفس، فمماثلةُ زيدٍ لعمرو مَثَلاً عندهم مشاركتُه إيَّاه في الناطقية فقط، وذهب المُحقِّقون من الماتُريدية إلى أن المُماثلة هي الاشتراكُ في الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو. ومِن لازمِ الاشتراكِ في الصفة النفسية أمران؛ أحدُهما: الاشتراكُ فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما: أنْ يسدَّ كلٌّ منهما مَسَدَّ الآخر. والمُتماثلان وإن اشتركا في الصفات النفسية لكن لابدَّ من اختلافهما بجهة أُخرى ليتحقَّق

(١) في الانتصاف ٣/ ٤٦٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.

(٣) في تفسيره ٢٧/ ١٥٠.

التعدُّد والتمايز فيصح التماثُل. ونُسب إلى الأشعري أنه يشترط في التماثل التساوي من كلٍّ وجه.

واعتُرض بأنه لا تعدُّد حينئذ فلا تماثل، وبأنَّ أهلَ اللغة مُطبقون على صحة قولنا: زيدٌ مِثْلُ عمرو في الفقه، إذا كان يُساويه فيه ويسدُّ مَسَدَّه وإن اختلف في كثير من الأوصاف، وفي الحديث: «الحِنطةُ بالحِنطة مِثْلاً بمثْل»[1] وأُريد به الاستواء في الكيل دون الوزنِ وعَدَدِ الحبَّات وأوصافها. ويُمكن أن يُجابَ بأنَّ مُرادَه التساوي في الوجه الذي به التماثُل حتى إن زيداً وعمراً لو اشتركا في الفقه وكان بينهما مساواةٌ فيه بحيث ينوبُ أحدُهما مَنابَ الآخر صحَّ القولُ بأنهما مِثْلان فيه وإلا فلا، فلا يُخالِفُ مذهبَ الماتُريدية. وفيه أيضاً أنه عز وجل ليس له سبحانه مُماثِلٌ في ذاته وصفاته فلا يسدُّ مَسَدَّ ذاته تعالى ذاتٌ، ولا مَسَدَّ صفته ـ جَلَّتْ صِفَتُه ـ صفةٌ، والمرادُ بالصفة الصفةُ الحقيقية الوجودية، ومن هنا تَعلم ما في قولِ الإمام: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأنَّ العباد يُوصفون بكونهم عالمين قادِرين، كما أن الله سبحانه يُوصف بذلك. فإنَّ معنى ذلك أنه تعالى ليس مِثْل صفتِهِ سبحانه صفة، ومن المعلوم البيِّن أنَّ علمَ العِباد وقُدرتهم ليسا مِثْلَ علم الله عز وجل وقُدرته جل وعلا، أي: ليسا سادَّين مَسَدَّهما، وأما كونه تعالى مذكوراً ونحوه فهو ليس من الصِّفات المُعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى.

وزعم جهمُ بن صفوان أن المقصودَ من هذه الآية بيانُ أنه تعالى ليس مسمَّى باسم الشيء؛ لأن كلَّ شيء فإنه يكون مِثْلاً لمثْلِ نَفْسه، فقوله تعالى: «ليس كمثله شيء» معناه ليس مِثْل مِثْلِهِ شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو سبحانه مسمًّى باسم الشيء[2]. فلم يجعل المِثْل كنايةً عن الذات على ما سمعتَ، ولا حَكَم بزيادته، ولا بزيادة الكاف، ومع هذا وإغماضِ العين عما في كلامه لا يَتِمُّ له مقصودُه، إذْ لنا أن نجعلَ ليس مِثْل مِثْله شيء نفياً للمِثْل على سبيل الكناية أيضاً لكن بوجه آخرَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٧١)، ومسلم (١٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري (٢١٧٤)، ومسلم (١٥٨٤) من حديث عمر ﷺ بلفظ: «... البُرُّ بالبُرِّ...».

(٢) ذكر قول جهم الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٥٣.

وهو أنه نفيٌ للشيء بنفي لازمِهِ؛ لأن نفيَ اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم، كما يقال: ليس لأخي زيدٍ أخٌ؛ فأخو زيد ملزومٌ، والأخُ لازمُه؛ لأنه لابدَّ لأخي زيد من أخٍ هو زيدٌ، فنفيت هذا اللازمَ والمرادُ نفيُ ملزومه، أي: ليس لزيد أخٌ، إذْ لو كان له أخٌ لكان لذلك الأخ أخٌ هو زيدٌ، فكذا نفيتَ أن يكونَ لِمِثْل الله تعالى مِثْلٌ والمرادُ نفي مِثْله سبحانه وتعالى؛ إذْ لو كان له مِثْلٌ لكان هو مِثْلَ مِثْلِهِ، إذ التقدير أنه موجودٌ، ومغايرتُه لما تقدَّم أنَّ مَبناهُ إثباتُ اللزوم بين وجود المِثْل ووجودِ مِثْل المِثْل ليكون نفيُ اللازم كنايةً عن نفي الملزوم من غير ملاحظةٍ والتفاتٍ إلى أنَّ حُكم الأمثالِ واحدٌ، وأنه يجري في النفي دون الإثبات، فإن نفي اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم دون العكس، بخلاف ما تقدَّم، فإنَّ مَبناه أنَّ حُكمَ المُتماثلين واحد وإلا لم يكونا مُتماثلين، ولا يُحتاج إلى إثبات اللزوم بين وجود المِثْل ومِثْل المِثْل، وأنه يجري في النفي والإثبات كما سمعتَ من الأمثلة، وليس ذاك من المذهب الكلامي في شيء؛ أما أولاً: فلأنه إيرادُ الحُجَّة، وليس في الآية إشعارٌ بها فضلاً عن الإيراد. وأما ثانياً: فلأنه حينئذ تكون الحُجَّةُ قياساً استثنائيّاً استثني فيه نقيضُ التالي هكذا: لو كان له سبحانه مِثْل لكان هو جل شأنه مِثْلَ مِثْلِهِ، لكنه ليس مِثْلاً لمثلِهِ، فلا بدَّ من بيان بطلانِ التالي حتى تَتِمَّ الحُجَّة، إذ ليس بيِّناً بنفسه، بل وجودُ المِثْل ووجودُ مِثْل المِثْل في مرتبةٍ واحدة في العلم والجهل، لا يجوزُ جَعْلُ أحدِهما دليلاً على الآخر، لكن قيل: إنَّ المفهومَ من: ليس مِثْلَ مِثْلِه شيء، على ذلك التقدير، نفيُ أن يكون مِثْلٌ لمثله سواه تعالى بقرينة الإضافة، كما أنَّ المفهومَ من قول المُتكلِّم: إنْ دخل داري أحدٌ فكذا، غيرُ المُتكلِّم، وأيضاً لا نُسلِّم أنه لو وُجِدَ له سبحانه مِثْلٌ لكان هو جلَّ وعلا مِثْلَ مِثْله؛ لأن وجودَ مِثْله سبحانه مُحال، والمُحال جاز أنْ يستلزم المُحال.

وأُجيب عن الأول: أن اسمَ «ليس»: «شيءٌ»، وهو نكرةٌ في سِياق النفي، فتعمُّ الآيةُ نفيَ شيء يكون مِثْلاً لمثله، ولا شكَّ أنه على تقدير وجودِ المِثْل يَصْدُقُ عليه أنه شيءٌ مِثْلٌ لمثله، والإضافةُ لا تقتضي خروجَه عن عموم شيء بخلاف المِثال المذكور، فإنَّ القرينَة العقلية دلَّت على تخصيص أحدٍ بغير المتكلِّم؛ لأن مقصودَه المنعُ عن دخول الغير.

وعن الثاني: أن وجودَ المِثْل لشيء مطلقاً يستلزمُ المِثْلَ مع قَطْع النظر عن خصوصية ذلك الشيء، وذلك بيِّنٌ، فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مِثْلٌ ولا يكون هو سبحانه مِثْلاً لمثله مُكابرةٌ.

ثم إنَّ هذا الوجه لِكَثْرة ما فيه من القِيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذِكْرها، وهو على عِلَّاته أحسنُ من القول بالزيادة كما لا يخفى على مَن وفَّقه الله عز وجل.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لا على طريق التخيُّل والتوهُّم لجميع المَسموعات، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة، ولا وصولِ هواء ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لجميع المُبْصَرات أوالموجودات لا على سبيل التخيُّل والتوهُّم، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة ولا وصولِ شُعاع، فالسمعُ والبصر صِفتان غيرُ العلم على ما هو الظاهر، وأَرجَعَهما بعضُهم إلى صفة العلم، وتمامُ الكلامِ على ذلك في الكلام.

وقدَّم سبحانه نفيَ المِثْل على إثبات السَّمع والبصر؛ لأنه أهمُّ في نفسه وبالنظر إلى المُقام.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم تفسيره في سورة «الزمر»(١)، وكذا قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وقرئ: «يُقدِّر» بالتشديد(٢).

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ مبالغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يفعل جل شأنه على ما ينبغي أن يُفعل عليه، والجملة تعليلٌ لما قبلها وتمهيدٌ لما بعدَها من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وإيذانٌ بأنَّ ما شرع سبحانه لهم صادرٌ عن كَمال العلم والحِكمة، كما أن بيانَ نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيهٌ على كونه ديناً قديماً أَجمع عليه الرُّسل.

---

(١) عند تفسير الآية (٦٣).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٣.

والخِطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي: شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ومَن بعده من أرباب الشرائع وأُولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأَمَرهم به أمراً مُؤكَّدا. وتخصيصُ المذكورين بالذِّكر لما أُشير إليه من عُلوِّ شأنهم، وعِظَم شُهرتهم، ولاستمالةِ قلوب الكَفَرة إلى الاتّباع، لاتِّفاق كلٍّ على نبوة بعضهم، واختصاصِ اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فما من نبيٍّ إلا وهو مأمورٌ بما أُمروا به من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدُّل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما يُنبئ عنه التوصية، فإنها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به.

والمرادُ بإيحائه إليه ﷺ إما ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) الآية، وإما ما يَعمُّهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جُملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك.

وإيثار الإيحاء على ما قبلَه وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِمَا في الإيحاء من التصريحِ برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكَفَرة.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمالِ الاعتناء بإيحائه، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ شريعتَه ﷺ هي الشريعةُ المُعتنَى بها غايةَ الاعتناء، ولذا عبَّر فيها بـ «الذي» التي هي أصلُ الموصولات، وذلك هو السرُّ في تقديم الذي أُوحي إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعدَه مع تقدُّمه عليه زماناً.

وتقديم توصيةِ نوح عليه السلام لِلمُسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام أولُ الرُّسل. وتوجيهُ الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شَرعه لهم على لسانه ﷺ.

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيدُ الله تعالى وطاعته والإيمان بكتُبه ورُسُله، وبيوم الجزاء وسائرِ ما يكون العبدُ به مؤمناً. والمرادُ بإقامته تعديلُ أركانه وحِفْظُه من أنَ يقعَ فيه زيغٌ، والمواظبةُ عليه.

و«أنْ» مصدرية، وتقدَّم الكلامُ في وَصْلها بالأمر والنهي، أومُخفَّفة من الثقيلة لِمَا في «شرع» من معنى العلم، والمصدر إما منصوبٌ على أنه بدلٌ من مفعول «شرع» والمعطوفين عليه، أومرفوع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أومبتدأ خبره محذوف، والجملةُ جوابٌ عن سؤال نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أنْ أقيموا الدين.

وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير «به»، ولا يلزمه بقاءُ الموصول بلا عائد؛ لأنَّ المُبدَلَ منه ليس في نية الطَّرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام[1]: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيِّز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزمٌ لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرُّق للأنبياء المذكورين عليهم السلام، وتوجيهُ النهي إلى أُممهم تمحُّلٌ ظاهرٌ مع أنَّ الأظهرَ أنه متوجِّه إلى أُمَّته ﷺ، وأنهم المُتفرِّقون. ثم بيَّن ما استظهره، وسَنُشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوّز كونه بدلاً من «الدين».

ويجوز كون «أنْ» مُفسِّرة، فقد تقدَّمها ما يتضمَّن معنى القول دون حُروفه.

والخطابُ في «أقيموا» وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ على ما اختاره غيرُ واحد من الأجِلَّة شاملٌ للنبي ﷺ وأتباعه وللأنبياء والأُمم قَبْلَهم، وضميرُ «فيه» للدِّين، أي: ولا تتفرَّقوا في الدين الذي هو عبارةٌ عما تقدَّم من الأُصول بأنْ يأتي به بعضٌ ولا يأتي بعضٌ، ويأتي بعضٌ ببعض منه دون بعض، وهو مُرادُ مقاتل، أي: لا تختلفوا فيه، ولا يشملُ هذا النهيَ عن الاختلاف في الفروع، فإنها ليست من الأُصول المُرادة هنا، ولم يَتَّحِدْ بها النبيون كما يُؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٦.

﴿جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة:٤٨] وبعضُهم أدخلَ بعضَ الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يُبعث نبيٌّ إلا أُمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامةُ الدين.

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدمَ عليه السلام إلا بنوه، ولم يُفرضْ له الفرائض، ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان مُنبّهاً على بعض الأمور، مُقتصراً على بعض ضروريات المَعاش، واستمرَّ الأمر إلى نوح عليه السلام، فبعثه الله تعالى بتحريم الأُمهات والبنات، ووظَّف عليه الواجبات، وأوضحَ له الأدبَ في الديانات، ولم يَزَلْ ذلك يتأكّد بالرُّسل، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعدَ واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمه سبحانه بخير المِلل على لسان أكرمِ الرُّسل، فمعنى الآية: شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرُّب بصالح الأعمال، والصِّدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكِبْر والزِّنا، والإيذاءِ للخَلْق، والاعتداءِ على الحيوان، واقتحام الدَّناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كلُّه مشروعٌ ديناً واحداً، وملَّة متَّحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفَتْ أعدادُهم. ومعنى «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»: اجعلوه قائماً، أي: دائماً مستمرّاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب[(1)]. انتهى.

ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحجِّ مُطلَقَها لا ما نعرفه في شرعنا منها، فإن الصلواتِ الخمسَ والزكاةَ المخصوصةَ وصيامَ شهر رمضان من خواصِّ هذه الأُمّة على الصحيح، والظاهرُ أن حَجَّ البيت لم يُشرَعْ لأُمة موسى وأُمةِ عيسى عليهما السلام، ولا لأكثر الأُمم قبلَهما، على أنَّ الآيةَ مكيةٌ، ولم تُشرع الزكاةُ المعروفة وصيامُ رمضان إلا في المدينة، وبالجملة لا شكَّ في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعدُ اتفاقُها فيما هو من مكارم الأخلاق واجتنابِ الرَّذائل.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٤.

﴿كَبُرَ﴾ أي: عَظُم وشقَّ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجدُّدي من التوحيد ورفضِ عبادة الأصنام، ويشعرُ بإرادته التعبير بالمشركين، وهو أصلُ الأصول وأعظمُ ما شقَّ عليهم كما تُنبئ بذلك الآيات، أو: ما تدعوهم إليه من إقامةِ الدين وعدمِ التفرُّق فيه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تسليةٌ له ﷺ بأنَّ منهم مَن يُجيب، و«يجتبي» من الاجتباء بمعنى الاصطفاء، والضميرُ في «إليه» لله تعالى كما ذكر مُحيي السنة[(١)] وغيرُه، وكذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ أي: يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاءه، ويُخصِّصه سبحانه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعُ النِّعم، ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يُقبل إليه تعالى شأنه، وعُدِّي الاجتباءُ بإلى لِمَا فيه من الجمع على ما يُفهم من كلامِ الراغب[(٢)]، وجَعَله جمعٌ من الجِباية بمعنى الجمع يقال: جبيتُ الماءَ في الحوض: جمعته فيه، فمنهم مَن اختار جَعْلَ ضمير «إليه» في الموضعين لـ «ما»؛ لِمَا فيه من اتِّساق الضمائر، أي: يجتلب ويجمع مَن يشاء اجتلابَه وجَمْعَه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم مَن اختار جَعْله للدِّين لمناسبةٍ معنوية هي اتِّحادُ المُتفرِّق فيه والمُجتمع عليه.

والزمخشري[(٣)] اختار كونَه من الجباية بمعنى الجَمْع، وعودَ الضمير على الدِّين، وما ذكره مُحيي السنة وغيره؛ قال في «الكشف»: أظهرُ وأملأُ بالفائدة، أما الثاني: فللدلالةِ على أنَّ أهلَ الاجتباء غير أهل الاهتداء، وكلتا الطائفتين هم أهلُ الدِّين والتوحيد الذين لم يتفرَّقوا فيه، وعلى مُختاره طائفة واحدة. وأما الأول: فلأنَّ الاجتباءَ بمعنى الاصطفاء أكثرُ استعمالاً، ولأنه يدلُّ على أنَّ أهلَ الدِّين هم صفوةُ الله تعالى اجتباهم إليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلامٌ ظاهري بناه على أنَّ الكلامَ في عدمِ التفرُّق في الدين، فناسبَ الجمعَ، والانتهاءَ إليه.

(١) هو البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٢.
(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (جبي).
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٤.

وقيل: «ما تدعوهم إليه» على معنى: ما تدعوهم إلى الإيمان به، والمرادُ به الرسالة، أي: ثَقُلَتْ عليهم رسالتك، وعَظُم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم، وقولُه تعالى: «اللهُ يجتبي إليه من يشاء» ردٌّ عليهم على نحو ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وما قدَّمنا أظهرُ.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ - أي: أُمم الأنبياء بعد وفاةِ أنبيائهم كما في «الكشف» منذ بَعْثِ نوح عليه السلام - في الدِّين الذي دُعوا إليه، واختلفوا فيه في وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ من أنبيائهم بأنَّ الفرقةَ ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه؛ وهذا يُؤيِّد ما دلَّ عليه سابقاً من أن الأُمم القديمة والحديثة أُمروا باتّفاق الكلمةِ وإقامة الدِّين، والمرادُ بالعلم سببه مجازاً مُرسلاً، ويجوز أن يكون التجوُّز في الإسناد، وأن يكونَ الكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: جاءهم سببُ العلم، وقد يقال: «جاء» مجازٌ عن حصل. والاستثناءُ على ما أشرنا إليه مُفرَّغ من أعمِّ الأوقات، وجوِّز أن يكونَ من أعمِّ الأحوال، أي: ما تفرَّقوا في حال من الأحوال إلا حالَ مجيء العلم.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: عداوةً، على أنَّ البغيَ الظُّلمُ والتجاوز، والعداوةُ سببٌ له، وهي الداعي للتفرُّق، أوطلباً للدنيا والرِّياسة على أنَّ البغي مصدر بغى بمعنى طَلَب.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ هي عِدَتُه تعالى بترك مُعاجلتهم بالعذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ معلومٍ له سبحانه، وهو يومُ القيامة، أو آخر أعمارهم المُقدَّرة لهم ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لِعِظَم ما اقترفوا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم أهلُ الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ، وقرأ زيدُ بن علي: «وُرِّثوا» مبنيّاً للمفعول مُشدَّدَ الواو[1].

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ أي: من كتابهم، فلم يُؤمنوا به حقَّ الإيمان ﴿مُرِيبٖ ١٤﴾ مُقْلِق، أومُدخِل في الرِّيبة.

والجملةُ اعتراضٌ يُؤكِّد أن تفرُّقهم ذلك باقٍ في أعقابهم، منضمّاً إليه الشكُّ في

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

كتابهم مع انتسابهم إليه، فهم تفرَّقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم، المُصدِّق لكتابهم، وتفرَّقوا قبلَه شكّاً في كتابهم، فلم يُؤمنوا به، ولم يُصدِّقوا حقَّه.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كما ذكر، فلأَجْل ذلك التفرُّق، ولِمَا حَدَث بسببه من تَشعُّب الكُفْر في الأُمم السالفة شُعباً ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الائتلاف والاتِّفاق على المِلَّة الحنيفية القديمة ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: اثبتْ على الدُّعاء كما أُوحي إليك.

وقيل: الإشارةُ إلى قوله تعالى: «شرع لكم» وما يتَّصل به، ونُقِل عن الواحدي[١]، أي: ولأَجْل ذلك من التوصيةِ التي شُورِكْتَ فيها مع نوح ومَن بعدَه، ولأَجْل ذلك الأمر بالإقامة، والنهي عن التفرُّق، فادعُ.

وما ذُكر أولاً أولى؛ لأن قولَه تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ شَمِلَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأتباعَه كما سمعت، ويدلُّ عليه «كَبُرَ على المُشركين ما تَدْعوهم إليه»، فقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ إلخ لا يتسبَّب عنه؛ لِمَا يظهر من التكرار، وهو تفرُّع الأمرِ عن الأمر، وأما تسبُّبه عن تفرُّقهم فظاهرٌ على معنى: فلِما أحدَثوا من التفرُّق وأَبدعوا فاثْبُتْ أنت على الدعاء الذي أُمرت به، واستقِمْ، وهذا ظاهرٌ للمتأمِّل.

ومن الناس مَن جعل المُشارَ إليه الشرع السابق، ولم يُدخل فيه الأمرَ بالإقامة لئلا يلزمَ التكرار، أي: فلأَجْل أنه شرعَ لهم الدِّين القويم القديم الحقيقَ بأنْ يتنافسَ فيه المتنافسون فادْعُ، وقيل: هو الكتاب. وقيل: هو العلم المذكور في قوله تعالى: «جاءهم العلم». وقيل: هو الشكُّ، ورُجِّح بالقُرب، وليس بذاك.

واللامُ على جميع الأقوال المذكورة للتعليل، وقيل - على بعضها -: هي بمعنى «إلى» صلةُ الدُّعاء، فما بعدَها هو المَدْعوُّ إليه. وأنت تعلم أنه لا حاجةَ في إرادة ذلك إلى جَعْلها بمعنى إلى، فإنَ الدعاءَ يتعدَّى بها أيضاً كما في قوله:

(١) ينظر الوسيط ٤/ ٤٧.

دَعــوتُ لِـمَـا نـابَـنـي مِـسْـوراً[1]

ونُقل ذلك عن الفراء[2] والزجاج[3]، وأيّاً ما كان فالفاءُ الأُولى واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر كما أشرنا إليه، والفاء الثانية مُؤَكِّدةٌ للأُولى.

وقيل: كان الناسُ بعد الطُّوفان أمةً واحدة مُوَحِّدين، فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعثَ اللهُ تعالى النبيِّين مُبشِّرين ومُنذرين، وجعل ضمير «تفرَّقوا» لأَخلاف أولئك المُوحِّدين و«الذين أورثوا الكتاب» باقٍ على ما تقدَّم. والأولُ أظهر.

وقيل: ضمير «تفرَّقوا» لأهل الكتاب، تفرَّقوا من بعد ما جاءهم العلم بمبعثِ النبيِّ ﷺ، فهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] وإنما تفرَّقوا حسداً له عليه الصلاة والسلام، لا لِشُبهة، والمرادُ بـ «الذين أُورثوا الكتابَ من بعدهم» مُشركو مكةَ وأحزابهم؛ لأنهم أُورثوا القرآنَ، فالكتابُ القرآنُ، وضميرُ «منه» له، وقيل: للرسول، وهو خِلافُ الظاهر.

واختار كونَ المُتفرِّقين أهلَ الكتاب اليهود والنصارى، والمُورَّثين الشاكِّين مُشركي مكة وأحزابهم شيخُ الإسلام، واستظهر أنَّ الخطابَ في «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» لأمته ﷺ، وتعقَّب القولَ بكون المتفرِّق كلَّ أمة بعد نبيِّها، والقولَ بكونه أخلافَ المُوحِّدين الذين كانوا بعد الطُّوفان، فقال: يردُّ ذلك قولُه تعالى: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ) فإنَّ مشاهيرَ الأُمم المذكورة قد أصابهم عذابُ الاستئصال من غير إنظار وإمهال، على أنَّ مَساقَ النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأُمة، وإنما ذُكِر مَن ذُكِرَ من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنَّ ما شُرع لهؤلاء دينٌ قديم أَجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً

(١) كتاب سيبويه ١/ ٣٥٢، والخزانة ٢/ ٩٢، وعجزه: فلبَّى فلبَّيْ يَدَي مسورِ. قال السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠: قائله أعرابي من بني أسد، وقال البغدادي: وهذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٦.

لوجوب إقامته، وتشديداً للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرُّض لبيان تفرُّق أُممهم عنه ربما يُوهم الإخلال بذلك المرام[١]. انتهى.

وأجيب عن الأول: بأنَّ ضميرَ «بينهم» لأولئك الذين تفرَّقوا، وقد علمتَ أنَّ المرادَ بهم المُتفرِّقون بعد وفاة أنبيائهم، وهم لم يُصبهم عذابُ الاستئصال، وإنما أَصاب الذين لم يؤمنوا في عهد أنبيائهم، وإطلاقُ المُتفرِّقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم ريثما افترقوا، ولم يُمهلوا أعواماً. وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم بإهلاك المُبطلين وإثابةِ المُحقِّين إثابتهم في العُقبى. وهو كما ترى.

وعن الثاني: بأنا لا نُسلِّم إيهام التعرُّض لبيان تفرُّق الأُمم الإخلالَ بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعدَ أنْ جاءهم العلم بأنه ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه، وأنه كان بغياً بينهم، ولم يكن لِشُبهةٍ في صحة الدِّين.

وقيل: ضمير «تفرقوا» للمشركين في قوله تعالى: «كبر على المشركين»؛ حكى في «البحر»[٢] عن ابن عباس أنه قال: «وما تفرَّقوا» يعني: قريشاً، و«العِلْم» محمدٌ ﷺ، وكانوا يتمنَّون أن يُبعث إليهم نبيٌّ كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الآية [فاطر: ٤٢]، وقد يقال عليه: المرادُ بالذين أُورثوا الكتاب أهلُ الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ، ومعنى «من بعدهم» ـ على ما قال أبو حيان[٣] ـ: من بعدِ أسلافهم. ونقل الطبرسي[٤] عن السُّدي ما يدلُّ على أنَّ المرادَ: من بعد أحبارهم، وفُسِّر الموصولُ بعوامِّ أهل الكتاب، وقيل: ضمير «بعدِهم» للمشركين أيضاً والبَعْدية رتبية كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

ولا يخفى عليك أنه لا بأس بعود ضمير «تفرَّقوا» للمشركين لو وُجد للذين أُورثوا الكتاب توجيهٌ يقع في حيِّز القَبول، والله تعالى الموفِّق.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧.
(٢) ٧/ ٥١٢.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٤) في مجمع البيان ٢٥/ ٤٣.

وجعلُ متعلَّق «استقم» الدعاءَ لا تخفى مناسبتُه. وجُوِّز جعلُه عامًّا، فيكون «استقم» أمراً بالاستقامة في جميع أُمورِه عليه الصلاة والسلام. والاستقامةُ أن يكونَ على خطٍّ مستقيم. وفسَّرها الراغب بلزوم المَنْهج المستقيم[(١)]. فلا حاجةَ إلى التأويل بالدوام على الاستقامة، أي: دُمْ على الاستقامة.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: شيئاً من أهوائهم الباطلة، على أنَّ الإضافةَ للجنس ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: بجميع الكُتب المُنزَلة؛ لأنَّ «ما» من أدوات العموم، وتنكير «كتاب» المُبيِّن مُؤيِّدٌ لذلك.

وفي هذا القولِ تحقيقٌ للحقِّ، وبيانٌ لاتِّفاق الكتب في الأصول، وتأليفٌ لقلوب أهل الكتابين، وتعريضٌ بهم حيث لم يُؤمنوا بجميعها.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أَمرني اللهُ تعالى بما أَمرني به لأَعْدِلَ بينكم في تبليغ الشرائع والأحكامِ، فلا أَخُصُّ بشيء منها شخصاً دون شخص. وقيل: لِأَعْدِلَ بينكم في الحُكم إذا تخاصمتم. وقيل: بتبليغ الشرائع وفَصْل الخصومة. واختاره غيرُ واحد. وقيل: لِأُسوِّي بيني وبينكم، ولا آمُركُم بما لا أَعلمه، ولا أُخالفكم إلى ما أَنْهاكُم عنه، ولا أُفرِّقُ بين أَصاغِركم وأَكابركم في إجراء حُكم الله عز وجل. فاللامُ للتعليل والمأمورُ به محذوف.

وقيل: اللام مَزيدة، أي: أُمرتُ أنْ أَعْدِلَ، ويُحتاج لتقدير الباء، أي: بأَنْ أَعْدِلَ، ولا يخلو عن بُعد.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُ الكُلّ ومُتولِّي أمرِه، فليس المرادُ خصوصَ المُتكلِّم والمُخاطَب.

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطَّانا جزاؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوزكم آثارُها لِننتفع بحسناتكم ونتضرَّر بسيئاتكم.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا احتجاجَ ولا خُصومة؛ لأنَّ الحقَّ قد ظهر، فلم يبقَ للاحتجاج حاجةٌ ولا للمُخالفة محملٌ سوى المُكابرة والعِناد، وجاءت الحُجَّة

(١) مفردات ألفاظ القرآن (قوم).

هنا على أصلها، فإنها في الأصل مصدرٌ بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب[(١)]، وشاعَتْ بمعنى الدليل، وليس بمراد.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يومَ القيامة ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ فيفصِلُ سبحانه بيننا وبينكم.

وليس في الآية ما يدلُّ على مُتاركة الكُفَّار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية السيف، وادَّعى أبو حيان[(٢)] أنَّ ما يظهرُ منها المُوادعة المنسوخة بتلك الآية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصمون في دينه، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل هَمَّتْ بردِّ الناس عن الإسلام وإضلالهم، فقالوا: كتابُنا قبلَ كتابِكم، ونَبِيُّنا قبلَ نبيِّكم، فدينُنا أفضلُ من دينكم، وفي روايةٍ بدل: فدينُنا.. إلخ: فنحن أولى باللهِ تعالى منكم[(٣)].

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أَظهرنا أو اتْرُكوا الإسلام[(٤)]. والمُحَاجَّة فيه غيرُ ظاهرة، ولعلَّهم مع هذا يذكُرون ما فيه ذلك.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناسُ لله عز وجل، أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له؛ لِظُهور الحُجَّة ووُضوح المَحجَّة، والتعبيرُ عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زائلةٌ باطلةٌ لا تُقبل عنده عز وجل، بل لا حُجَّةَ لهم أصلاً؛ وإنما عبَّر عن أباطيلهم بالحُجَّة ـ وهي الدليل هاهنا ـ مجاراةً معهم على زَعْمهم الباطل.

وجُوِّز كون ضمير «له» للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لكونه في حُكم المذكور، والمُستجيبُ أهلُ الكتب، واستجابتُهم له ﷺ إقرارُهم بِنُعُوته،

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (حجج).
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨٨-٤٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣ بنحوه.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤.

واستفتاحُهم به قبلَ مَبْعثِهِ عليه الصلاة والسلام، فإذا كانوا هم المُحَاجِّين كان الكلامُ في قوة: والذين يُحاجُّون في دين الله من بعدِ ما استجابوا لرسوله وأقرُّوا بِنُعوته حُجَّتُهم في تكذيبه باطلةٌ، لما فيها من نَفْي ما أَقرُّوا به قبلُ وصَدَّقه العِيان.

وقيل: المُستجيب هو اللهُ عز وجل، وضمير «له» لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابتُه تعالى له ﷺ بإظهار المُعجزات الدالَّة على صِدْقه. وإلى نحوه ذهب الجُبَّائي حيث قال: أي: من بعدِ ما استجابَ اللهُ تعالى دعاءه في كُفَّار بدر حتى قَتلَهم بأيدي المؤمنين، ودعاءَه على أهل مكة حتى قحطوا، ودعاءَه للمستضعفين حتى خَلَّصهم اللهُ تعالى من أيدي قريش، وغير ذلك مما يطولُ تَعْدادُه، وبُطلان حُجَّتهم لِظُهور خلافِ ما تقتضيه بِزَعْمهم بذلك.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ هذه الآيةَ مدنيةٌ؛ لأن وقعةَ بدر بعدَ الهجرة، وحملُ «استُجيب» على الوَعْد خلافُ الظاهر جداً، وكذا ما رُوي عن عكرمة[1]. وقيل: إنَّ حملَ الاستجابةِ على استجابة أهل الكتاب يقتضي ذلك أيضاً إذْ لم يكن بمكة أحدٌ منهم. وقيل: لا يقتضيه؛ لأنَّ خبرَ استجابتهم وإقرارهم بنعوته ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغَ أهلَ مكة، والمُجادلون محمولٌ عليهم، فلا مانعَ من كونها مكيةً.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لِمُكابرتهم الحقَّ بعد ظُهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، أوالكتاب المعهود، أوجميع الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلتبساً بالحقّ، بعيداً من الباطل في أحكامه وأخباره، أومُلتبساً بما يحقّ ويجب من العقائد والأحكام.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العدلَ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم[2]، أوالشَّرع الذي يُوزن به الحقوق، ويُسوِّي بين الناس، وعلى الوجهين فيه استعارةٌ.

---

(١) أي أن ما روي عن عكرمة ظاهر أيضاً في أن الآية مدنية.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

ونسبةُ الإنزال إليه مجازٌ؛ لأنه من صفات الأجسام، والمُنزَل حقيقة مَنْ بَلَّغه. واعتبر بعضُهم الأمر، أي: أنزل الأمر بالميزان، وتُعقِّب بأنه أيضاً مُحتاجٌ إلى التأويل، وقد يقال: نسبة الإنزال وكذا النزول إلى الأمر مشهورةٌ جداً فالتحقَتْ بالحقيقة، ويجوز أن يُتجوَّز في الإنزال، ويقال نحو ذلك في «أنزل الكتابَ».

وعن مجاهد أنَّ الميزانَ الآلةُ المعروفة، فعلى هذا إنزالُه على حقيقته، وجوّز أن يكون على سبيل الأمر به، واستظهر الأول، لما نقل الزمخشري[١] في «الحديد» أنه نُزِّلَ إلى نوح وأُمِرَ أن يُوزن به، وكونُ المرادِ به ميزانَ الأعمال بعيدٌ هنا.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يجعلك دارياً، أي: عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: إتيان الساعة الذي أخبر به الكتابُ الناطق بالحقِّ، فالكلام بتقدير مضافٍ مذكَّر، وقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ خبرٌ عنه في الحقيقة؛ لأن المحذوفَ بقرينةٍ كالملفوظ، وهو وجهٌ في تذكيره. وجُوِّز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث، وأن يكون «قريب» من باب: تامر ولابن، أي: ذات قُرب، إلى أَوْجُهٍ أُخَرَ تقدَّمت في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأيَّاما كان، فالمعنى: إنَّ الساعةَ على جناح الإتيان، فاتَّبع الكتابَ، وواظِبْ على العَدْل، واعمَلْ بالشرع قبل أن يُفاجئك اليومُ الذي تُوزن فيه الأعمال، ويُوفَّى جزاؤها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاءٍ، كانوا يقولون: متى هي، ليتها قامَتْ حتى يظهرَ لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمدٌ (عليه الصلاة والسلام) وأصحابُه؟!.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون منها مع اعتناءٍ بها، فإنَّ الإشفاقَ عنايةٌ مختلطةٌ بخوف، فإذا عُدِّي بـ «من» ـ كما هنا ـ فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإذا عُدِّي بـ «على» فمعنى العناية أظهر، وعنايتُهم بها لِتوقُّع الثواب.

---

(١) في الكشاف ٤/٦٦.

وزعم الجلبي أن الآيةَ من الاحتباك، والأصل: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، فلا يُشفِقُون منها، والذين آمنوا مُشفِقون منها فلا يستعجلون بها.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الأمر المُتحقِّق الكائن لا مَحالةَ.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي: يُجادلون فيها، وأصلُه من: مَرَيْتُ الناقةَ، إذا مَسَحتَ ضرعَها للحَلْب، وإطلاق المُماراة على المُجادلة لأنَّ كلًّا من المُتجادِلَيْنِ يستخرج ما عند صاحبه. ويجوز أن يكون من المِرْية: التردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشكّ، ومعنى المُفاعلة غيرُ مقصود، فالمعنى: إن الذين يتردَّدون في أمر الساعة ويشكُّون فيه ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ عن الحقِّ، فإن البعثَ أقربُ الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه يُعلم تجويزه[١] من إحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك، فمَن لم يهتدِ إليه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعد.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ برٌّ بليغُ البِرِّ بهم يُفيضُ جلَّ شأنُه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام، ويُؤذن بذلك مادةُ اللُّطف وصيغةُ المبالغة فيها وتنكيرُها الدالُّ على المبالغة بحسب الكمية والكيفية. قال حُجَّةُ الإسلام[٢] عليه الرحمة: إنما يستحقُّ هذا الاسمَ مَنْ يعلم دقائقَ المصالح وغوامِضَها وما دقَّ منها ولَطُفَ، ثم يسلكُ في إيصالها إلى المستصلح سبيلَ الرِّفق دون العُنف، فإذا اجتمع الرِّفق في الفعل واللُّطف في الإدراك تمَّ معنى اللطيف، ولا يُتَصوَّر كمالُ ذلك إلا في الله تعالى شأنه.

فصنوفُ البِرِّ من المبالغة في الكَمّ، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية؛ لأنه إذا دقَّ جدّاً كان أخفى وأخفى، وإرادة الجميع من إضافة العبادِ ـ وهو جمعٌ ـ إلى ضميره تعالى فيُفيد الشُّمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال: لطيفٌ بالبَرّ والفاجر حيث لم يَقْتلهم جوعاً.

---

(١) في (م): من تجويزه.

(٢) هو الإمام الغزالي رحمه الله، وكلامه في المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٠١.

وقال أبو حيان[١]: «اللطيفُ بعباده» أي: برٌّ بعباده المؤمنين ومَن سبق له الخلود في الجنة، وما يُرى من النعم على الكافر فليس بِلُطْفٍ، إنما هو إملاءٌ، إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام.

وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي[٢]، ومالَ إلى ترجيحه، وذلك أنه ادَّعى أن الإضافة في «عباده» إضافةُ تشريفٍ، إذْ أكثرُ استعمال التنزيل الجليل في مثل ذلك، فيختصُّ العبادُ بأوليائه تعالى المؤمنين. وحَمَلَ اللُّطف على مَنْح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأُخروية والكرامات السنية، وحملَ الرزق في قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ عليه أيضاً، وقال: إنَّ استعمالَه فيما ذكر كاستعماله في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] وجَعَلَ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ مُؤذِناً بالتعليل، كأنه قيل: إنما تلطَّف جلَّ شأنُه في حقِّ عباده المؤمنين دون مَنْ غَضِبَ عليهم بمحضِ مشيئته سبحانه، لأنه تعالى قويٌّ قادرٌ على أن يختصَّ برحمته وكرامته من يشاء من عباده، عزيزٌ غالب لا يمنعه سبحانه عما يُريده أحد.

وادَّعى أنه يكون وِزانُ الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية وزانَ قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] وينتظم الكلام أتمَّ انتظام وتلتئمُ أطرافه أشدَّ التئام، ولا يقال حينئذ: إنَّ قولَه تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ حكمٌ مترتِّب على السابق، فكان ينبغي أن يعمَّ عمومَه، والعمومُ أظهر.

وحديثُ التخصيص في «يرزق من يشاء» فقد أجاب عنه صاحبُ «التقريب» فقال: إنما خصَّص الرزقَ بمن يشاء مع أنهم كلَّهم برٌّ سبحانه بهم؛ لأنه تعالى قد يخصُّ أحداً بنعمة وغيرَه بأخرى، فالعموم لجنس البِرِّ، والخصوصُ لنوعه.

وأشار جار الله[٣] إلى أنه لا تخصيصَ بالحقيقة؛ فإن المعنى: اللهُ تعالى بليغُ

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.
(٢) الوسيط ٤/ ٤٨.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٥.

البرّ بجميع عباده يرزقُ مَن يشاء ما يشاء سبحانه منه، فـ «يرزق من يشاء» بيانٌ لتوزيعه على جميعهم، فليس الرِّزق إلا النصيبَ الخاصَّ لكلِّ واحد، ولمَّا شَمِلَ الدارين لاءَمَ قولَه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ إلخ كلَّ المُلاءمة. ولا يتوقَّف هذا على ما قاله الطيبي.

ولعل أمرَ التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهرُ، والتعليل أنسبُ، فكأنه قيل: لطيفٌ بعباده عامُّ الإحسان بهم؛ لأنه تعالى القويُّ الباهر القُدرة الذي غلب وغلبتْ قُدرته سبحانه جميعَ القُدَر، يرزق مَن يشاء، لأنه العزيزُ الذي لا يُغلَبُ على ما يُريد، فكلٌّ من الاسمين الجليلين ناظرٌ إلى حُكمٍ، فافهم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]:

فكم لله من لُطْفٍ خَفِيٍّ يَدِقُّ خَفاه عن فَهم الذَّكي(١)

والحَرْثُ في الأصل إلقاءُ البَذْر في الأرض، يُطلق على الزرع الحاصل منه، ويُستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المَبنية على تشبيهها بالغِلال الحاصلة من البذور، المتضمِّنِ لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يُريد بأعماله ثوابَ الآخرة نُضاعِفْ له ثوابَه بالواحد عشرةً إلى سبع مئةٍ فما فوقها ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعُها وطَيِّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئاً منها حَسْبَما قدَّرناه له بطلبه وإرادته ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ إذْ كانت هِمَّتُه مقصورةً على الدنيا.

وقرأ ابن مقسم، والزعفراني، ومحبوب والمنقري كلاهما عن أبي عمرو: «يَزِدْ» و«يؤته» بالياء فيهما، وقرأ سلام: «نُؤْتِهُ» بضم الهاء(٢)، وهي لغةُ أهل الحجاز.

وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضياً والجوابُ مضارعاً مجزوماً؛ قال أبو حيان(٣): ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم في مثل ذلك، وأنه فصيحٌ مختارٌ

(١) ذكره الشهاب في حاشيته ٧/ ٤١٧ ولم ينسبه.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٤، وما ذكره عن أبي عمرو غير المشهور عنه، وقراءة سلّام ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٤٩.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.

مطلقاً إلا ما ذكره صاحبُ كتاب «الإعراب» أبو الحكم بن عذرة[1] عن بعض النحويين أنه لا يَجيء في الفصيح إلا إذا كان فعلُ الشرط كان، وإنما يجيء معها لأنها أصلُ الأفعال، ونصُّ كلامِ سيبويه والجماعة أنه لا يختصُّ بكان، بل سائر الأفعال مثلُها في ذلك، وأنشد سيبويه للفرزدق:

دَسَّتْ رسولاً بأنَّ القومَ إن قَدروا عليك يَشفُوا صدوراً ذاتَ توغير[2]

وقال أيضاً:

تَعشَّ فإنْ عاهدتني لا تخونني نَكُن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان[3]

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ في الكُفْر، وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الكَفَرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشِّرك، وإنكارِ البَعْث، والعمل للدنيا، و«أم» منقطعة، فيها معنى بل الإضرابية، والهمزةِ التي للتقرير والتقريع، والإضرابُ عما سبق من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ١٣] إلخ، فالعطف عليه، وما اعترض به بين الآيتين من تتمةِ الأولى، وتأخير الإضراب ليدلَّ على أنهم في شرعٍ يُخالف ما شرعه الله تعالى من كلِّ وجه، فالشرك في مقابلة إقامة الدين. والاستقامةِ عليه، وإنكارُ البعث في مقابلة قوله تعالى (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ) والعمل للدنيا لقوله سبحانه: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ).

وهذا أظهرُ مِن جَعْلِ الإضرابِ عما تقدَّم من قوله تعالى: (كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ) كما لا يخفى.

وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله

(١) الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الأنصاري، الأوسي، الخضراوي، النحوي، أخذ عن ابن عصفور وغيره، له تصانيف منها: المفيد في أوزان الرجز والقصيد، والإعراب عن أسرار الحركات في لسان الأعراب. توفي سنة (٦٤٤هـ). بغية الوعاة ١/ ٥١٠، وكشف الظنون ١/ ١٢٥.

(٢) الكتاب ٣/ ٦٩، وهو في ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣.

(٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٣٢٩، وفيه: واثقتني، بدل: عاهدتني.

سبحانه، وإسنادُ الشرع إليها لأنها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] وجوّز أن يكونَ الاستفهامُ المقدَّر على هذا للإنكار، أي: ليس لهم شرعٌ ولا شارع، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] وأيّاً ما كان فضميرُ «شرعوا» للشُّركاء وضميرُ «لهم» للكُفَّار.

وجوّز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأولُ للكُفَّار، والثاني للشُّركاء، أي: شرع الكُفَّار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام ما لم يأذَنْ به الله تعالى، كاعتقادِ أنهم آلهةٌ، وأن عبادتَهم تُقرِّبهم إلى الله سبحانه، وكجعل البَحيرة والسائبة والوَصِيلة وغير ذلك، وهو كما ترى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاء والحُكم السابق منه تعالى بتأخيرِ العذاب إلى يوم القيامة، أو إلى آخرِ أعمارهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا. أو حين افترقوا بالعِقاب والثواب. وجوّز أن يكون المعنى: لولا ما وعدَهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضي بينهم، فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. وقيل: ضمير بينهم للكُفَّار وشركائهم بأيِّ معنى كان.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المُحدَّث عنهم، أو الأعمُّ منهم، ويدخلون دخولاً أوليًّا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ في الآخرة. وفي «البحر»(١): أي: في الدنيا بالقَتْل والأَسْر والنَّهب، وفي الآخرة بالنار.

وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: «وأنَّ» بفتح الهمزة(٢) عطفاً على «كلمةُ الفَصْل»، أي: لولا القضاءُ السابق بتأخير العذاب وتقديرِ أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم في الآخرة، أو لولا العِدَة بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة وتقدير أنَّ الظالمين لهم.. إلخ، لَقُضي بينهم، والعطفُ على التقديرين تتميمٌ للإيضاح لا تفسيريٌّ محض.

---

(١) ٧/ ٥١٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤.

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ جملةٌ مستأنفة لبيان ما قبلُ. والخطاب لكلِّ أحدٍ يصلحُ له لِلقَصْد إلى المبالغة في سوء حالهم، أي: ترى يا من يصحُّ منه الرؤيا الظالمين يومَ القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين الخوفَ الشديد ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من السيئات.

والكلامُ ـ قيل ـ على تقدير مُضاف، و«من» صلة الإشفاق، أي: مشفقين مِن وبال ما كسبوا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الوبال ﴿وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ أي: حاصلٌ لهم لاحقٌ بهم.

واختار بعضُهم أنْ لا تقدير، و«من» تعليلية؛ لأنه أَدْخَلُ في الوعيد.

والجملة اعتراضٌ للإشارة إلى أن إشفاقَهم لا ينفعهم، وإيثار «واقع» على يقع مع أن المعنى على الاستقبال ـ لأنَّ الخوفَ إنما يكون من المتوقَّع، بخلاف الحزن ـ للدلالة على تحقُّقه، وأنه لا بدَّ منه. وجوِّز أن تكون حالاً من ضمير «مُشفِقين»، وظاهرُ ما سمعتَ أنه حالٌ مقدَّرة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ أي: مُستقِرُّون في أطيبِ بقاعها وأنزهها. وقال الراغب[1]: هي محاسِنُها وملاذُّها، وأصلُ الروضة مستنقعُ الماء والخُضرة، واللغةُ الكثيرةُ في واوها جمعاً التسكين كما في المُنْزَل، ولغة هذيل بن مدركة فتحها، فيقولون: رَوَضات إجراءً للمُعتَلّ مُجرى الصحيح نحو جَفَنات، ولم يقرأ أحدٌ فيما عَلِمنا بلغتهم.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذَّات حاصلٌ لهم عند ربهم، فالظرف متعلِّقٌ بمتعلَّق الجار والمجرور الواقع خبراً لـ «ما»، أو به، واختاره جارُ الله[2]، ونفى أن يكون متعلِّقاً بـ «يشاؤون» مع أنه الظاهرُ نحواً.

وبيَّن صاحب «الكشف» ذلك بأنه كلامٌ في مَعْرِض المبالغة في وصف ما يكون أهلُ الجنة فيه من النعيم الدائم، فأُفيد أنهم في أنزه موضع من الجنة وأطيبِ مَقْعد منها بقوله تعالى: (فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ) لأن روضةَ الجنة أنزه موضع منها، لاسيما والإضافة في هذا المقام تُنبىء عن تميُّزها بالشَّرف والطيب، والتعقيبُ بقوله تعالى:

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (روض).
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٦٦.

(لَهُم مَّا يَشَآءُونَ) أيضاً. ثم أُفيد أنَّ لهم ما يشتهون من ربِّهم، ولا خفاءَ أنك إذا قلت: لي عند فلان ما شئتُ، كان أبلغَ في حصول كلِّ مطالبك منه مما إذا قلت: لي ما شئتُ عند فلان، بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه؛ أما الأول: فلأنه يُفيد أن جميع ما تشاؤه موجودٌ مبذولٌ لك منه، والثاني يفيد أن ما شئتَ عنده مبذولٌ لا جميع ما تشاؤه. وأما الثاني: فلأنك وصفتَه بأنه يبذلُ جميعَ المُرادات، وفي الثاني وصفتَه بأن ما شئتَ عنده مبذولٌ لك، إمّا منه وإمّا من غيره. ثم في الأول مبالغةٌ في تحقيق ذلك وثُبوته كما تقول: لي عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بأن ذلك حقٌّ لهم ثابتٌ مقضيٌّ في ذمة فَضْله سبحانه، ولا كذلك في الثاني.

ثم قال: ولعلّ الأوجه أنْ يجعل «عند ربهم» خبراً آخر، أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربِّهم في رَوْضات الجنات، لهم فيها ما يشاؤون، وإنما أُخِّر توخِّياً لسلوك طريق المبالغة في الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، ومراعاةً لترتيب الوجود أيضاً، فإن الوافدَ والضيفَ ينزلُ في أنزهِ موضع، ثم يحضرُ بين يديه الذي يَشتهيه، وملاكُ ذلك كلِّه أن يختصَّه ربُّ المنزل بالقُرب والكرامة.

وإنْ جعله حالاً من فاعل يشاؤون، أو من المجرور في «لهم» أفاد هذا المعنى أيضاً، لكنه يقصرُ عما آثرناه؛ لأنه قد أتى به إتيان الفَضْلة، وهو مقصودٌ بذاته عُمدة. ولَعمري إن ما آثره حسنٌ معنى، إلا أنه أبعدُ لفظاً مما آثره جار الله، ولا يخفى عليك ما هو الأنسب بالتنزيل.

وفي الخبر عن أبي ظَبية قال: إنَّ السِّربَ من أهل الجنة لَتظلُّهم السحابةُ فتقول: ما أُمْطِرُكم؟ فما يدعو داعٍ من القوم إلا أَمْطَرتْه، حتى إن القائلَ منهم ليقول: أَمطرينا كواعبَ أتراباً[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببعد منزلة المُشارِ إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ الذي لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا تُبلَغ غايتُه، ويَصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٤٦.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضلُ الكبير أوالثوابُ المفهوم من السِّياق هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يُبشِّر به، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتُهم في التدريج في الحذف، ولا مانعَ كما قال الشهاب[1] من حَذْفهما دفعةً. وجوِّز كون «ذلك» إشارةً إلى التبشير المفهوم من «يُبشِّر» بعدُ، والإشارة قد تكون لما يُفهم بعدُ كما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ونحوه، والعائدُ إلى الموصول ضميرٌ منصوب بـ «يُبَشِّر» على أنه مفعولٌ مطلق له؛ لأنه ضميرُ المصدر، أي: ذلك التبشير يُبَشِّره اللهُ عبادَه.

وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعلُ الإشارة إلى التبشير، لعدم تقدُّم لفظِ البُشرى، ولا ما يدلُّ عليها[2]. وهو ناشئٌ عن الغَفْلة عما سمعتَ، فلا حاجة في الجواب عنه أن كونَ ما تقدَّم تبشيراً للمؤمنين كافٍ في صحة ذلك.

ثم قال: ومن النَّحْويين من جعل «الذي» مصدرية، حكاه ابنُ مالك عن يونس وتأوَّل عليه هذه الآية، أي: ذلك تبشيرُ الله تعالى عبادَه، وليس بشيء، لأنه إثباتٌ للاشتراك بين مختلفي الحدّ بغير دليل، وقد ثبتت اسمية الذي، فلا يعدلُ عن ذلك بشيء لا يقوم به دليلٌ ولا شبهة[3].

وقرأ عبد الله بن يعمر وابن أبي إسحاق والجَحْدري والأعمش وطلحة - في رواية - والكسائي وحمزة: «يَبْشُر» ثلاثيًّا[4]. ومجاهد وحُميد بن قيس بضمّ الياء وتخفيف الشين من أَبشر[5]، وهو معدًّى بالهمزة من بَشِرَ اللازم المكسور الشين، وأما بَشَر بفتحها، فمتعدٍّ، وبَشَّر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأنَّ المعدَّى إلى واحد وهو مُخفَّف لا يُعدَّى بالتضعيف إليه، فالتضعيفُ فيه للتكثير لا للتعدية.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٤١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٥، وقراءة الكسائي وحمزة - وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو - في التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٢٣٩.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٥١، والبحر المحيط ٧/ ٥١٥.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على ما أتعاطاه لكم من التبليغ والبِشارة وغيرهما ﴿أَجۡرًا﴾ أي: نفعاً ما، ويختصُّ في العُرف بالمال ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ﴾ أي: إلا مودَّتكم إيايَ ﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي: لقرابتي منكم، فـ «في» للسببية مثلها في «إنَّ امرأةً دخلتِ النارَ في هِرَّة»[1] فهي بمعنى اللام لِتقارب السبب والعِلَّة، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد وقتادة وجماعة.

والخطاب إما لقريش على ما قيل: إنهم جمعوا له مالاً وأرادوا أن يَرْشُوه على أنْ يُمسِكَ عن سبِّ آلهتهم، فلم يفعل ونزلَتْ. وله عليه الصلاة والسلام في جميعهم قرابة[2]. أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ) فقال سعيدُ بن جُبير: قُربى آل محمد ﷺ، فقال ابنُ عباس: عَجِلْتَ، إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة[3].

أوللأنصار، بناءً على ما قيل: إنهم أَتَوْه بمال لِيستعين به على ما ينوبُه فنزلت، فردَّه[4]. وله عليه الصلاة والسلام قَرابةٌ منهم، لأنهم أخوالُه؛ فإنَّ أُمَّ عبد المطلب ـ وهي سلمى بنت زيد النجَّارية ـ منهم، وكذا أخوالُ آمنةَ أُمِّه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً.

أو لجميع العرب؛ لِقَرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعاً في الجُملة، كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم، وإما قحطانيون والأنصار منهم، وقرابتُه عليه الصلاة والسلام من كلٍّ قد علمت، وذلك يستلزم قرابتَه من جميع العرب، وقُضاعةُ من قَحْطان لا قِسمٌ برأسه على ما عليه مُعظم النسَّابين.

والمعنى: إنْ لم تعرفوا حقِّي لِنبوَّتي وكوني رحمةً عامَّة ونعمةً تامَّةً، فلا أقلَّ من مودَّتي لأجل حقِّ القرابةِ وصلةِ الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٦.
(٣) مسند أحمد (٢٠٢٤)، وصحيح البخاري (٤٨١٨)، وسنن الترمذي (٣٢٥١)، ولم نقف عليه عند مسلم.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٥ مطولاً.

وحاصلُه: لا أطلبُ منكم إلا مودَّتي ورعايةَ حقوقي لِقرابتي منكم وذلك أمرٌ لازمٌ عليكم، ورُوي نحو هذا في «الصحيحين» عن ابن عباس[١]، بل جاء ذلك عنه رضي الله عنه في روايات كثيرة، وظاهرُها أنَّ الخِطابَ لقريش؛ منها ما أخرجه سعيدُ بن منصور وابنُ سعد وعبدُ بن حُميد والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن الشعبي قال: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية «قل لا أسألكم» إلخ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله، فكتبَ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان وسطَ النسب في قريش، ليس بطنٌ من بُطونهم إلا وقد وَلدوه، قال الله تعالى: (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) على ما أَدْعوكم عليه (إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) تَودُّوني لِقرابتي منكم، وتحفظوني بها[٢].

ومنها ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال: كان لرسول الله ﷺ قرابةٌ من جميع قريش، فلما كذَّبوه وأَبَوْا أن يُتابعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تُتابعوني، فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيرُكم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم»[٣].

والظاهرُ من هذه الأخبار أنَّ الآيةَ مكيةٌ، والقولُ بأنها في الأنصار يقتضي كونَها مدنية.

والاستثناءُ متصلٌ بناءً على ما سمعتَ من تعميم الأجر. وقيل: لا حاجةَ إلى التعميم، وكونُ المودَّة المذكورة من أفرادِ الأجر ادعاءٌ كافٍ لاتصال الاستثناء.

وقيل: هو منقطع إما بناءً على أنَّ المودةَ له عليه الصلاة والسلام ليست أجراً أصلاً بالنسبة إليه ﷺ، أو لأنها لازمةٌ لهم لِيُمدحوا بصلة الرحم، فنفعُها عائدٌ عليهم، والانقطاعُ أقطعُ لتوهُّم المنافاة بين هذه الآيةِ والآيات المتضمنةِ لِنفي سؤال الأَجْر مطلقاً.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٤٤، ودلائل النبوة ١/ ١٨٥، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٥، ومعجم الطبراني الكبير (١٣٠٢٦).

وذهب جماعةٌ إلى أن المعنى: لا أطلبُ منكم أجراً إلا محبَّتَكم أهلَ بيتي وقرابتي، وفي «البحر»[١]: إنه قولُ ابن جُبير والسدي وعمرو بن شُعيب. و«في» عليه للظرفية المَجَازيَّة، و«القربى» بمعنى الأقرباء، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: إلا المودة ثابتة في أقربائي مُتمكِّنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يَقُلْ: إلا مودَّةَ القُربى، وذكر أنه على الأول كذلك، وأمر اتِّصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق.

والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام في هذا القول قيل: ولدُ عبد المطلب، وقيل: عليٌّ وفاطمة وولدُها ﷺ، ورُوي ذلك مرفوعاً؛ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جُبير عن ابن عباس قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ «قُلْ لا أسألكم» إلخ قالوا: يا رسولَ الله، مَنْ قرابتُك الذين وَجَبتْ مودَّتُهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وولدُها»[٢] صلى الله عليه وسلم وعليهم. وسندُ هذا الخبر على ما قال السيوطي في «الدر المنثور»[٣] ضعيفٌ، ونصَّ على ضَعْفه في «تخريج أحاديث الكشاف»[٤] ابنُ حجر. وأيضاً لو صحَّ لم يَقُلْ ابنُ عباس ما حُكي عنه في «الصحيحين» وغيرهما، وقد تقدَّم[٥]، إلا أنه رُوي عن جماعة من أهل البيت ما يُؤيِّد ذلك؛ أخرج ابنُ جرير عن أبي الدَّيْلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين ﷺ أسيراً فأُقيم على درج دمشق، قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمدُ لله الذي قَتلكم واستأْصَلكم. فقال له علي ﷺ: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأتَ آل حم؟ قال: نعم. قال: ما قرأتَ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم[٦].

وروى زاذان عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: فينا في آل حم آيةٌ لا يحفظ

---

(١) ٧/ ٥١٦.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٧، ومعجم الطبراني الكبير (١٢٢٥٩).
(٣) ٦/ ٧.
(٤) ص١٤٥.
(٥) تقدم قريباً.
(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٩، وأبو الدَّيلم اسمه: حَذْلم بن بشير (أو: ابن بشر). الإكمال ٢/ ٤٠٥.

مودَّتَنا إلا مؤمن، ثم قرأ هذه الآية[١]، وإلى هذا أشارَ الكُميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آيةً تأوَّلها منّا تقيٌّ ومُعرِبُ[٢]

ولله تعالى دَرُّ السيد عمر الهيتي أحدُ الأقارب المُعاصرين حيث يقول:

بأيَّةِ آيةٍ يأتي يزيد غداةَ صحائفُ الأعمال تُتلى

وقام رسولُ ربِّ العرش يتلو وقد صمَّت جميع الخَلْق قل لا

والخطابُ على هذا القول لجميع الأُمَّة لا للأنصار فقط وإن ورد ما يُوهم ذلك، فإنهم كلَّهم مُكَلَّفون بمودة أهل البيت؛ فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أُذكِّركم اللهَ تعالى في أهل بيتي»[٣].

وأخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ والطبراني والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «أَحِبُّوا اللهَ تعالى لما يَغْذُوكم به من نعمه، وأَحِبُّوني لحبِّ الله تعالى، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي لحبي»[٤].

وأخرج ابنُ حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِه، لا يُبغِضُنا أهلَ البيت رجلٌ إلا أدخلَه اللهُ تعالى النار»[٥].

إلى غير ذلك مما لا يُحصى كَثْرةً من الأخبار، وفي بعضها ما يدلُّ على عموم القُربى وشُمولها لبني عبد المطلب؛ أخرج أحمد والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي

---

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣، وفي إسناده عبد الغفور أبو الصباح الواسطي، قال البخاري: تركوه، وقال ابن عدي: ضعيف منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٤١.

(٢) ديوان الكميت ص١٨. وقوله: مُعرِب، قال الجوهري في الصحاح (عرب): أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يَتَّقِ أحداً.

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١١٩)، وهو عند الترمذي (٣٧٨٨) بمعناه، وأخرجه أحمد (١٩٢٦٥).

(٤) سنن الترمذي (٣٧٨٩)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦٦٤)، والمستدرك ٣/ ١٥٠، وشعب الإيمان (١٣٧٨).

(٥) صحيح ابن حبان (٦٩٧٨)، والمستدرك ٣/ ١٥٠.

عن المطَّلب بن ربيعة قال: دخل العباسُ على رسول الله ﷺ فقال: إنَّا لَنخرجُ فنرى قريشاً تُحدِّث، فإذا رأَوْنا سكتوا، فغضب رسولُ الله ﷺ ودرَّ عِرْقٌ بين عينيه ثم قال: «واللهِ، لا يدخلُ قلبَ امرئ مسلمٍ إيمانٌ حتى يُحبَّكم لله تعالى ولِقرابتي»(١) وهذا ظاهرٌ إنْ خصَّ القُربى بالمؤمنين منهم، وإلا فقيل: إن الحُكم منسوخٌ. وفيه نَظر، والحقُّ وجوبُ محبة قَرابته عليه الصلاة والسلام من حيث إنهم قَرابته ﷺ كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

دارِيتُ أهلَكَ في هواكَ وهم عِدا ... ولأَجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تُكرَمُ

وكلما كانت جهةُ القرابة أقوى كان طلبُ المودَّة أشدَّ، فمودَّةُ العلويِّين الفاطميين ألزمُ من محبة العباسيين على القول بعموم «القُربى»، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوتُ أيضاً باعتبار تفاوت الجِهات والاعتبارات، وآثارُ تلك المودَّة التعظيم والاحترام، والقيامُ بأداء الحُقوق أتمَّ قيام، وقد تهاونَ كثيرٌ من الناس بذلك حتى عدُّوا من الرفض السلوكَ في هاتيك المسالك، وأنا أقول قولَ الشافعيِّ الشافي العَيِّ:

يا راكباً قِفْ بالمُحصَّب من مِنى ... واهتفْ بساكن خيفها والناهض

سَحراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منى ... فيضاً كملتطمِ الفراتِ الفائض

إنْ كان رَفْضاً حبُّ آل محمد ... فَلْيشهدِ الثَّقلانِ أني رافضي(٢)

ومع هذا لا أعدُّ الخروج عما يعتقده أكابرُ أهل السنة في الصحابة ﵃ ديناً، وأرى حُبَّهم فرضاً عليَّ مُبيناً، فقد أوجبه أيضاً الشارعُ، وقامت على ذلك البراهين السواطع.

ومن الطرائف ما حكاه الإمام عن بعض المُذكِّرين قال: إنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَثَلُ أهل بيتي كسفينةِ نوح، مَنْ رَكِبَ فيها نجا ومن تخلَّف عنها

---

(١) مسند أحمد (١٧٥١٥)، وسنن الترمذي (٣٧٥٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١٢٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد الهاشمي، وهو ضعيف كما في التقريب.

(٢) ديوان الشافعي ص٥٥، وذكرها الرازي في تفسيره ٧/ ١٦٦.

هَلك»[1] وقال: ﷺ: «أصحابي كالنُّجوم بأيهم اقْتديتُم اهتديتُم»[2] ونحن الآن في بحر التكليف وتَضْربنا أمواجُ الشُّبهات والشهوات، وراكبُ البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب. والثاني: الكواكبُ الطالعة النَّيِّرة، فإذا رَكِبَ تلك السفينةَ ووضع بَصَره على تلك الكواكب كان رجاءُ السلامة غالباً، فلذلك رَكِبَ أصحابُنا ـ أهلَ السنة ـ سفينةَ حُبِّ آل محمد ﷺ، ووضعوا أبصارَهم على نجوم الصحابة يرجُون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة[3]. انتهى.

والكثيرُ من الناس في حقِّ كلٍّ من الآل والأصحاب في طرفي التفريط والإفراط، وما بينهما هو الصراطُ المستقيم، ثَبَّتنا اللهُ تعالى على ذلك الصراط.

وقال عبد الله بن القاسم: المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أنْ يودَّ بعضُكم بعضاً، وتَصِلوا قَراباتِكم، وأمرُ «في» والاستثناءِ لا يخفى.

وأخرج عبد بن حُميد عن الحسن أن المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا التقرُّب إلى الله تعالى بالعمل الصالح[4]. فالقُربى بمعنى القَرابة، وليس المرادُ قرابةَ النسب. قيل: ويجري في الاستثناء الاتصالُ والانقطاع، واستظهر الخفاجي[5] أنه منقطع، وأنه على نهج قوله:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣٩٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفي إسناده عمرو بن عبد الغفار الفقيمي، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن عدي: اتهم بوضع الحديث. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٧٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده حمزة النَّصِيبي؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: عامّة ما يرويه موضوع. ميزان الاعتدال ١/ ٦٠٦. وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذا الحديث في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٠ وعدَّد طرقه، وكلها تالفة، ونقل عن البزار قوله: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ، وعن ابن حزم قولَه: هذا خبر مكذوب موضوع باطل.

(٣) تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٧.

(٤) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠.

(٥) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم. . البيت[١]

وأراه على القول قبلَه كذلك.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «إلا مَوَدَّةً في القربى»[٢].

هذا، ومن الشيعة من أورد الآيةَ في مقام الاستدلال على إمامة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ قال: عليٌّ كرم الله تعالى وجهه واجبُ المحبة، وكلُّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، وكلُّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، ينتج: عليٌّ رضي الله عنه صاحبُ الإمامة. وجعلوا الآيةَ دليلَ الصُّغرى.

ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث:

أما أولاً: فلأنَّ الاستدلالَ بالآية على الصُّغرى لا يتمُّ إلا على القول بأنَّ معناها: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تودُّوا قرابتي، وتُحِبُّوا أهلَ بيتي، وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأول، وقيل في هذا المعنى: إنه لا يناسب شأنَ النبوة لِمَا فيه من التُّهمَة، فإنَّ أكثرَ طلبةِ الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نَفْعٌ لأولادهم وقراباتهم، وأيضاً فيه منافاةٌ مّا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وأما ثانياً: فلأنَّا لا نُسلِّم أنَّ كلَّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، فقد ذكر ابن بابويه[٣] في كتاب «الاعتقادات» أنَّ الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعةُ كلٍّ منهم.

وأما ثالثاً: فلأنَّا لا نُسلِّم أن كلَّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، أي: الزعامة الكُبرى، وإلا لكان كلُّ نبي في زمنه صاحبَ ذلك، ونصُّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] يأبى ذلك.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١، وعجزه: بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائب.

(٢) أوردها أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٦.

(٣) محمد بن علي بن الحسين القُمِّي، رأس الإمامية، وصاحب التصانيف السائرة بينهم، يضرب بحفظه المثل. السير ١٦/ ٣٠٣.

وأما رابعاً: فلأن الآيةَ تقتضي أن تكون الصُّغرى: أهلُ البيت واجبو الطاعة، ومتى كانت هذه صُغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سُلِّمت جميع مُقدِّماته، بل ينتج: أهلُ البيت صاحبو الإمامة، وهم لا يقولون بعمومه. إلى غير ذلك من الأبحاث، فتأمَّلْ ولا تَغْفُلْ.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب أيَّ حسنةٍ كانت، والكلام تذييلٌ، وقيل: المرادُ بالحسنة المَودَّة في قُربى الرسول ﷺ، ورُوي ذلك عن ابن عباس والسُّدي، وأنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لِشدَّة محبته لأهل البيت[1]، وقصةُ فَدَك والعوالي لا تأبى ذلك عند من له قلبٌ سليم[2]. والكلام عليه تتميمٌ، ولعلَّ الأولَ أَوْلى، وحبُّ آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات، وتدخلُ في الحسنة هنا دخولاً أوليّاً.

﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بمضاعفة الثوابِ عليها، فإنها يُزاد بها حُسن الحسنة، فـ «في» للظرفية و«حُسناً» مفعولٌ به أو تمييز.

وقرأ زيد بن عليّ، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جُبير عن الكسائي: «يزد» بالياء، أي: يزد اللهُ تعالى، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «حُسنى» بغير تنوين[3]، وهو مصدرٌ كَبُشرى، أو صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: صفة أوخَصْلة حُسنى.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساترٌ ذنوبَ عباده ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ مُجازٍ مَن أطاع منهم بتوفيةِ الثواب والتفضُّل عليه بالزيادة، وقال السُّدي: غفورٌ لذنوب آل محمد ﷺ شكورٌ لحسناتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ﴿افْتَرَىٰ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أوالقرآن، والهمزة للإنكار التوبيخي، و«بل» للإضراب من غير

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٦٧، والبيضاوي في تفسيره (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤١٩.
(٢) ينظر في هذه القصة ما سلف ٥/ ٣٤٥.
(٣) القراءتان في البحر المحيط ٧/ ٥١٦. وهما غير المشهور عن أبي عمرو والكسائي.

إبطال، وهو إضرابٌ أطمٌّ من الأول فأطم، فإنَّ إثباتَ ما هم عليه من الشرع وإنْ كان شرّاً وشركاً أقربُ من جَعْل الحقِّ الأبلج المُعتضِد بالبرهان النيِّر مِن أوسطهم فضلاً ودَعَةً وعقلاً افتراءً ثم افتراء على الله عز وجل، فكأنه قيل: أَيَتمالكون التفوُّه بنسبةِ مثلِهِ عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء[1] على الله عز وجل الذي هو أعظمُ الفِرى وأفحشُها ولا تحترقُ ألسنتهم؟!

وفي ذلك أتمُّ دلالة على بُعده ﷺ من الافتراء، كيف وقد أَردف بقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإنَّ هذا الأسلوبَ مُؤدَّاه استبعادُ الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام، وأنه في البُعد مثلُ الشِّرك بالله سبحانه والدخول في جملة المختومِ على قلوبهم؛ فكأنه قيل: فإن يشأ اللهُ سبحانه يَجْعَلْكَ من المختومِ على قُلوبهم حتى تفتريَ عليه الكَذب، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذبِ على الله تعالى إلا مَنْ كان في مِثْل حالهم، وهو في معنى: فإنْ يشأ يَجْعَلْكَ منهم، لأنهم هم المُفترون الذين شَرَعوا من الدين ما لم يأذَنْ به اللهُ تعالى، وما أحسنَ هذا التعريض بأنهم المُفترون، وأنهم في نفس هذه المَقالة عن افترائهم مُفترون، ونظيرُ الآية فيما ذُكر قولُ أمينٍ نُسِبَ إلى الخيانة: لعلَّ اللهَ تعالى خذلني، لعلَّ اللهَ تعالى أعمى قلبي، وهو لا يُريد إثباتَ الخِذْلان وعمى القلب، وإنما يريدُ استبعادَ أن يُخوَّنَ مِثْله، والتنبيهَ على أنه رُكب من تخوينه أمرٌ عظيم، فالكلامُ تعليلٌ لإنكار قولهم.

وأتى بـ «إنْ» مع أنَّ عدمَ مشيئته تعالى مقطوعٌ به قيل: إرخاء للعنان، وقيل: إشعاراً بعظمته تعالى، وأنه سبحانه غنيٌّ عن العالمين.

ثم ذيَّل بقوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ تأكيداً للمفهومِ من السابق مِنْ أنه ليس من الافتراء في شيء، أي: كيف يكون افتراء ومِن عادته تعالى محوُ الباطل ومَحْقُه، وإثباتُ الحقِّ بوحيه أوبقضائه، وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزدادُ كلَّ يوم قوةً ودَحْراً[2]، فلو كان مُفترِياً كما يَزْعُمون لَكشفَ اللهُ تعالى افتراءه ومَحَقَهُ وقذفَ بالحقِّ على باطلهِ فَدَمَغَهُ.

---

(١) بعدها في (م): ثم إلى الافتراء.

(٢) في (م): ودحواً!

والفعلُ المضارع للاستمرار، والكلامُ ابتدائي، ف «يمحُ» مرفوعٌ لا مجزوم بالعطف على «يختم»، وأُسقطت الواو في الرَّسم في أغلبِ المصاحف تبعاً لإسقاطها في اللفظ لالتقاءِ الساكنين كما في ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] و﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١] وكان القياسُ إثباتَها رسماً، لكن رَسْم المُصحف لا يلزم جَرْيُه على القياس، ويُؤيِّد الاستئنافَ دون العطف على «يختم» إعادةُ الاسم الجليل ورفع «يُحِقّ». وهذا ما ذكره جار الله[1] في الجملتين وبيانِ ارتباطهما بما قبلهما.

وقد دقَّق النظر في ذلك وأتى بما استحسنه النُّظار، حتى قال العلامة الطيبي: لو لم يكن في كتابه إلا هذا لَكفاه مَزِيَّةً وفَضْلاً، وجوّز هو أيضاً في قوله تعالى: «ويَمْحُ» إلخ أن يكون عِدَةً لرسول الله ﷺ بالنصر، أي: يمحو اللهُ تعالى باطِلَهم وما بهتوكَ به، ويُثْبت الحقَّ الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردَّ له، وحينئذ يكون اعتراضاً يُؤكِّد ما سيق[2] له الكلامُ من كونهم مُبطلين في هذه النسبة إلى مَن هو أصدقُ الناس لهجةً بأصدق حديث من أصدق مُتكلِّم.

وقال في «إرشاد العقل السليم» في الجملة الأُولى: إنها استشهادٌ على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كَذِباً لمنعه من ذلك قطعاً، وتحقيقُه أنَّ دعوى كون القرآن افتراءً عليه تعالى قولٌ منهم أنه سبحانه لا يشاء صُدوره عن النبي ﷺ، بل يشاء عدمَ صدوره عنه، ومن ضرورياته منعُه عنه قطعاً، فكأنه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لشاء عدمَ صدوره عنك، وإنْ يشأ ذلك يختِمْ على قلبك بحيث لم يخطرْ ببالك معنًى من معانيه، ولم تنطِقْ بحرف من حروفه، وحيث لم يكن الأمرُ كذلك، بل تواترَ الوحيُ حيناً فحيناً، تبيَّن أنه من عند الله عز وجل. وذكر في الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين[3].

ولا يخفى عليك ما يَرِدُ على كلامه من المنع، مع أنَّ فيه جَعْلَ مفعول المشيئة غيرَ ما يدلُّ عليه الجواب، وهو ذلك المشارُ به إلى عدم الصدور، والمتبادرُ كون

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٢) في الأصل: سبق.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ٣١.

المفعول الختمَ على ما هو المعروف في نظائر هذا التركيب، أي: فإنْ يشأ اللهُ تعالى الخَتْم على قلبك يَخْتِم. وإيهامَ كون القرآن ناشئاً منه ﷺ لا مُنزلاً عليه عليه الصلاة والسلام.

وقال السمرقندي: المعنى: إنْ يشأ يختِمْ على قلبك كما فعل بهم، فهو تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام وتذكيرٌ لإحسانه إليه وإكرامه له ﷺ لِيشكر ربَّه سبحانه ويترحَّم على مَن خُتِمَ على قلبه فاستحقَّ غضب ربِّه، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر، فالتفريعُ بالنظر إلى المعنى المَكْني عنه، وحاصلُه أنهم اجترؤوا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى. وفيه شمةٌ مما ذكره الزمخشري.

وعن قتادة وجماعة: «يختِمْ على قلبك»: يُنْسِكَ القرآن، والمرادُ على ما قال ابن عطية: الردُّ على مقالةِ الكُفَّار وبيانُ بطلانها، كأنه قيل: وكيف يصحُّ أن تكونَ مفترياً وأنت من الله تعالى بمرأى ومَسْمعٍ، وهو سبحانه قادرٌ، ولو شاء لختم على قلبكَ فلا تَعْقِل ولا تَنْطِق، ولا يستمرّ افتراؤك[1]. وفيه أنَّ اللفظ ضيقٌ عن أداء هذا المعنى.

وذكر القشيري[2] أن المعنى: فإنْ يشأ اللهُ تعالى يختِمْ على قلوب الكُفَّار وعلى ألسنتهم ويُعاجلهم بالعذاب، وعَدَلَ عن الغيبة إلى الخطاب ومن الجَمْع إلى الإفراد. وحاصلُه: يَختِم على قلبك أيها القائل: إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كَذِباً. وفيه من البُعد ما فيه، مع أن الكُفَّار مختومٌ على قلوبهم.

وقال مجاهد ومقاتل: المعنى: فإن يشأ يربطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم: إنك مُفْتَرٍ. ولا مانعَ عليه من عطف «يَمْحُ» على جواب الشرط، بل هو الظاهر، فيكون سقوطُ الواو للجازم، و«يُحِقُّ» حينئذ مستأنفٌ، أي: وإنْ يشأ يمحُ باطِلَهم عاجلاً، لكنه سبحانه لم يَفعلْ لحكمةٍ، أومطلقاً، وقد فعل جلَّ وعلا بالآخرة وأظهر دينَه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤-٣٥.

(٢) كما في تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧١.

وقيل: لا مانعَ من العطفِ على بعض الأقوالِ السابقة أيضاً، أي: إنْ يشأ يمحُ افتراءك لو افتريتَ. وهو كما ترى.

وكذا جُوِّز كونُ الجملة حاليةً وإنْ أحوجَ ذلك إلى تقدير المبتدأ، وفيه تكلفٌ مستغنًى عنه.

وربما يقال: إنَّ جملة «فإنْ يشأ اللهُ يَخْتِمْ» من تتمةِ قولهم مفرَّعاً على «افترى»، كأنه قيل: افترى على الله كذباً، فإنْ يشأ اللهُ يختِمْ على قلبه بسببِ افترائه فلا يعقِلُ شيئاً، أوكأنه قيل: افتريتَ على الله فإنْ يشأ يختِمْ على قلبك جزاءَ ذلك، إلا أنَّ نكتةَ اختيار الغَيبةِ في إحدى الجملتين والخطابِ في الأخرى غيرُ ظاهرة، وكونُها الإشارة إلى أنَّ مَن افترى يحقُّ أن يُواجَه بالجَزاء ليس مما يهشُّ له السامع فيما أرى.

ولعلَّ الأولى أن يكون «فإن يشأ» إلخ مفرَّعاً على كلامهم، خارجاً مخرجَ التهكُّم بهم، ولا بأس حينئذ بعطف «يمحُ» على جوابِ الشرط، ويُرادُ بالباطل ما هو باطلٌ بِزَعْمهم، كأنه قيل: أَمْ يقولون افترى على الله، فإذاً إن يشأ اللهُ يختِمْ على قلبك ويمحُ ما يَزْعُمون أنه باطل، وهذا كما تقول لمن أخبركَ أن زيداً افترى عليك وأنت تعلمُ أنه لم يَفْتَرِ، وإنما أدَّى عنك ما أمرتَه به: فإذاً نُؤدِّبه وننتقم منه ونمحو افتراءَه؛ تقصِدُ بذلك التهكُّمَ بالقائل. فتأمل.

فهذه الآية ـ كما قال الخفاجي[1] ـ من أصعبِ ما مرَّ في كلامه تعالى العظيم، وفَّقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم لِفَهْم مَعانيه والوقوفِ على سرِّه وخافيه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ فيعلم سبحانه ما في صدرك وصدورهم فيُجري جلّ وعلا الأمرَ على حسب ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعدَّى بعن لِتضمُّنه معنى الإبانة، وبمن لتضمُّنه معنى الأخذ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] أي: تُؤخذ.

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

وقيل: القَبول مُضَمَّنٌ هنا معنى التجاوز، والكلامُ على تقدير مضاف، أي: يقبل التوبةَ مُتجاوِزاً عن ذنوب عباده. وهو تكلُّف.

والتوبة: أن يرجِعَ عن القَبيح والإخلال بالواجب في الحال، ويندمَ على ما مضى ويَعزِمَ على تركه في المستقبل، وزادوا التَّفَصِّي[1] منه بأي وجه أمكن إنْ كان الذنبُ لعبدٍ فيه حقٌّ، وذلك بالردِّ إليه أو إلى وكيلِهِ، أو الاستحلال منه إن كان حيّاً، وبالردِّ إلى ورثتِهِ إنْ كان ميتاً وَوُجِدوا، ثم القاضي لو كان أميناً ـ وهو كالإكسير، ومَن رأى الإكسير؟! ـ فإنْ لم يَقدِرْ على شيء من ذلك يتصدَّق عنه، وإلا يَدْعُ له ويستغفر.

وفي «الكشف»: التفصِّي داخلٌ في الرجوع؛ إذْ لا يصحُّ الرجوعُ عنه وهو ملتبسٌ به بعدُ، واختير أن حقيقتها الرجوعُ، وإنما الندمُ والعزمُ ليكونَ الرجوعُ إقلاعاً، ويتحقَّقَ أنه التوبة التي ندبنا إليها، وهو موافقٌ لِمَا في «الإحياء» من أنها اسمٌ لتلك الحالة بالحقيقة، والباقي شروطُ التحقُّق.

ويُشترط أيضاً أن يكون الباعثُ على الرجوع مع الندم والعزم دينيًّا، فلو رَجَعَ لمانعٍ آخرَ من ضَعْفِ بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة في شيء، وأشار الزمخشري[2] إلى ذلك بكون الرُّجوعِ لأنَّ المرجوعَ عنه قبيحٌ وإخلالٌ بالواجب، وخرج عنه ما لو رَجَع طلباً للثناء أورِياء أوسُمعةً؛ لأنَّ قبحَ القبيح معناه كونُه مقتضياً للعقاب آجلاً وللذمِّ عاجلاً، فلو رَجَعَ لِمَا سبق لم يكن رجوعاً لذلك.

وروى جابر أنَّ أعرابيّاً دخل مسجدَ رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوبُ إليك، وكبَّر، فلما فرغَ من صلاته قال له عليّ كرم الله وجهه: إن سُرعةَ اللسان بالاستغفار توبةُ الكذَّابين، وتوبتُك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، ما التوبة؟ قال: اسمٌ يقعُ على ستةِ معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتَضْيِيعِ الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية، وإذاقةُ النفس مرارةَ الطاعة كما أذقتها حلاوةَ المعصية،

---

(١) التفصِّي: التخلُّص من خير أو شر. القاموس المحيط (فصي).

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.

والبكاءُ بدل كلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَه[1].

وهذا يَحْتَمِلُ أن تكون التوبةُ مجموعَ هذه الأمور، فالمرادُ أكملُ أفرادها، ويحتمل أنها اسمٌ لكلِّ واحد منها، والأولُ أظهرُ.

واختلف في التوبة عن بعض المعاصي مع الإصرار على البعض؛ هل هي صحيحة أمْ لا؟ والذي عليه الأصحاب أنها صحيحةٌ؛ لِظواهر الآياتِ والأحاديث، وصِدْقِ التعريف عليها.

وأكثرُ المعتزلةِ على أنها غيرُ صحيحة، قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القَبيح لكونه قبيحاً وجب أن يتوبَ عن كلِّ القبائح، وإنْ تاب عنه لا لمجرَّد قُبحه بل لِغرض آخرَ لم تَصِحَّ توبتُه.

وتُعقِّب بأنه يجوز أن يكونَ الباعثُ شدةَ القُبح أو أمراً دينيّاً آخرَ، وأيضاً يجري نظيرُ هذا في فعل الحَسَنِ، بل يقال: لو فعل الحسنَ لكونه حسناً وجب عليه أن يفعلَ كلَّ حسن، وإنْ فعله لِغرضٍ آخرَ لم يُقبل. وفيه بحث.

واستدلَّ المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قَبول التوبة. واستدلَّ أهلُ السنة بها على عدم الوجوب، لمكان التمدُّح، ولا تمدُّحَ بالواجب، وفيه أيضاً بحثٌ، وإلا نفع في هذا المقام أدلةُ نفي الوجوب مطلقاً عليه عز وجل.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراطِ شيء، كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر. وقال الطيبي: المعنى: من شأنه ـ تعالى شأنُه ـ قَبولُ التوبة عن عباده إذا تابوا، والعفوُ عن سيئاتهم بمحض رحمته أو بشفاعةِ شافع.

وقال المعتزلة: أي: يعفو عن الكبائر إذا تِيبَ عنها، وعن الصغائر إذا اجتُنبت الكبائر، فالعفو عن السيئات عليه أعمُّ من قَبول التوبة لِشُموله الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

والظاهرُ مع أهل السنة؛ إذْ لا دلالة في النظم الجليل على تخصيص السيئات، نعم المرادُ بها غير الشِّرك بالإجماع.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ٣١٥.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بتاء الخطاب عند حفص والأخوين وعلقمة وعبد الله، وبياء الغيبة عند الجمهور[١]، وعلى الأول ففيه التفاتٌ، و«ما» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: يعلم الذي تفعلونه كائناً ما كان من خير وشرّ، فيجازي بالثواب والعِقاب، أويتجاوزُ سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئتُه جلَّ وعلا المَبْنيَّةُ على الحِكَم والمَصَالح.

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائبَ، ويتجاوزُ عن غيره إذا شاء سبحانه، والأولُ أظهر. وفي «الكشاف»[٢]: يعلم سبحانه ذلك فَيُثيب على الحسنات ويُعاقِبُ على السيئات. وفي «الكشف» بعد نقله: هو - أي: قوله تعالى: «ويعلم» إلخ - تذييلٌ للكلام السابق يؤكِّد ما ذكره من القَبول والعفو؛ لأنه تعالى إذا علم العَمَلين والعاملين جازى كلًّا بما فعل، فأولى أنْ يُجازي هؤلاء المحسنين بأفعالهم، ثم فيه لطفٌ وحثٌّ على لزوم الحَذَر منه تعالى، والإخلاصِ له سبحانه في إمحاض التوبة، ونحن أيضاً لا نُنكر أنه تذييلٌ فيه تأكيدٌ كما لا يخفى.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطفٌ على «يقبل التوبة» فالفاعل ضميرُه تعالى. و«الذين» مفعول بدون تقدير شيء بناءً على أنَّ «يستجيب» يتعدَّى بنفسه كما يتعدَّى باللام، نحو: شكرتُه وشكرتُ له، أوبتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال، والأصل: يستجيبُ للذين آمنوا، بناءً على أنه يتعدَّى للداعي باللام، وللدعاء بنفسه، ونحوُ هذا قوله:

وداعٍ دعا يا من يُجيبُ إلى النَّدى فلم يَستجبه عند ذاك مُجيبُ[٣]

وأَجابَ واستجابَ بمعنًى، أي: ويُجيب اللهُ تعالى الذين آمنوا إذا دَعَوْا، وحاصِلُه: يُجيب دعاءَهم. وجوَّز بعضُهم أن يكونَ الكلامُ بتقدير هذا المضاف، قيل: وهو أولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصِّلة؛ لأنَّ حذف المضاف إذا لم يلبس مُنقاس، وذاك مسموع.

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧. والأخوان: هما حمزة والكسائي.
(٢) ٣/ ٤٦٩.
(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الأصمعيات ص٩٦.

ويجوز أن يكون المرادُ: يُثيبهم على طاعتهم، فإنَّ الطاعةَ لكونها طَلَبَ ما يترتَّب عليها من الثواب شابهَتِ الدعاءَ وشابهت الإثابةُ عليها الإجابةَ، ومن هذا يُسمَّى الثناءُ دعاءً؛ لأنه يترتَّب عليه ما يترتَّب عليه. وسُئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثرُ دعائي ودُعاءُ الأنبياء قبلي: لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير»(١) فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ شغله ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»(٢) ألا ترى قولَ أُمية بن الصَّلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله:

أأذكُر حاجتي أَمْ قد كَفاني ... ثناؤك إنَّ شيمتَكَ الحياء
إذا أَثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه عن تعرُّضك الثناء(٣)

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ: «أفضلُ الدُّعاء الحمدُ لله»(٤) على معنى أنَّ الحمدَ يدلُّ على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض.

وقيل: هو على إطلاق الدُّعاء على الحمد لشبهه به في طلب ما يترتَّب عليه.

وجُوِّز أنْ يُرادَ بالإجابة معناها الحقيقيُّ والإثابة بناءً على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز، أي: يُجيب دعاءَهم ويُثيبهم على الطاعة ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ على ما سألوا واستحقُّوا ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الواسع جلَّ شأنُه.

وقيل: إنَّ فاعل«ويستجيبُ»: «الذين آمنوا»، واستظهره أبو حيان(٥)، والجملةُ عطفٌ على مجموع قوله تعالى: (هو ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ) إلخ، أي: ينقادون لله تعالى ويُجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المرويُّ عن ابن جُبير.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما لنا ندعو فلا نُجاب؟ فقال: لأنه سبحانه

---

(١) سلف ١١/ ٤٢-٤٣.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الإسراء.
(٣) ديوان أمية ص١٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٧٨١، وفيهما: حياؤك، بدل: ثناؤك. و: من تعرُّضه، بدل: عن تعرُّضك.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر ﷺ.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٧.

دعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] و(وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)[١]. وهذا يُؤكِّد هذا الوجهَ؛ لأنه ـ قُدِّس سرُّه ـ ذكر أن اللهَ تعالى دعاكم بقوله عز وجل: (وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ) وذكر أن المؤمن من استجابَ دعوةَ ربِّه تعالى بقوله: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) فمن لا يُجيب دعاءه تعالى لا يُجيب تعالى أيضاً دعاءه.

وكون الفاعل ضميرَه تعالى قد رُوي ما يقتضيه عن ابن عباس ومعاذ بن جبل[٢]. «ويَزيدهم» عليه عطفٌ على ما قبلَه، وعلى الوجه الآخر عطفٌ على مُقدَّر، أي: فَيُوفِّيهم أجورهم ويَزيدهم عليها، على أسلوب ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥] وقوله سبحانه: (مِّن فَضْلِهِۦٓ) متعلِّقٌ بـ «يزيدهم» مطلقاً، وجُوِّز تعليقُه بالفعلين على التنازع، فإنَّ الإجابةَ والثوابَ فضلٌ منه تعالى كالزيادة. وأيًّاما كان فالظاهرُ عمومُ «الذين آمنوا».

ورُوي عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] أن رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ واستحكم الإسلامُ قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسولَ الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إنْ تَعْرُكَ أمورٌ فهذه أموالُنا تحكم فيها. فنزلت: (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقرأها عليهم، وقال: «تودُّون قرابتي من بعدي» فخرجوا مُسلِّمين، فقال المنافقون: إنَّ هذا لشيءٌ افتراه في مَجْلسه أراد بذلك عزَّ قرابته من بعده. فنزلت: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا) فأَرسل إليهم، فتلاها عليهم، فبكَوْا ونَدِموا، فأنزل الله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ) فأرسلَ ﷺ إليهم فَبشَّرهم، وقال: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) وهم الذين سَلَّموا لقوله. ذَكر ذلك الطبرسي[٣]، وذكر قريباً منه في «الدر المنثور» لكن قال: أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن جُبير بسند ضعيف[٤]، والذي يغلب على الظنّ الوضع.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٩.

(٢) قول معاذ رضي الله عنه أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٧، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥.

(٣) في مجمع البيان ٢٥/ ٥٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) الدر المنثور٦/ ٧، وهو في المعجم الأوسط (٥٧٥٨)، وفي الكبير (١٢٣٨٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

﴿وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ بَدَلَ ما للمؤمنين من الإجابة والتفضُّل.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ أي: لَتكبَّروا فيها بطراً، وتجاوزوا الحدَّ الذي يليقُ بالعبيد، أولَظلَمَ بعضُهم بعضاً، فإنَّ الغِنى مَبْطرةٌ مَأْشرةٌ، وكفى بحال قارونَ عبرةً، وفي الحديث: «أَخْوَفُ ما أخاف على أُمتي زهرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[1] ولبعض العرب:

وقد جعل الوَسْميُّ يُنبت بيننا وبين بني رومان نَبْعاً وشَوْحَطا[2]

وأصلُ البغي طلبُ أكثر مما يجب بأنْ يتجاوز في القَدْر والكمية، أو في الوصف والكيفية.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف من الإنزال[3].

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ وهو ما اقتضَتْه حِكمتُه جلَّ شأنه.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ محيطٌ بخفيَّات أُمورهم وجَلاياها، فيقدِّر لكلِّ واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يَليق بشأنه، فَيُفقِر ويُغني، ويمنع ويُعطي، ويقبِضُ ويَبسطُ، حسبما تقتضيه الحِكمةُ الربَّانية، ولو أغناهم جميعاً لَبَغَوْا، ولو أَفقرهم لهلكوا.

واستشكلَت الآيةُ بأنَّ الغِنى كما يكون سببَ البغي فكذلك الفقر قد يكون، فلا يظهر الشرطية.

وأجاب جارُ الله[4] بأنه لا شُبهة أن البغي مع الفقر أقلُّ، ومع البَسْطِ أكثرُ

(١) أخرجه أحمد (١١١٥٧)، والبخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢) بنحوه، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص٥٤٠، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥، وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص٣٨٠. والوَسْمي: مطر الربيع الأول، كما في القاموس (وسم)، والنبع والشوحط: ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

(٣) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

وأغلبُ، وكلاهما سببٌ ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عمَّ البسط لغلبَ البغيُ حتى ينقلبَ الأمرُ إلى عكس ما عليه الآن.

وأراد ـ والله تعالى أعلمُ ـ أن نظامَ العالم على ما هو عليه يستمرّ وإن كان قد يصدرُ من الغني في بعض الأحيان بغيٌ، ومن الفقير كذلك، لكن في أحدِهما ما يدفعُ الآخرَ، أما لو أفقرهم كلَّهم لكان الضَّعفُ والهُلْكُ لازماً، ولو بسطَ عليهم كلِّهم مع أن الحاجةَ طبيعيةٌ لكان من البغي ما لا يُقادَر قَدْرُه؛ لأن نظامَ العالم بالفقر أكثرُ منه بالغنى، وهذا أمرٌ ظاهرٌ مكشوفٌ. ثم إن الفقرَ الكُلِّي لا يُتصوَّر معه البغي، للضَّعف العامِّ، ولأنه لا يَجِدُ حاجته عند غيره لِيَظْلمه، وأما الغِنى الكُلِّي فعنده البغي التامّ. وأما الذي عليه سنَّةُ الله عز وجل فهو الذي جمع الأمرين مُشتملاً على خوفٍ للغني من الفقراء يَزَعُه عن الظُّلم، وخوفٍ للفقير من الأغنياء أكثرَ منه يدعوه إلى التعاون لِيفوزَ بمبتغاه، ويَزَعُه عن البغي، ثم قد يَتَّفق بغيٌ من هذا أو ذاك.

كذا قرَّره صاحبُ «الكشف» ثم قال: وهذا جوابٌ حسنٌ لا تَكَلُّفَ فيه، وهو إشارةٌ إلى ردِّ العلَّامة الطيبي، فإنه زعم أنه جوابٌ مُتَكلَّف، وأن السؤال قويّ، وذهب هو إلى أنَّ المرادَ بـ «عبادِه» مَنْ خصَّهم الله تعالى بالكَرامة وجعلهم من أوليائه، ثم قال: وينصره التذييلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ ووضع المُظهر موضعَ المُضمَر، أي: إنه تعالى خبيرٌ بأحوال عبادِهِ المُكرمين بصيرٌ بما يُصلحهم وما يُرْدِيهم، وإليه ينظرُ ما ورد عنه ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ تعالى عبداً حماهُ الدنيا كما يظلُّ أحدُكم يحمي سَقِيمَه الماء»[1] ويشدُّ من عَضُدِه قولُ خَبَّاب بن الأرَتّ: نظرنا إلى أموالِ بني قريظةَ والنضير وبني قَيْنُقاع فتمنَّيناها، فنزلت ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ الآية، وقولُ عمرو بن حريث[2]: طلبَ قومٌ من أهل الصُّفَّة من الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان ﷺ.

(٢) المخزومي، كان من بقايا أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا نزلوا الكوفة، مولده قُبيل الهجرة، توفي سنة (٨٥هـ). السير ٣/ ٤١٧.

أن يُغنيهم اللهُ تعالى ويبسطَ لهم الأموالَ والأرزاق، فنزلت[١]، وعليه تفسيرُ محيي السنة[٢]. انتهى.

ولا يخفى أن الأنسبَ بحال المُكرَمين المُصْطَفين من عباده تعالى أن لا يُبْطِرهم الغِنى لِصفاء بَواطنهم وقُوَّة توجُّههم إلى حظائر القُدس، ومَزيد تعلُّق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الأشياء، وكمالِ عِلْمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناءُ الدنيا لو فكَّروا في ذلك حقَّ التفكُّر لهان أمرُهم وقَلَّ شَغَفُهم كما قيل:

لو فكَّر العاشقُ في مُنتهى ... حُسن الذي يَسْبيهِ لم يَسْبهِ[٣]

فلعلَّ الأولى ما تقدَّم، أويقال: إنَّ هذا في بعض العباد المؤمنين، فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم من الجَدْب، ولذلك خُصَّ بالنافع منه، فلا يقال غيثٌ لكلِّ مطر. وقرأ الجمهور: «يُنْزِلُ» مُخفَّفاً[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يَئِسوا منه، وتقييدُ تنزيله بذلك مع تحقُّقه بدونه أيضاً لتذكير كمال النعمة. وقرأ الأعمش وابن وثاب: «قَنِطوا» بكسر النون[٥].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: منافعَ الغيث وآثارَه في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذُكر انتظاماً أوليًّا.

وقيل: الرحمةُ هنا ظهورُ الشمس؛ لأنه إذا دام المطرُ سُئِم، فتجيء الشمس بعدَه عظيمةَ الموقع. ذكره المهدوي، وليس بشيء.

ومن البعيد جدًّا ما قاله السدي من أن الرحمةَ هنا الغيثُ نفسُه؛ عدَّد النعمة نفسها بلفظين.

وأيًّا ما كان فضميرُ «رحمته» لله عز وجل، وجُوِّز على الأول كونُه للغيث.

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧.

(٤) قرأ بالتخفيف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولَّى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ المستحقُّ للحمد على ذلك، لا غيره سبحانه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع، فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على شؤونه تعالى العظيمة، ومَن له أدنى إنصافٍ وشعورٍ يجزمُ باستحالة صُدورِها من الطبيعة العديمةِ الشعور.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على «السماوات»، أي: ومن آياته خلقُ ما بثَّ، أو عطفٌ على «خَلْقُ»، أي: ومن آياته ما بَثَّ.

و«ما» تحتمل الموصولية والمصدرية، والموصولية أظهرُ، ولا حاجةَ عليه إلى تقدير مضاف، أي: خلق الذي بثَّ، خلافاً لأبي حيان(١).

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: حيوان له دبيبٌ وحركة، وظاهرُ الآية وجودُ ذلك في السماوات وفي الأرض، وبه قال مجاهد، وفسَّر الدابة بالناس والملائكة، ويجوز أن يكون للملائكة مشيٌ مع الطيران. واعترَض ذلك ابنُ المُنيِّر(٢) بأن إطلاق الدابَّةِ على الأناسيِّ بعيدٌ في عُرف اللُّغة، فكيف بالملائكة؟! وادَّعى أنَّ الأصحَّ كونُ الدوابِّ في الأرض لا غير، وما في أحدِ الشيئين يَصْدُقُ أنه فيهما في الجملة، فالآية على أسلوب ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك لقوله تعالى في البقرة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [الآية: ١٦٤] فإنه يدلُّ على اختصاص الدوابِّ بالأرض؛ لأن مَقامَ الإطناب يقتضي ذِكْره لو كان، لا للعمل بمفهوم اللَّقب الذي لا يقول به الجمهور.

والجوابُ أن التي في البقرة لمَّا كانت كلاماً مع الغبيِّ والفَهِم والمُسترشِد والمُعانِد جيء فيه بما هو معروفٌ عند الكلّ؛ وهو بثُّ الدوابِّ في الأرض، وأما هاهنا فجيء به مُدمجاً مختصراً لِمَا تكرَّر في القرآن ـ ولاسيما في هذه السورة ـ مِن كمالِ قُدرته على كلِّ ممكن فقيل: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث

(١) البحر المحيط ٧/ ٥١٨.

(٢) في الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.

فيهما» مُؤثَراً على لفظ الخَلْق لِيدلَّ على التكثير الدالِّ على كَمال القُدرة، وبيّن بقوله تعالى: «مِنْ دابَّة» تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السماوي والأرضي تحقيقاً للمخلوقية، فقد ثبتَ في صحاح الأحاديث ما يدلُّ على وجودِ الدوابِّ في السماء من مراكبِ أهل الجنة وغيرها[١]، وكذلك ما يدلُّ على وجود ملائكةٍ كالأوعال[٢]، بل لا يبعدُ أن يكونَ في كل سماء حيواناتٌ ومخلوقاتٌ على صُوَرٍ شتى وأحوالٍ مختلفة لا نعلمُها، ولم يُذكَر في الأخبار شيء منها، فقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وأهلُ الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظَّاراتهم مخلوقاتٌ في جِرْم القمر لكنهم لم يُحقِّقوا أمرَها لِنَقْص ما في الآلات على ما يدَّعون، ويَحتمِلُ أن يكون فيما عدا القمر، ونفيُ ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة لِيضرَّ القولُ به.

وقيل: المرادُ بالسماوات جهاتُ العُلوّ المُسامتةُ للأقاليم مثلاً. وفي جوِّ كلِّ إقليم، بل كل بلدة، بل كل قطعة من الأرض، حيواناتٌ لا يحصي كَثْرتَها إلا الله تعالى، بعضُها يُحَسُّ بها بلا واسطةِ آلةٍ، وبعضُها بواسطتها.

وقيل: المراد بها السُّحب، وفيها من الحيوانات ما فيها.

وكلُّ ذلك على ما فيه لا يُحتاج إليه، وكذا لا يُحتاج إلى ما ذهب إليه كثيرٌ من أن المرادَ بالدابَّة الحيّ مجازاً؛ إما من استعمال المُقيَّد في المُطلق، أو

---

(١) منها ما أخرجه أحمد (٢٢٩٨٢) عن بريدة الأسلمي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحب الخيل، ففي الجنة خيل؟ قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوته حمراء تطير بك في أيِّ الجنة شئتَ، إلا ركبت» وجاء آخر فقال: يا رسول الله، أفي الجنة إبل؟ قال: «يا عبد الله، إن يدخلك الله الجنة، كان لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذت عينك» وهو حديث ضعيف في إسناده عبد الرحمن المسعودي، اختلط بأخَرة، وكل من روى عنه هذا الحديث ممن روى عنه بعد الاختلاط، وانظر ما ذكره القرطبي في هذا الباب في التذكرة ص٤٨٥.

(٢) أخرج أحمد (١٧٧٠) في حديث طويل عن العباس ﷺ، وفيه «. . . وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض. . .» وفي إسناده يحيى بن العلاء البجلي، قال الدارقطني: متروك الحديث، وقال أحمد: كذاب يضع الحديث. كما في التقريب.

إطلاقِ الشيء على لازمه، أوالمُسبَّبِ على سببه؛ لأن الحياةَ سببٌ للدبيب وإن لم تكن الدابَّةُ سبباً للحي، فيكون مجازاً مُرسلاً تبعيّاً؛ لأن الاحتياجَ إلى ذلك عدولٌ عن الظاهر، ولا يُعدَلُ عنه إلا إذا دلَّ دليلٌ على خِلافه، وأين ذلك الدليل؟! بل هو قائمٌ على وجودِ الدوابِّ في السماء كما هي موجودةٌ في الأرض.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البَعْث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ ذلك ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ تامُّ القُدرة كامِلُها، و«إذا» متعلِّقة بما قبلها لا بـ «قدير»؛ لأن المُقيَّدَ بالمشيئة جَمْعُهُ تعالى لا قُدْرتُه سبحانه، وهي كما تدخلُ على الماضي تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ما أشاءُ أَبعثُ منها آخرَ الليل ناشطاً مذعورا[1]

وقولُ صاحب «الكشف»: لقائلٍ أن يُفرِّق بين «إذا» و«إذا ما» = الظاهرُ أنه ليس في مَحَلِّه، وقد نصَّ الخفاجي على عدمِ الفرقِ، وجعل القولَ به تَوَهُّماً[2]، وكذا نصَّ على أنها تدخلُ على الفِعلين ظرفيةً كانت أوشرطية. وقيَّد ذلك الطيبيُّ بما إذا كانت بمعنى الوقت كما هنا.

وضمير «جمعهم» قيل: للسماوات والأرض وما فيهما على التغليب. وهو كما ترى. وقيل: للدوابِّ المفهوم مما تقدَّم، وضمير العقلاء للتغليب المناسب، لكون الجمع للمحاسبة. وقيل: للناس المعلوم من ذلك، ولعله الأولى.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيُّ مصيبة كانت من مصائبِ الدنيا، كالمرض وسائر النَّكَبات ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فبسببِ معاصيكم التي اكتسبتموها، و«ما» اسمٌ موصول مبتدأ، والمبتدأ إذا كان موصولاً صِلتُه جملةٌ فعلية تدخلُ على خبره الفاءُ كثيراً لما فيه من معنى الشرط لإشعاره بابتناء الخبر عليه، فلذا جيء بالفاء هنا.

---

(١) البيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٣٣، وفيه: مطلع، بدل: آخر.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٢.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر في رواية وشيبة: «بما» بغير فاء[١]؛ لأنها ليست بلازمة، وإيقاعُ المبتدأ موصولاً يكفي في الإشعار المذكور، وحُكي عن ابن مالك أنه قال: اختلافُ القراءتين دلَّ على أن «ما» موصولة، فجيء تارةً بالفاء في خبرها وأُخرى لم يُؤتَ بها حظّاً للمشبَّه عن المشبَّه به.

وجوِّز كون «ما» شرطية، واستظهره أبو حيان[٢] في القراءة بالفاء، وجعلها موصولةً في القراءة الأُخرى بناءً على أنَّ حذفَ الفاء من جواب الشرط مخصوصٌ بالشعر عند سيبويه نحو:

مَـن يَـفْـعَـلِ الـحَـسَـنـاتِ اللهُ يـشـكـرُهـا[٣]

والأخفش وبعضُ نُحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال أبو البقاء: حذفُ الفاء من الجواب حسنٌ إذا كان الشرطُ بلفظ الماضي[٤]. ويُعلم منه مزيدُ حسن حَذْفها هنا على جعل «ما» موصولة.

﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقِبُ عليها بمصيبة عاجلاً، قيل: وآجلاً.

وجُوِّز كونُ المراد بالكثير الكثيرَ من الناس. والظاهرُ الأول، وهو الذي تشهدُ له الأخبار؛ روى الترمذي عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُصيبُ عبداً نكبةٌ فما فوقَها، أو دونها، إلا بذنبٍ، وما يعفو اللهُ تعالى عنه أكثرُ، وقرأ (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ)»[٥].

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، والبحر ٧/ ٥١٨، وعنه نقل المصنف.

(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٨.

(٣) كتاب سيبويه ٣/ ٦٥، وعجزه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مثلان. واختلف في قائله؛ قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٥١: نسبه سيبويه وخَدَمَتُه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ﷺ، ورواه جماعة لكعب بن مالك الأنصاري. وقد سلف ٦/ ١٥٢.

(٤) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٢/ ٦٣١.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأخرج ابنُ المنذر وجماعةٌ عن الحسن قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ إلخ، قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ خَدْشِ عودٍ، ولا اختلاجِ عِرْقٍ، ولا نكبةِ حَجَرٍ، ولا عَثْرةِ قَدَم، إلا بذنب، وما يعفو اللهُ عز وجل عنه أكثرُ»(١).

وأخرج ابن سعد عن أبي مُليكة أنَّ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت تُصَدَّع فتضعُ يَدَها على رأسها وتقول: بذنبي، وما يَغفِرُه اللهُ تعالى أكثرُ(٢).

ورؤي على كفِّ شُريح قرحةٌ، فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يدي(٣).

وسُئل عمران بن حُصين عن مرضه فقال: إنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إلى الله تعالى، وهذا بما كَسَبتْ يدي(٤).

والآيةُ مخصوصةٌ بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم، فإنَّ مَنْ لا ذَنْبَ له كالأنبياء عليهم السلام قد تُصيبهم مصائب؛ ففي الحديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل»(٥) ويكون ذلك لرفع درجاتِهم أو لحِكَم أُخرى خَفِيتْ علينا، وأما الأطفال والمجانين فقيل: غيرُ داخلين في الخِطاب؛ لأنه لِلمُكلَّفين، وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيصُ بأصحابِ الذنوب، فما يُصيبهم من المصائب فهو لحِكَم خَفِيَّة.

وقيل: في مصائب الطفل رفعُ درجته ودرجةِ أبويه، أومن يُشفق عليه بحسن الصبر.

ثم إنَّ المصائبَ قد تكون عقوبةً على الذنب وجزاءً عليه بحيث لا يُعاقَبُ عليه يومَ القيامة، ويدلُّ على ذلك ما رواه أحمد في «مسنده» والحكيم الترمذي وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: ألا أُخبركم بأفضلِ آيةٍ في كتاب الله تعالى

---

(١) وأخرجه هناد في الزهد (٤٣١)، وهو مرسل.
(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥١.
(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.
(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٩.
(٥) أخرجه أحمد (١٤٩٤) من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٨٩.

حدَّثنا بها رسولُ الله ﷺ: «﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ وسأُفَسِّرها لك يا علي: ما أصابك من مرض، أوعقوبةٍ أوبلاءٍ في الدنيا فبما كسبَتْ أيديكم، واللهُ تعالى أكرمُ من أنْ يُثَنِّيَ عليكم العقوبةَ في الآخرة، وما عفا اللهُ تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرمُ من أنْ يعودَ بعد عَفْوه»[1].

وزعم بعضُهم أنها لا تكون جزاءً؛ لأنَّ الدنيا دارُ تكليف، فلو حصل الجزاءُ فيها لكانت دارَ جزاء وتكليف معاً، وهو مُحالٌ، فما هي إلا امتحانات.

وخبرُ عليٍّ كرم الله وجهه يَرُدُّه، وكذا ما صحَّ من أنَّ الحدودَ ـ أي: غير حدّ قاطع الطريق ـ مُكَفِّرات[2]، وأيُّ مُحالية في كون الدنيا دارَ تكليف ويقع فيها لبعض الأشخاص ما يكون جزاءً له على ذَنْبه، أي: مُكَفِّراً له.

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحدّ قال: المعنى: ما أصابكم من حدٍّ من حدود الله تعالى فإنما هو بكسب أيديكم وارتكابِكم ما يُوجبه، ويعفو اللهُ تعالى عن كثيرٍ، فيستره على العبدِ حتى لا يُحَدَّ عليه. وهو مما تأباه الأخبار، ومع هذا ليس بشيء، ولعله لم يَصِحَّ عن الحسن.

وفي «الانتصاف»: إن هذه الآية تُبْلِسُ عندها القدرية[3]، ولا يُمكنهم ترويجُ

---

(١) مسند أحمد (٦٤٩) بهذا اللفظ، وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سخيلة، وهما مجهولان كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. وأخرجه بنحوه بإسناد آخر ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥)، والترمذي (٢٦٢٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرج البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا... فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» وفي رواية لمسلم (١٧٠٩) (٤٣): «...ومن أتى منكم حدّاً فأُقيم عليه فهو كفارته..» وينظر ما قاله الحافظ ابن رجب في هذا الباب في جامع العلوم والحكم شرح الحديث الثامن عشر.

(٣) أي: تنقطع فلا يكون لها حجةٌ، ويقال للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أَبْلَس. اللسان (بلس). وجاء بدلاً منها في الانتصاف: تنكسر.

حيلة في صرفها عن مقتضى نَصِّها، فإنهم[١] حملوا قولَه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] على التائب، وهو غيرُ مُمكن لهم هاهنا، فإنه قد أثبت التبعيضَ في العفو، ومُحالٌ عندهم أن يكون العفوُ هنا مقيَّداً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيضها أيضاً، وهي عندهم لا تتبعَّض، كما نقل الإمامُ عن أبي هاشم، وهو رأسُ الاعتزال، والذي تولَّى كِبره منهم، فلا محلَّ لها إلا الحقُّ الذي لا مِرْيةَ فيه، وهو ردُّ العفو إلى مشيئة الله تعالى غيرَ موقوفٍ على التوبة[٢].

وأُجيب عنهم بأنَّ لهم أن يقولوا: المرادُ: ويعفو عن كثير فلا يُعاقِبُ عليه في الدنيا، بل يُؤخِّر عقوبته في الآخرة لمن لم يَتُبْ. وأنت تعلمُ ما دلَّ عليه[٣] خبرُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بجاعلين اللهَ سبحانه وتعالى عاجزاً عن أنْ يُصيبكم بالمصائب بما كَسبتْ أيديكم وإنْ هربتُم في أقطار الأرض كلَّ مَهْرب، وقيل: المرادُ: إنكم لا تُعجِزون مَن في الأرض من جنوده تعالى، فكيف مَن في السماء. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ من مُتَولٍّ بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب. وقيل: يَحميكم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ يدفعها عنكم.

والجملة كالتقرير لقوله تعالى: «ويعفو عن كثير» أي: إن اللهَ تعالى يعفو عن كثيرٍ من المصائب إذْ لا قُدرة لكم أن تُعجزوه سبحانه فتفوِّتوا ما قضى عليكم منها، ولا لكم أيضاً من متولٍّ بالرحمة غيره عز وجل لِيرحمكم إذا أصابتكم، ولا ناصرَ سواه لِينصُرَكم منها، ولهذا جاء عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ هذه أرجى آية في القرآن للمؤمنين[٤]. ويقوِّي أمرَ الرجاء ـ على ما قيل ـ أن معنى «ما أنتم».. إلخ: ما أنتم بمعجزين اللهَ تعالى في دَفْعِ مصائبكم، أي: إنه سبحانه قادرٌ على ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السُّفن الجواري، أي: الجارية، فهي صفةٌ لموصوف

---

(١) في (م): فإنها.
(٢) الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.
(٣) قوله: عليه، ساقط من (م).
(٤) أورده القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٨.

محذوف، لِقرينة قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ وبذلك حَسُنَ الحذفُ، وإلا فهي صفةٌ غير مختصة، والقياس فيها أن لا يُحذف الموصوف، وتقوم مقامَه. وجوَّز أبو حيان[١] أن يقال: إنها صفةٌ غالبة، كالأبطح، وهي يجوز فيها أنْ تليَ العواملَ بغير ذكر الموصوف.

و«في البحر» مُتعلِّق بالجواري، وقولُه تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في موضع الحال. وجُوِّز أن يكون الأولُ أيضاً كذلك. و«الأعلام» جمع: عَلَم، وهو الجبل، وأصلُه الأثرُ الذي يُعلم به الشيء، كعلَم الطريق، وعَلَم الجيش، وسُمِّي الجبلُ عَلَماً لذلك، ولا اختصاصَ له بالجبل الذي عليه النارُ للاهتداء، بل إذا أريد ذلك قُيِّد كما في قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به   كأنه عَلَمٌ في رأسهِ نارُ[٢]

وفيه مبالغةٌ لطيفة، وحُكي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمَّا سَمِعه: «قاتَلها اللهُ تعالى، ما رَضِيَتْ بتشبيهه بالجبل حتى جَعلَتْ على رأسهِ ناراً»[٣].

وقرأ نافع وأبو عمرو: «الجواري» بياء في الوصل دون الوقف، وقرأ ابنُ كثير بها فيهما، والباقون بالحذف فيهما[٤]. والإثباتُ على الأصل، والحذفُ للتخفيف، وعلى كلٍّ فالإعراب تقديري، وسُمع من بعض العرب الإعرابُ على الراء.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ويعدمُ سببَ تموُّجها، وهو تكاثفُ الهواء الذي كان في المحلّ الذي جرت إليه، وتراكم بعضه على بعض، وسببُ ذلك التكاثف إما انخفاضُ درجة حرارة الهواء فيقلّ تمدُّده ويتكاثفُ ويَتركُ أكثرَ المحلّ الذي كان مشغولاً به خليّاً، وإما تجمُّع فُجائيٌّ يحصل في الأبخرة المُنتشِرة في الهواء فيخلو مَحلّها، وهذا ـ على ما قيل ـ أقوى الأسباب، فإذا وجدَ الهواءُ أمامَه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

(٢) ديوان الخنساء ص٤٩.

(٣) أورده الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٧٥، ولم نقف عليه مسنداً.

(٤) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨. وقرأ أبو جعفر كقراءة نافع وأبي عمرو، وقرأ يعقوب كقراءة ابن كثير.

فراغاً بسبب ذلك جرى بقوة لِيشْغَله فتحدث الريحُ وتستمرُّ حتى تملأ المحلَّ.

وما ذُكر في سبب التموُّج هو الذي ذكره فلاسفةُ العصر. وأما المُتقدِّمون فذكروا أشياءَ أُخر، ولعلَّ هناك أسباباً غيرَ ذلك كلِّه لا يعلمها إلا الله عز وجل، والقولُ بالأسباب تحريكاً وإسكاناً لا يُنافي إسنادَ الحوادث إلى الفاعل المُختار جلَّ جلاله وعَمَّ نَوالُه.

وقرأ نافع: «الرياح» جمعاً[1].

﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيصِرْنَ ثوابتَ عل ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات لا غيرَ مُتحرِّكات أصلاً. وفسَّر بعضُهم «يَظْللن» بـ: يَبْقَيْنَ، فيكون «رواكد» حالاً، والأولُ أَوْلى.

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام[2]، والقياسُ الفتح؛ لأن الماضي مكسورُ العين، فالكسر في المضارع شاذٌّ، وقال الزمخشري[3]: هو من ظلَّ يَظَلُّ ويَظِلُّ بالفتح والكسر، نحو: ضلَّ ـ بالضاد ـ يَضِلُّ ويَضَلُّ، وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه ليس كما ذكر؛ لأن يَضَلُّ بالفتح مِنْ ضَلِلْتُ بالكسر، ويَضِلُّ بالكسر مِنْ ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مَقِيسٌ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من السُّفن المُسَخَّرة في البحر تحت أَمره سبحانه وحَسَب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً على عَظَمةِ شؤونه عزَّ وجل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لكلِّ مَن حبس نَفْسَه عن التوجه إلى ما لا ينبغي ووكل هِمَّته بالنظرِ في آيات الله تعالى والتفكُّرِ في آلائه سبحانه، فالصبرُ هنا حَبْسٌ مخصوصٌ، والتفكُّر في نِعَمِهِ تعالى شُكر.

ويجوز أن يكونَ قد كَنَى بهذين الوَصْفين عن المؤمن الكامل؛ لأنَّ الإيمانَ

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٥٢.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٧١.
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

نِصْفُه صبرٌ ونِصْفُه شُكْر[١]. وذكر الإمام[٢] أنَّ المؤمنَ لا يخلو من أن يكون في السراء والضرَّاء، فإن كان في الضراء كان من الصابرين، وإنْ كان في السرَّاء كان من الشاكرين.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطفٌ على «يُسكن»، أي: أو: يُهْلِكهنَّ بإرسال الريحِ العاصفة المُغرقة، والمرادُ ـ على ما قال غيرُ واحد ـ إهلاكُ أهلِها؛ إما بتقدير مضاف، أوبالتجوُّز بإطلاق المحلّ على حالِّه، أوبطريق الكناية؛ لأنه يلزمُ من إهلاكها إهلاكُ مَنْ فيها، والقرينةُ على إرادة ذلك قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصلُه: أويُرسلها ـ أي: الريح ـ فيُوبقهنَّ؛ لأنه قَسيم «يُسكن» فاقتصر فيه على المقصود من إرسالها عاصفةً، وهو إما إهلاكُهم أوإنجاؤهم المرادُ من قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾ إذ المعنى: أويُرسِلها فيُوبق ناساً بذنوبهم ويُنْجِ ناساً على طريق العفو عنهم، وبهذا ظهر وجهُ جزم «يَعْفُ» لأنه بمعنى يُنْجِ معطوف على يُوبق، ويُعلم وجه عَطْفه بالواو لأنه مُندرجٌ في القَسيم، وهو إرسالها عاصفة. وعلى هذا التفسير تكون الآيةُ متضمنةً لإسكانها ولإرسالها عاصفةً مع الإهلاك والإنجاء، وإرسالُها باعتدالٍ معلومٌ من قوله سبحانه: «الجواري» فإنها المطلوبُ الأصلي منها.

وقال بعض الأجِلَّة: التحقيقُ أنَّ «يعفُ» عطفٌ على قوله تعالى: «يُسْكِن الريح» إلى قوله سبحانه: «بما كسبوا» ولذا عُطِفَ بالواو لا بـ «أو»، والمعنى: إنْ يَشَأْ يُعاقبهم بالإسكان، أوالإعصاف، وإن يشأ يَعْفُ عن كثير[٣].

وجوَّز بعضُهم[٤] حَمْلَ «يُوبقهنَّ» على ظاهره؛ لأنَّ السفنَ من جُملة أموالهم

---

(١) يشير إلى حديث أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أنس، الإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩)، وفي إسناده عتبة بن السَّكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. كما في ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و٤/ ٤١٨. وسلف ١١/ ٣٧٢.

(٢) في تفسيره مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٧٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٣.

(٤) المصدر السابق.

التي هلاكُها والخسارةُ فيها بذنوبهم أيضاً، وجعلَ الآيةَ مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ إلخ.

وقرأ الأعمش: «يَعْفُوْ» بالواو الساكنةِ آخره[1]، على عَطْفه على مجموع الشرط والجواب، دون الجواب وحدَه، كما في قراءة الجزم، وعن أهل المدينة أنهم قرؤوا: «يعفوَ» بالواو المفتوحة[2] على أنه منصوبٌ بـ «أنْ» مُضمرة وجوباً بعد الواو، والعطفُ على هذه القراءة على مصدر مُتصيَّد من الكلام السابق، كأنه قيل: يقع[3]، وهو من العطف على المعنى، وهذا مذهب البصريين في مِثْل ذلك، وتُسمَّى هذه الواو واوَ الصَّرف، لِصَرْفها عن عَطْف الفعل على[4] المجزوم قبلَها إلى عطف مصدر على مصدر. ومذهبُ الكوفيين أنَّ الواو بمعنى «أنْ» المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها.

واختار الرضي أن الواو إما واو الحال، والمصدرُ بعدَها مبتدأٌ خبره مُقدَّر، والجملةُ حاليةٌ، أو واو المعية، ويُنصب بعدَها الفعل لِقَصْد الدلالة على معية الأفعال، كما أن الواو في المفعول معه دالةٌ على مصاحبة الأسماء فعدلَ به عن الظاهر ليكونَ نصّاً في معنى الجمعية.

والمشهورُ اليوم على ألسنةِ المُعرِبين مذهبُ البصريين، وعليه خرَّج أبو حيان[5] النصبَ في هذه القراءة، وكذا خرَّج غيرُ واحد ومنهم الزجَّاج[6] النصبَ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ - أي: من مَهْرَب ومَخْلَص من العذاب - على ذلك، وجعلوا الجزاءَ بمنزلة الإنشاء كالاستفهام، فكأنه تقدَّم أحدُ الأمور الستة[7]، ولم يرتضِ ذلك الزمخشري، وقال: فيه نظرٌ، لما أورده

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠، وهي قراءة شاذة.

(٣) كذا وقع في الأصل و(م)، والتقدير كما في البحر ٧/ ٥٢٠، والدر المصون ٩/ ٥٥٨: أو يقع إيباقٌ وعفوٌ عن كثير.

(٤) قوله: على، ليس في (م).

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩.

(٧) وهي: الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٤.

سيبويه في «الكتاب» قال: واعْلم أنَّ النصبَ بالفاء والواو في قوله: إنْ تأتني آتِك وأُعطِيَكَ، ضعيف، وهو نحوٌ من قوله:

وألحقُ بالحجازِ فأَستريحا[1]

فهذا تجوُّز، وليس[2] بِحدِّ الكلام ولا وجهِهِ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أنْ يكونَ من الأول فعل، فلما ضارعَ الذي لا يُوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضَعْف[3].

ولا يجوز أن تُحمل القراءةُ المُستفيضة على وجهٍ ضعيف ليس بحدِّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا البابِ لما أخلى سيبويه مِنها كتابَه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المُشكلة[4]. انتهى.

وخرَّج هو النصب في «يعلم» على العطف على عِلَّة مُقدَّرة، قال: أي: لينتقم منهم ويَعْلَمَ الذين.. إلخ. وكم من نظيرٍ له في القرآن العظيم، إلا أن ذلك مع وجودِ حرف التعليل كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقولِه سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال أبو حيان[5]: يُبْعِدُ هذا التقرير أنه ترتَّب على الشرط إهلاكُ قوم ونجاةُ قوم، فلا يحسن: لِينتقمَ منهم.

وأُجيب بأنَّ الآيةَ مخصوصةٌ بالمجرمين، فالمقصودُ الهلاكُ، ويجوز أن يُقدَّر: ليظهرَ عظيم قُدرته تعالى ويعلمَ الذين يُجادلون، فلا يَرد عليه ما ذُكر. ويَحسنُ ذلك التقدير في توجيه النصب في «يعفوَ» على ما رُوي عن أهل المدينة إذا خُدش التوجيهُ السابق بما نُقل عن سيبويه، فيقال: إنه عطفٌ على تعليل مُقدَّر، أي: لِينتقمَ منهم ويعفوَ عن كثير.

---

(١) البيت للمغيرة بن حبناء الحنظلي، وصدره كما في الخزانة ٨/ ٥٢٢: سأترك منزلي لبني تميم.
(٢) في الأصل و(م): ولا، والمثبت من الكتاب والكشاف، وفيهما: يجوز، بدل: تجوّز.
(٣) الكتاب ٣/ ٩٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٢.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

وقراءة النصب في «يعلمَ» هي التي قرأ بها أكثرُ السبعة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر والأعرج وشيبة وزيد بن عليٍّ بالرفع[١]. وقَرَّر في «الكشف» وجهَه بأنه على عطفِ «يعلم» على مجموع الجملة الشرطية، على معنى: ومِن آياته الدالَّة على كَمال القُدرة السفنُ في البحر، ثم ذكر وجهَ الدلالة، وأنها مُسخَّرة تحت أمره سبحانه تارةً بتضمُّن نفع مَن فيها، وتارة بالعكس، ثم قال جلَّ وعلا: ويعلمُ الذين يُعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرةِ، بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع إلى الآية المبحوث عنها شهادةً بأنها من آيات الله تعالى، وزيادةً للتحذير وذمٌّ الجِدال فيها، وليكون على أُسلوب الكناية على نحو: العرب لا تَخفِرُ الذِّمم، فكأنه لمَّا قيل: إن يشأ يُسكن الريحَ، وذكر سبب الدلالة، صار في معنى: يعلمها ويعترفُ بها المُتدبِّرون في آياتنا المسترشدون، ويعلمُ المجادِلون فيها المُنكِرون ما لهم مِنْ مَحيص. وجاز أن يُجعلَ عطفاً على قوله تعالى: «ومن آياته الجوار» وتُجعل هذه وحدَها آيات لِتضمُّنها وجوهاً من الدلالة أُقيمت مُقامَ المُضمر، والمعنى: ومِن آياتهِ الجوارِ ويَعلمُ المجادلون فيها، واعتُرض بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه ببيان وجه الدلالة، لِيدلَّ على موجبِ وعيدِ المُجادِل، وعلى كونها آيةً، بل آيات.

ونُقِلَ عن ابن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفعُ بالعطف على موضعِ الجزاء المُتقدِّم باعتبار كونه جملةً لا باعتبار عطفِ مُجرد الفعل ليجب الجزمُ، فتكون الجملتان مشتركتين في المُسبَّبية، وفيه بحثٌ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقرئ: «ويَعْلَمْ» بالجزم[٢]، وخُرِّج على العطف على «يعفُ»، وتسبُّبُه عن الشرط باعتبارِ تضمُّنِ الإخبار عن علم المُجادِلين بما يحلُّ بهم في المستقبلِ الوعيدَ والتحذيرَ، كما قيل:

سوف تَرى إذا انجلى الغُبار ... أَفَرَسٌ تحتَكَ أَمْ حمارُ[٣]

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، وقراءة الأعرج وشيبة وزيد بن علي في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥٢١.

(٣) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٣٤٥، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٤٤.

ومرجعُ المعنى على ذلك: أنه تعالى إنْ يشأ يعصِف الريحَ فيُغرق بعضاً ويُنجِ آخرين عفواً، ويُحذِّر جماعة أخرى.

واعتُرض بأنَّ التخصيصَ بالمُجادِلين في هذا التحذير غيرُ لائح، وأيضاً عِلْمهم بأن لا مَحيص من عذاب الله تعالى على تقديرِ عصف الريح بأهل السُّفن على سبيل العِبرة، ولا اختصاصَ لها بهم ولا بهذا المَقدور خاصة.

وأُجيب عن الأول بأنَّ التخصيصَ بالمُجادلين لأنهم أولى بالتحذير، وعن الأخير بأنه أُريد أنَّ البَرَّ والبحر لا يُنجيان من بأسه عز وجل، فهو تعميم.

واختار في «الكشف» كونَ التخريج على أنَّ الآيةَ في الكافرين بمعنى: إنْ يشأ يعصِفِ الريحَ فيُغرقْ بعضَهم ويُنجِ آخرين منهم عفواً، ويعلموا ما لهم من مَحيص فلا يغترُّوا بالنجاة والعفو في هذه المرة، فالمُجادِلون هم الكثير الناجون، أوبعضهم، وهو على مِنوال قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ٦٩].

ومن مجموع ما سمعتَ يلوح لك ضَعْفُ هذه القراءة، ولهذا لم يُقرأ بها في السبعة.

والظاهرُ على القراءات الثلاث أن فاعلَ «يعلم»: «الذين»، وجُملة «ما لهم مِنْ مَحيص» سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولين، وفي «الدر المصون»[1] أنَّ الجملة في قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية، أي: وهو يعلم الذين، ولا يخفى أنَّ الظاهر على الاحتمال الثاني كون «الذين» مفعولاً أولاً، والجملةِ مفعولاً ثانياً، والفاعل ضميره تعالى المُستتر. وأوجب بعضُهم هذا على قراءة الجزم وعطفِ «يعلم» على «يَعْفُ»؛ لئلا يخرجَ الكلامُ عن الانتظام، ويظهرَ قصدُ التحذير؛ لشيوع أنَّ علمَ الله تعالى يكون كنايةً عن المجازاة، وهو كما ترى.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أيّ شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهرُ أنَّ الخطابَ للناس مطلقاً، وقيل: للمشركين، و«ما» موصولة مبتدأ والعائدُ محذوفٌ، أي: أُوتِيتُموه، والخبرُ ما بعدُ، ودخلت الفاء لِتضمُّنها معنى الشرط.

---

(١) ٩/ ٥٥٨.

وقال أبو حيان[١]: هي شرطية مفعولٌ ثانٍ لـ «أوتيتم»، و«من شيء» بيانٌ لها، وقوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعُها تتمتَّعون به مدَّة حياتِكم فيها، جوابُ الشرط.

والأول أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً لِخُلوصِ نَفْعهِ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يزولُ ولا يفنى؛ لأنَّ الظاهرَ أن «ما» فيه موصولةٌ، وإنما لم يُؤتَ بالفاء في خبرها مع أنَّ الموصولَ المبتدأ إذا وُصل بالظرف يتضمَّن معنى الشرط أيضاً؛ لأنَّ مُسبَّبية كون الشيء عند الله تعالى لخيريَّته أمرٌ معلوم مُقرَّرٌ غنيٌّ عن الدلالةِ عليه بحرف موضوعٍ له، بخلاف ما عندَ غيره سبحانه. والتعبيرُ عنه بأنه عند الله تعالى دون: ما ادّخرَ، لذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إما مُتعلّق بـ «أبقى»، أواللام لبيان مَن له هذه النعمة، فهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: ذلك للذين آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لا على غيره تعالى أصلاً.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: اجتمع لأبي بكر ﷺ مالٌ فتصدَّق به كلّه في سبيل الله تعالى، فَلامَهُ المسلمون وخطَّأَهُ الكافرون، فنزلت[٢].

والموصولُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مع ما بعدُ إما عطفٌ على الموصول الأول، أو هو مدحٌ مرفوعٌ على الخبرية لمبتدأ محذوف، أومنصوب بمقدَّر، كأعني، أو أمدح، والواو اعتراضيةٌ كما ذكره الرضي، وَغَفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكُر العطفَ، وذكَر بدله البدل[٣].

و«كبائر الإثم» ما رُتِّب عليه الوعيد، أو ما يُوجب الحدَّ، أو كلُّ ما نَهى اللهُ تعالى عنه. والفواحشُ: ما فَحُشَ وعَظُمَ قُبحه منها.

وقيل: المرادُ بالكبائر ما يتعلَّق بالبدع واستخراجِ الشُّبُهات. وبالفواحش

---

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وخبر إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ دون ذكر الآية.

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٥٢٢، والذي في الإملاء ٤/ ٢٩٤ خلافُ ذلك، ففيه: «الذين يجتنبون» معطوف على قوله تعالى: «للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون». .

ما يتعلَّق بالقوة الشهوانية. وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ما يتعلَّق بالقوة الغَضَبية. وهو كما ترى.

والمراد بالإثم الجنس، وإلا لقيل: الآثام، و«إذا» ظرف لـ «يغفرون»، و«هم» مبتدأ لا تأكيد لضمير «غضبوا» وجوَّزه في «البحر»[1]، وجملة «يغفرون» خبره، وتقديمه لإفادة الاختصاص؛ لأنه فاعلٌ معنوي، واختصاصُهم باعتبار أنهم أحقَّاء بذلك دون غيرهم، فإنَّ المغفرة حالَ الغضب عزيزةُ المَنال[2]. وفي الآية إيماءٌ إلى أنهم يَغْفِرون قبل الاستغفار.

وقيل: «هم» مرفوعٌ بفعل يُفسِّره «يغفرون»، ولمَّا حُذف انفصل الضمير. وليس بشيء.

وجَعَل أبو البقاء[3] «إذا» شرطيةً، وجملةَ «هم يغفرون» جواباً لها.

وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه يلزم الفاء حينئذ، ولا يجوز حذفُها إلا في الشعر. وتقدَّم لك آنفاً ما ينفعك تذكُّره فتذكَّر.

وقرأ حمزة والكسائي: «كبير الإثم» بالإفراد[5] لإرادة الجنس أوالفرد الكامل منه، وهو الشرك، ورُوي تفسيره به عن ابن عباس ﵄، ولا يلزم التكرار؛ لأنَّ المراد الاستمرارُ والدوام.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قيل: نزلَتْ في الأنصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له، فأثنى عليهم جلَّ وعلا بما أثنى، وعليه فهو من ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ لبيان شَرَفِهِ؛ لإيمانهم دون تردُّد وتَلَعْثُم، والآية إنْ كانت مدنيةً فالأمر ظاهرٌ، وإذا كانت مكية فالمرادُ بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهِجرة[6]، أوالمراد بهم أصحابُ العقبة.

---

(١) ٧/ ٥٢٢.
(٢) في (م): المثال.
(٣) في الإملاء ٤/ ٢٩٥ (بهامش الفتوحات الإلهية).
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٥) وقرأ بها خلف. التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.
(٦) ينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٦.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى ومراجعةٍ في الآراء بينهم، بناءً على أنَّ الشورى مصدرٌ كالبُشرى، فلا يَصِحُّ الإخبار؛ لأنَّ الأمر مُتشاوَرٌ فيه لا مشاورةٌ إلا إذا قصد المبالغة. وأُورِد أنه يقال من غير تأويل: شأني الكرم، والأمر هنا بمعنى الشأن، نعم إذا حُمل على القضايا المُتشاوَر فيها احتاج إلى التأويل أو قَصْدِ المبالغة.

وقيل: إن إضافةَ المصدر للعموم فلا يصحُّ الإخبار إلا بالتأويل. ورُدَّ بأن المرادَ: أمرهم فيما يُتشاوَرُ فيه لا جميعِ أُمورهم. وفيه نظر.

وقال الراغب: المشورة: استخراجُ الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرْتُ العسلَ وأَشرته: استخرجته، والشورى: الأمر الذي يُتشاوَرُ فيه[1]. انتهى. والمشهور كونه مصدراً.

وجيء بالجملة اسميةً مع أنَّ المعطوفَ عليه جملةٌ فعلية للدلالة على أنَّ التشاورَ كان حالَهم المستمر قبل الإسلام وبعدَه. وفي الآية مدحٌ للتشاور لاسيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر؛ وقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أراد أمراً فشاور فيه وقضى، هُدِيَ لأَرشد الأمور»[2].

وأخرج عبد بن حُميد والبخاري في «الأدب»[3] وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ[4] أمرهم، ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وقد كانت الشورى بين النبيِّ ﷺ وأصحابه فيما يتعلَّق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام، كقتال أهل الرِّدة وميراث الجدّ وعَدَدِ حدِّ الخمر وغير ذلك.

والمرادُ بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نصٌّ شرعيٌّ، وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليقُ بالمسلم العُدولُ عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (شور).

(٢) شعب الإيمان (٧١٣٢).

(٣) الأدب المفرد (٢٥٨)، والدر المنثور ٦/ ١٠.

(٤) في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ١٠: وأرشد، وفي الأدب المفرد (٢٥٨): لأفضل حالهم. وأخرجه الطبري ٦/ ١٩٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠ والمثبت منهما.

الحكيم الخبير، ويُؤيِّد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، الأمر ينزلُ بنا بعدَك لم ينزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسمع منك فيه شيء؟ قال: «اجمعوا له العابدَ من أُمَّتي، واجعلوه بينكم شورى ولا تَقْضوه برأي واحد»(١).

وينبغي أن يكون المستشارُ عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيبُ أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «استرشدوا العاقلَ تُرشَدوا ولا تَعْصوه فتندموا»(٢).

والشورى على الوجهِ الذي ذكرناه من جملة أسبابِ صلاح الأرض؛ ففي الحديث: «إذا كان أُمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم أسخياءَكم، وأمرُكم شورى بينكم، فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم مِن بَطْنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم، وأغنياؤكم بُخلاءَكم، وأمرُكم إلى نسائكم، فبَطْنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهرها»(٣).

وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفسادُها للدين والدنيا أكثرَ من إصلاحها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ أي: في سبيل الخير؛ لأنه مَسوقٌ للمدح ولا مدحَ بمجرد الإنفاق، ولعلَّ فصله عن قرينه بذِكْر المُشاورة؛ لأن الاستجابةَ لله تعالى وإقامَ الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ أي: ينتقمون ممن بغَى عليهم على ما جعلَه الله تعالى لهم، ولا يعتدُون، ومعنى الاختصاص أنهم الأخِصَّاء بالانتصار وغيرُهم يعدو ويَتجاوز، ولا يُراد أنهم ينتصرون ولا يغفِرون، ليِتناقضَ هو والسابق، فكأنه وَصَفَهم سبحانه بأنهم الأخصاء بالغُفران لا يغولُ الغضبُ أحلامَهم كما يغول في غيرهم، وأنهم الأخِصَّاء بالانتصار على ما جُوِّز لهم إن كافؤوا، ولا يعتدون كغيرهم، فهم محمودون في الحالتين بين حَسَنٍ وأحسن، مخصوصون بذلك من بين الناس.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠، وهو عند الخطيب في جامع بيان العلم (١٦١٢).

(٢) ذكره عن الخطيب الذهبيُّ في الميزان ٢/ ٢١٨ وفي إسناده سليمان بن عيسى السِّجْزي، كذَّبه أبو حاتم، وقال ابن عدي: يضع الحديث. كما في الميزان.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

وقال غير واحد: إن كُلّاً من الوصفين في محلّ، وهو فيه محمود، فالعفو عن العاجزِ المعترفِ بِجُرمه محمودٌ، ولفظ المغفرة مُشْعِرٌ به، والانتصار من المخاصِم المُصرِّ محمودٌ، ولفظُ الانتصار مُشْعِرٌ به، ولو أُوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين، وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَه وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمرَّدا
فوضعُ النَّدى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضعِ النَّدى[1]

وقد يُحمد كلٌّ ويذمُّ باعتبارات أُخَر، فلا تناقضَ أيضاً سواء اتَّحد الموصوفان في الجملتين أَوْ لا.

وقال بعض المُحقِّقين[2]: الأوجهُ أن لا يُحمل الكلامُ على التخصيص، بل على التقوِّي، أي: يفعلون المَغفرة تارةً والانتصارَ أُخرى لا دائماً، للتناقض. وليس بذاك.

وعن النخعي أنه كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: كانوا يَكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترئَ عليهم الفُسَّاق. وفيه إيماءٌ إلى أن الانتصار من المُخاصِم المُصِرّ، وإلا فلا إذلالَ للنفس بالعفو عن العاجز المُعترف.

ثم إنَّ جملةَ «هم ينتصرون» من المبتدأ والخبر صلة الموصول، و«إذا» ظرفُ «ينتصرون»، وجُوِّز كونها شرطيةً، والجملة جوابُ الشرط، وجملةُ الجوابِ والشرط هي الصِّلة. وتعقَّبه أبو حيان[3] بما مَرَّ آنفاً.

وجُوِّز أيضاً كون «هم» فاعلاً لمحذوف، وهو كما سمعت في «وإذا ما غضبوا» إلخ.

وقال الحوفي[4]: يجوز جعل «هم» توكيداً لضمير «أصابهم». وفيه الفصلُ بين

---

(١) البيتان للمتنبي، وهما في ديوانه ٢/ ١١.
(٢) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٥.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٤) كما في البحر ٧/ ٥٢٢.

المُؤكِّد والمُؤكَّد بالفاعل، ولعلَّه لا يمتنع، ومع هذا فالوجهُ في الإعراب ما أشرنا إليه أولاً.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ بيانٌ لما جُعل للمنتصِر، وتسميةُ الفعلة الثانية ـ وهي الجزاءُ ـ سيئةً، قيل: للمُشاكلة. وقال جار الله[1]: تسميةُ كِلتا الفعلتين سيئةً؛ لأنها تسوءُ مَنْ تنزِلُ به. وفيه رِعايةٌ لحقيقة اللفظ، وإشارةٌ إلى أنَّ الانتصارَ مع كونه محموداً إنما يُحمَدُ بشرط رِعاية المُماثلة، وهي عَسِرة، ففي مَساقِها حثٌّ على العفو من طريق الاحتياط.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ أي: عن المُسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما بينه وبين مَنْ يُعاديه بالعفو والإغضاء عما صَدَر منه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيجزيه جلَّ وعلا أعظمَ الجزاء، تصريحٌ بما لَوَّح إليه ذلك من الحَثِّ، وتنبيهٌ على أنه وإن كان سلوكاً لِطريق الاحتياط يتضمَّنُ مع ذلك إصلاحَ ذات البين المحمود حالاً ومآلاً، ليكون زيادةَ تحريضٍ عليه. وإبهامُ الأجر وجَعْلُه حقّاً على العظيم الكريم جلَّ شأنه الدالّ على عِظَمه زيادةٌ في الترغيب. وجيء بالفاء لِيفرِّعه عن السابق، أي: إذا كان سلوكُ الانتصار غيرَ مأمون العِثار، فمن عفا وأَصلحَ فهو سالكُ الطريقَ المأمون العِثار المحمودَ في الدَّارين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ المُتجاوزين الحدَّ في الانتقام، تتميمٌ لذلك المعنى، وتصريحٌ بما ضُمِّن من عُسر رِعاية طريق المُماثلة، وأنه قَلَّما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لاسيما في حال الحَرَد[2] والتهاب الحَمِيَّة، فيكون دُخولاً في زُمرة مَن لا يُحبه اللهُ تعالى. ولا حاجةَ على هذا المعنى إلى جعل «فمن عفا» إلخ اعتراضاً، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلِّقاً بـ «جزاء سيئة سيئة مِثْلُها» على أنه تعليلٌ لما يُفهم منه، فالفاءُ غيرُ مانعةٍ عنه كما تُوُهِّم، وأَدخل غيرُ واحدٍ المُبتدئين بالسيئة في الظالمين.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٧٣.

(٢) الحَرَد: الغضب. مختار الصحاح (حرد).

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلم، بالبناء للمجهول، وقرئ به[1]، فالمصدر مُضافٌ لمفعوله، أوهو مصدرُ المبني للمفعول. واللام للقسم، وجُوِّز أن تكون لامَ الابتداء جيء بها للتوكيد، و«مَنْ» شرطيةٌ أو موصولة، وحُمِلَ «انتصر» على لفظها وحُمِلَ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ - أي: للمُعاقب ولا للعاتب والعائب - على معناها.

والجملة عطفٌ على «من عفا»، وجِيء بها للتصريح بأنَّ ما حضَّ عليه إنما حضَّ عليه إرشاداً إلى الأصلح في الأغلب، لا أنَّ المنتصِرَ عليه سبيلٌ بوَجْهٍ حالاً أومآلاً، ولإيهام الحضِّ خلافَ ما تضمَّنتْه من نفي السبيل على العموم صُدِّرت باللام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ تعيينٌ لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين، والمرادُ بالذين يظلمون الناس من يبتدؤونهم بالظُّلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حدَّ لهم. وفَسَّر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم ما لا يستحقُّونه، وهو أعمّ.

﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يتكبَّرون فيها تجبُّراً وفساداً.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظُّلم والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢﴾ بسبب ظُلمهم وبَغْيهم، والمرادُ بهؤلاء الظالمين الباغين الكَفَرة. وقيل: من يَعُمُّهم وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ تحذير عن الظلم والبغي وما يؤدِّي إلى العذاب الأليم بوجه، وفيه حضٌّ على ما حضَّ عليه أولاً، اهتماماً به وزيادةَ ترغيب فيه. فالصبرُ هنا هو الإصلاح المُؤَخَّر فيما تقدَّم، قُدِّم هاهنا وعبَّر عنه بالصبر لأنه من شأن أُولي العَزْم، وإشارةً إلى أنَّ الإصلاح بالعفو والإغضاء إنما يُحمد إذا كان عن قُدرة لا عن عَجْز.

و«ذلك» إشارةٌ إلى المذكور من الصبر والمغفرة، و«عزم الأمور» الأمور المعزومة المقطوعة، أوالعازمة الصادقة. وجُوِّز في «مَن» أن تكون موصولةً وأن تكون شرطية. وفي اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قَسمية، واكتفي بجواب القسم عن جواب الشرط، وإذا جُعِلَتِ اللام للابتداء و«مَنْ» شرطيةً، فجملة «إنَّ ذلك» جوابُ الشرط،

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٣.

وحُذفت الفاء منها، ومَن يخصُّ الحذفَ بالشعر لا يُجوِّز هذا الوجه.

وذكر جماعةٌ أن في الكلام حذفاً، أي: إن ذلك منه لمن عَزْم الأمور، وعلّل ذلك بأن الجملة خبرٌ، فلا بدَّ فيها من رابط، و«ذلك» لا يصلح له؛ لأنه إشارةٌ إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنياً عنه لأن المرادَ صبره، أو«ذلك» رابطٌ، والإشارة لـ «مَن» بتقدير: من ذوي عزم الأمور، تكلُّف.

هذا، واختار العلامة الطيبي أن تسمية الفعلة الثانية التي هي الجزاء سيئةً من باب التهجين دون المُشاكلة، وزعم أن المُجازي مُسيء، وبنى على ذلك رَبْطَ جملة «إنه لا يحب الظالمين» بما قبلُ، فقال: يمكن أن يقال: لمَّا نُسب المُجازي إلى المساءة في قوله سبحانه: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» والمسيء في هذا المقام مفسد لِمَا في البين بدليل «فمن عفا وأصلح» علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه: «إنه لا يحب الظالمين» كأنه قيل: مَنْ أخرجَ نفسَه بالعفو والإصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد كان مُقْسِطاً، إنَّ اللهَ يحب المُقسِطين، فوضع موضعَه «فأجره على الله» ومَن اشتغل بالمُجازاة وانتسب إلى السيئة، وأفسد ما في البين، وحرم نفسَه ذلك الأجرَ الجزيل كان ظالماً نفسَه «إنه لا يحب الظالمين» فالآية واردةٌ إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين.

وقال: إن قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظُلمه» إلخ خطابٌ للوُلاة والحُكَّام، وتعليمٌ فِعْلَ ما ينبغي فِعْلُه بدليل قوله سبحانه: «إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمون الناس» حيث أعاد السبيلَ المُنكَّر بالتعريف وعلَّق به «يظلمون الناس» وفسَّره بقوله تعالى: «عذابٌ أليم»، وكذا قوله سبحانه: «ولمن صبر وغفر» إلخ تعليمٌ لهم أيضاً طريقَ الحكم، يعني أن صاحبَ الحقِّ إذا عدلَ من الأَوْلى وانتصر من الظالم فلا سبيلَ لكم عليه لما قد رُخِّص له ذلك، وإذا اختار الأفضل فلا سبيلَ لكم على الظالم؛ لأن عفوَ المظلوم من عزم الأمور، فتعاونوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

وفي «الكشف»: إنَّ جَعْلَ ما ذكر خطاباً للولاة والحُكَّام يوجب التعقيدَ في الكلام، فالمعوَّل عليه ما قدمناه، وقد جاءت أخبارٌ كثيرة في فضل العافين عمَّن ظَلمهم، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«قال موسى بن عِمران عليه الصلاة والسلام: يا رب مَنْ أعزُّ عبادك عندك؟ قال: مَنْ إذا قدر غَفَر»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا وقف العبادُ للحساب نادى مُنادٍ: لِيَقُم مَنْ أجرُه على الله تعالى فَلْيدخُلِ الجنة، ثم نادى الثانيةَ: لِيَقُمْ مَنْ أجره على الله تعالى، قالوا: ومَنْ ذا الذي أجرُه على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوا الجنة بغير حساب»(٢).

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل عليه الصلاة والسلام يعجبُ ويتبسَّم، فلما أكثرَ ردَّ عليه بعضَ قوله، فغضب النبيُّ ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسولَ الله، كان يَشْتِمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضَ قوله غَضِبْتَ وقُمتَ! قال: «إنه كان معك مَلَكٌ يردُّ عنك، فلما رَدَدْتَ عليه بعضَ قوله وقع الشيطانُ، فلم أكن لأَقْعدَ مع الشيطان»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ مِن الحقِّ: ما من عبدٍ ظُلم بمظْلِمةٍ فَيُغضي عنها لله تعالى إلا أعزَّ الله عز وجل بها نَصْره، وما فتح رجلٌ باب عطية يُريد بها صلةً إلا زاده الله تعالى بها كَثْرةً، وما فتح رجلٌ باب مسألة يُريد بها كثرةً إلا زاده الله تعالى بها قِلَّةً»(٣). واستشكل هذا الخبر بأنه يُشعر بعتب أبي بكر رضي الله عنه، وهو نوعٌ من السبيل المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. وأُجيب بأنَّا لا نُسلم ذلك، وليس فيه أكثرُ من تنبيهه رضي الله عنه على ترك الأَوْلى، وهو شيء والعتبُ شيء آخر، وكذا لا يُعَدُّ لوماً كما لا يخفى.

ومن الناس من خصَّ السبيلَ في الآية بالإثم والعِقاب، فلا إشكال عليه أصلاً.

وقيل: هو باقٍ على العموم إلا أن الآية في عوامِّ المؤمنين ومَن لم يبلغ مبلغَ أبي بكر رضي الله عنه، فإنَّ مثلَه يُلام بالشتم ـ وإن كان بحقٍّ ـ بحضرة رسولِ الله ﷺ قبلَ أن

---

(١) شعب الإيمان (٨٣٢٧).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١، وشعب الإيمان (٨٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (١٩٩٨).

(٣) الدر المنثور ٦/ ١١، ومسند أحمد (٩٦٢٤)، وسنن أبي داود (٤٨٩٧).

يأذنَ له به قالاً أوحالاً، بل لاح عليه ﷺ ما يُشعر باستحسان السُّكوت عنه، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين.

وقد أمرَ ﷺ بعضَ الأشخاص بردِّ الشَّتم على الشاتم؛ أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: دخلَتْ عليَّ زينبُ رضي الله عنها وعندي رسولُ الله ﷺ فأقبلَتْ عليَّ تَسُبُّني، فوزعَها النبيُّ عليه الصلاة والسلام فلم تَنْتهِ، فقال لي: «سُبِّيها» فَسَبَبْتُها حتى جفَّ ريقُها في فمها ووجهُ رسول الله ﷺ يتهلَّل سروراً[1]. ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيراً لزينب رضي الله عنها بلسان عائشةَ رضي الله عنها لِمَا أنَّ لها حقّاً في الردّ ورأى المصلحة في ذلك.

وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضي أن يُعزِّرَ من استحقَّ التعزيرَ بشتم غير القذف، وكذا للزوج أن يُعزِّرَ زوجته على شَتْمها غير محرم، إلى أمور أُخر. فتأمَّل.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي رعايةَ المُماثلة مطلقاً، وفي «تفسير الإمام»[2] أن الآيةَ تقتضي وجوبَ رعايةِ المُماثلة في كلِّ الأمور إلا فيما خصَّه الدليلُ، لأنه لو حُملت المُماثلة فيها على المماثلة في أمرٍ معيَّن فهو غير مذكور فيها، فيلزم الإجمال، وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص، ومعلومٌ أن دفع الإجمال أولى من دفع التخصيص.

والفقهاءُ أدخلوا التخصيصَ فيها في صور كثيرة تارةً بناءً على نصٍّ آخرَ أخصَّ، وأخرى بناءً على القياس، ولا شكَّ أنَّ مَن ادَّعى التخصيصَ فعليه البيانُ، والمُكلَّف يكفيه أن يتمسَّك بها في جميع المطالب. وعن مجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه الله تعالى. فليقل: أخزاه اللهُ تعالى، وإذا قَذَفه قَذْفاً يُوجب الحدَّ فليس له ذلك، بل الحدّ الذي أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان[3] عن الجمهور أنهم قالوا: إذا بغى مؤمنٌ على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصرَ منه بنفسه بل يرفعُ ذلك إلى الإمام أو نائبه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠، وسنن النسائي الكبرى (٨٨٦٥)، وسنن ابن ماجه (١٩٨١)، وفيه بدل: «سُبِّيها»: «دونك فانتصري» وهو في المسند (٢٤٦٢٠)، وقد أخرج البخاري (٢٥٨١) حديثاً طويلاً، وفيه قصة زينب رضي الله عنها بنحوها.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٨١.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٣.

وفي «مجمع الفتاوى»[١]: جاز المُجازاة بمثله في غير مُوجب حدٍّ، للإذن به «ولمن انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» والعفوُ أفضلُ «فمن عفا وأَصلحَ فأجره على الله».

وقال ابن الهُمام[٢]: الأولى أنَّ الإنسانَ إذا قيل له ما يُوجب التعزير أن لا يُجيبه، قالوا: لو قال له: يا خبيثُ، الأحسن أن يكفَّ عنه ويرفعَه إلى القاضي لِيؤدِّبه بحضوره، ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت، لا بأس.

وفي «التنوير» وشرحه: ضرب غيره بغير حقٍّ وضربه المضروبُ أيضاً، يُعزَّران، كما لو تشاتما بين يدي القاضي ولم يتكافأا[٣].

وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يُعدَلُ عنه إلا لنصّ، وظاهرُ كلام العلامة الطيبي أن المظلوم إذا عفا لا يلزم الظالمَ التعزير بضربٍ أوحبس أونحوه. وذكر فقهاؤنا أن التعزيرَ يغلَّب فيه حقُّ العبد، فيجوز فيه الإبراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين، ويكون أيضاً حقّاً لله تعالى فلا عفوَ فيه إلا إذا عَلِمَ الإمامُ انزجار الفاعل.. إلى آخر ما قالوا.

ويترجَّح عندي أن الإمام متى رأى بعد التأمل والتجرُّد عن حظوظ النفس تركَ التعزير للعفو سبباً للفساد والتجاسر على التعدِّي وتجاوز الحدود عَزَّر بما تقتضيه المصلحة العامة، ولْيَبْذُلْ وسعه فيما فيه إصلاحُ الدين وانتظامُ أمور المسلمين، وإياه أن يتَّبع الهوى فيضلَّ عن الصراط المستقيم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ما له من ناصر يتولَّاه من بعد خِذلان الله تعالى إيَّاه، فضمير «بعده» لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل: للخِذْلان المفهوم من «يضلل». والجملة عطفٌ على قوله تعالى: «أولئك لهم عذاب أليم»،

---

(١) وهو لأحمد بن محمد بن أبي بكر الحنفي، حيث جمع فيه الفتاوى الكبرى والصغرى للصدر وفتاوى أبي بكر محمد بن الفضل البخاري والسمرقندي وغيرها، ثم اختصره وسماه: خزانة الفتاوى. كشف الظنون ٢/ ١٦٠٣.

(٢) فتح القدير ٤/ ٢١٨.

(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ١/ ٤٤٠.

وكنَى بـ «مَن» عن الظالم الباغي تسجيلاً بأنه ضالٌ مخذولٌ، أوأتى به مُبهماً لِيشمله شُمولاً أوليّاً، فقولُه سبحانه: «ولمن صبر» إلخ اعتراضٌ، لِمَا أشرنا إليه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقُّق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رَجْعة إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ حتى نُؤمِنَ ونعمل صالحاً. وجوِّز أن يكون المعنى: هل إلى ردٍّ للعذاب، ومَنَع منه «من سبيل». وتنكير «مَرَدّ» وكذا «سبيل» للمبالغة، والجملة حال، وقيل: مفعول ثانٍ لـ «ترى».

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المَدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: بسبب الذلّ لِعظم ما لَحِقَهم، فـ «من» سببية متعلِّقة بـ «خاشعين»، وهو وكذا ما بعدَه حال.

وجوِّز أن يُعلَّق الجارُّ بقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويُوقف على «خاشعين» ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ والأول أظهر، والطَّرْف مصدر طَرَفَ: إذا حرَّك عينه، ومنه طَرْفَةُ العين، والمراد بالخَفِيّ الضعيف، و«مِنْ» ابتدائية، أي: يبتدئ نظرُهم من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ بِمُسارقةٍ كما ترى المصبورَ[1] ينظر إلى السيف، وهكذا نظرُ الناظر إلى المكارهِ لا يقدرُ أن يفتحَ أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نَظَره إلى المَحَابّ. ويجوز أن تكون «مِنْ» بمعنى الباء.

وعن ابن عباس: «خَفِيّ»: ذليل، فالطرفُ عليه جَفْنُ العين.

وقيل: يُحشرون عُمياً، فلا ينظرون إلا بقلوبهم، وذاك نظرٌ من طَرْف خَفِيّ. وهو تأويلٌ مُتكلَّف.

والجملتان السابقتان، أعني «ترى الظالمين» و«تراهم يُعرضون» معطوفان على «ومن يُضلل»، وأصلُ الكلام: والظالمون لمَّا رأوا العذابَ يقولون وهم يُعرضون عليها خاشعين، ثم قيل: «وترى» و«تراهم» خطاباً لكلِّ مَنْ يتأتَّى منه الرؤية ويَعتبر بحالهم، زيادةً للتهويل، كأنه يعجبهم مما هم فيه لِيعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأتباعه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾

---

(١) هو مَن يُقتَل في غير حرب، فيقدَّم للقتل موثقاً. حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٦.

بالتعريض للعذابِ الخالد، أو على ما مرَّ في «الزمر»[(١)]. وعدلَ عن: إنهم، إلى المُنزَلِ؛ تسجيلاً عليهم بأكمل الخُسران، إذ المرادُ: إنَّ الكاملين في صِفة الخُسران المتَّصِفين بحقيقته.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مُتعلِّق بـ «خسروا» والقولُ في الدنيا، وجُوِّز أن يكونَ مُتعلِّقاً بـ «قال» والماضي لِتحقُّق الوقوع، أي: ويقولون إذا رَأوهم على تلك الصفة.

وفي «الكشف»: الظاهرُ أنه قولٌ يومَ القيامة كالخُسران، من باب التنازع بين الفعلين. وآثرَ صاحبُ «الكشاف» على ما يُؤذن به صنيعُه أن يتعلَّق بالخسران وحدَه[(٢)]، لأن الأصلَ في «قال الذين آمنوا إن الخاسرين» إلخ: وهم الخاسرون، كما أنَّ الأصلَ في «وترى الظالمين»: والظالمون لما رَأوا، ثم قيل: «وقال الذين آمنوا» على نحو ما قيل: «وترى» إلخ، وكما أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ الدنيا استحضاراً لِعذابهم الكائن في الآخرة تهويلاً، كذلك القولُ، كأنهم جعلهم حضوراً يُعاين عذابَهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم. وروعي[(٣)] الخطاب في الرؤية والغيبةُ في القول لأن مُعاينةَ العذاب لمَّا كانت أَدْخَلَ في التهويل جُعل العذاب قريباً مشاهداً، وخُصُّوا بالخطاب على سبيل استحضارِ الحال لمزيد الابتهاج، ولم يكن في الخُسران ذلك المعنى، لأنه أمرٌ معقولٌ، والمحسوساتُ أقوى، لاسيما إذا كُنَّ مُوجبات الخُسران، فجيء به على الأصل من الغيبة، وعَدَله من المضارع إلى الماضي؛ لأنه قولٌ صادرٌ عن مُقتضى الحال قد حقَّ ووقع، تفوَّهوا به أو لا. وأُسند إلى المؤمنين دلالةً على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عمَّا هم فيه، وإلا فالقولُ والرؤية لكلٍّ من يتأتَّى منه القولُ والرؤية. وجَعْلُه حالاً ـ كما فعل الطيبي ـ على معنى: وتراهم وقد صدق فيهم قولُ المؤمنين في الدنيا: «إن الخاسرين» إلخ، من أسلوب قوله:

إذا ما انتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمةٌ[(٤)]

---

(١) عند الآية (١٥).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٤، ويعني بصنيعه تقديمَه لهذا القول على القول الآخر، وهو أن يتعلق بـ «قال».

(٣) قوله: وروعي، تصحف في (م) إلى: ورد على.

(٤) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٦١، والطبري في تفسيره ٢/ ٥٧، وعجزه: ولم تَجِدِي من أن تُقِرِّي به بُدّا.

وفيه أنه إنما يرتكب عند تعذُّر الحقيقة، وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذُّر. ثم إنه على التقدير لا يظهر أنه قولٌ فيها إلا بدليلٍ خارج، وهذا بخلاف ما ذكره جارُ الله في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾(١) [ق:٢٨] من تقدير: وقد صحَّ عندكم أنِّي قدمت؛ لأن في اللفظ إشعاراً به بيِّناً. انتهى.

ولعمري، لقد أبعد قُدِّس سِرُّه المَغْزى في هذه الآيات العِظام، وأتى بما تستحسنه النُّظَّار من ذوي الأفهام. فليفهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝٤٥﴾ إما من تمام كلامِ المؤمنين، ويجري فيه ما سمعتَ من الأصل ونُكتة العُدول، أو استئنافُ إخبار منه تعالى؛ تصديقاً لذلك.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَسْبَما يزعُمون ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ إلى الهدى أو النجاة.

وقيل: المراد: ما له من حُجَّة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم لما به النجاةُ على لسان رسوله ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الجارُّ والمجرور إما متعلق بـ «مردّ» ويُعامل اسمُ «لا» الشبيهُ بالمضاف معاملتَه، فيترك تنوينُه كما نصَّ عليه ابنُ مالك في «التسهيل»(٢)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا مانعَ لما أعطيتَ»(٣)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] أي: لا يردُّه الله تعالى بعد ما حكم به.

ومن لم يرضَ بذلك قال: هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: ذلك من الله تعالى، والجملة استئنافٌ في جواب سؤال مقدَّر تقديره: ممن ذلك؟ أو حالٌ من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر «لا»، أو متعلِّق بالنفي أو بما دلَّ عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]. وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي».

---

(١) الكشاف ٤/٨.
(٢) ص٦٨.
(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وتُعقِّب بأنه خلافُ المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليلُ الفائدة. وجوِّز كونه صفة لـ «يوم»، وتُعقِّبَ بأنه ركيكٌ معنًى.

والظاهرُ أن المرادَ بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم وُرود الموت كما قيل.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ملاذٍ تلتجئون إليه، فتخلصون من العذاب، على أن «ملجأ» اسمُ مكان، ويجوزُ أن يكونَ مصدراً ميمياً.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ۝٤٧﴾ إنكار، على أنه مصدرُ أنكر على غير القياس، ونفيُ ذلك مع قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] تنزيلاً لما يقع من إنكارهم منزلةَ العَدم لِعدم نَفْعهِ، وقيام الحُجَّة، وشهادة الجوارح عليهم، أو يقال: إن الأمرين باعتبار تعدُّد الأحوال والمواقف.

وجُوِّز أن يكون «نكير» اسمَ فاعل للمبالغة، أي: ما لكم مُنكِرٌ لأحوالكم غير مُميِّز لها لِيرحمكم، وهو كما ترى.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تلوينٌ للكلام وصرفٌ له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيهٌ له إلى الرسول ﷺ، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمَّا تدعوهم إليه فلا تهتمَّ بهم، فما أرسلناك رقيباً ومُحاسباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ لا الحفظُ، وقد فَعلْتَ.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من الصِّحة والغِنى والأمن ونحوها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أُريد بالإنسان الجنس الشامل للجميع، وهو حينئذ بمعنى الأناسي أو الناس، ولذا جمع ضميره في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق، والجمعية لا تتوقَّف عليه، فكأنه قيل: وإنْ تُصب الناسَ أو الأناسي ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ من مرض وفقرٍ وخوفٍ وغيرها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما صدرَ منهم من السيئات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ۝٤٨﴾ بليغُ الكُفر ينسى النعمة رأساً، ويذكر البليةَ ويستعظمها، ولا يتأمَّل سببها، بل يزعُم أنها أصابَتْه من غير استحقاق لها.

و«أل» فيه أيضاً للجنس، وقيل: هي فيهما للعهد على أن المرادَ المُجرمون، وقيل: هي في الأول للجنس وفي الثاني للعهد.

وقال الزمخشري: أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لمكانِ ضمير الجمع، ولم يُرِدْ إلا المجرمين، لأن إصابةَ السيئة بما قَدَّمت أيديهم إنما يستقيم فيهم. ثم قال: ولم يَقُل: فإنه لَكَفور لِيُسجِّل على أنَّ هذا الجنس موسومٌ بِكُفْران النِّعم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦][(١)]. فَفَهِمَ منه العلامة الطيبي أنها في الأول للعهد، وأنَّ المرادَ الكُفَّارُ المُخاطبون في قوله تعالى: «استجيبوا لربكم» لِترتُّب «فإن أعرضوا» عليه، ووضع المُظهَر موضع المُضمَر للإشعار بتصميمهم على الكُفران، والإيذانِ بأنهم لا يَرْعَوون مما هم فيه، وأنها في الثاني للجنس ليكونَ المعنى: ليس بِبِدْعٍ من هذا الإنسان المعهودِ الإصرارُ؛ لأن هذا الجنسَ موسومٌ بِكُفران النعم، فيكونَ ذمُّ المطلق دليلاً على ذَمِّ المُقيَّد.

وفي «الكشف»: إنه أراد أنَّ الإنسان - أي: الأول - للجنس الصالح للكلّ وللبعض، وإذا قام دليلٌ على إرادة البعض تعيَّن، وقد قام، لما سلف أنَّ الإصابةَ في غير المجرمين للعِوض المرقِّي[(٢)]، ولم يذهب إلى أن اللام للعهد، وجعل قوله تعالى: «فإن الإنسان كفور» للجنس ليكون تعليلاً للمقيّد بطريق الأولى ومطابقاً لما جاء في مواضعَ عديدة من الكتاب العزيز؛ ولا بأس بأن يجعل إشارةً إلى السالف، فإنه للجنس أيضاً، ويكون في وضع المُظهر موضعَ المُضمَر الفائدةُ المذكورة مراراً، بل هو أدلُّ على القانون الممهد في الأصول، وبكون كليهما للجنس أقول.

وإسناد الكُفران مع أنه صفةُ الكَفرة إلى الجنس لِغلبتهم، فهو مجازٌ عقليّ حيث أُسند إلى الجنس حالُ أغلب أفراده لملابسته الأغلبية، ويجوز أن يُعتبر أغلبُ الأفراد عينَ الجنسِ لِغلبتهم على غيرهم، فيكون المجاز لُغوياً. وكذا يقال في إسناد الفرح إذا كان بمعنى البَطَر فإنه أيضاً من صفات الكَفرة، بل إن كان أيضاً بمعناه المعروف، وهو انشراحُ الصدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٤.

(٢) في الأصل و(م): الموفي، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٧.

الدنيوية، فإنه وإن لم يكن من خواصِّ الكُفَّار، بل يكون في المؤمنين أيضاً اضطراراً أو شُكراً، إلا أنه لا يعمُّ جميع أفراد الجنس. وإنْ قلتَ بعمومه لم تَحتجْ إلى ذلك، كما إذا فسَّرته بالبطر على إرادة العهد في الإنسان. وإصابة السيئة بالذنوب غير عامة للأفراد أيضاً، فحال إسنادها يعلم مما ذكرنا.

وتصديرُ الشرطية الأُولى بـ «إذا» مع إسناد الإذاقة بلفظ الماضي إلى نون العظمة للتنبيه على أنَّ إيصالَ النعمة مُحقَّقُ الوجود كثيرُ الوقوع، وأنه مرادٌ بالذات من الجواد المُطلق سبحانه وتعالى. كما أن تصدير الثانية بـ «إن» وإسناد الإصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بِندرة وقوعها، وأنها بمعْزِل عن الانتظام في سِلك الإرادة بالذات والقصد الأوَّليِّ. وإقامةُ عِلَّة الجزاء مُقامَ الجزاء مبالغةٌ في ذَمِّهم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ استئناف بياني، أو بيانٌ لـ «يخلق»، أو بدلٌ منه بَدَلَ البعض على ما اختاره القاضي(١).

ولمَّا ذكر سبحانه إذاقةَ الإنسان الرحمةَ وإصابته بضدِّها أتبعَ جلَّ وعلا ذلك أن له سبحانه المُلك، وأنه تعالى يَقْسِم النعمةَ والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغةِ، لا كما شاء الإنسان بهواه. وفيه إشارة إلى أن إذاقةَ الرحمةِ ليست للفرح والبَطر، بل للشُّكر لِمُوليها، وإصابة المحنة ليست للكُفْران والجزع بل للرجوع إلى مُبليها، وتأكيدٌ لإنكار كُفرانهم من وجهين: الأول: أن المُلك مُلكه سبحانه من غير مُنازع ومُشارك، يتصرَّف فيه كيف يشاء، فليس على مَن هو أحقرُ جُزء من مُلكه تعالى أن يعترضَ ويريد أن يجريَ التدبير حسب هواه الفاسد.

الثاني: أن هذا المُلك الواسعَ لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذي من شأنه أن يخلقَ ما يشاء، فأنّى يجوز أن يكون تصرُّفه إلا على وجهٍ لا يُتصوَّر أكملَ منه

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٨.

ولا أوفقَ لمقتضى الحِكمة والصواب. وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشُّغل بتعظيم المُنعم المُبلي عن الكُفران والإعجاب.

وناسبَ هذا المَساق أن يدلَّ في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه، لا مَدخل لمشيئة العبد فيه، فلذا قُدِّمت الإناثُ وأُخِّرت الذُّكور، كأنه قيل: يخلق ما يشاء، يهبُ لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه، ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه، فقد كانت العرب تعدُّ الإناثَ بلاءً: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، ولو قدّم المُؤخّر لاختلَّ النظم. وليس التقديمُ لمجرَّد رِعاية مناسبة القُرب من البلاء لِيعارَض بأنَّ الآيةَ السابقة ذُكِرت الرحمةُ فيها مقدَّمة عليه، فناسب ذلك تقديمَ الذكور على الإناث. وفي تعريف الذكور - مع ما فيه من الاستدراك لِقضية التأخير - التنبيهُ على أنه المعروفُ الحاضرُ في قلوبهم أولَ كلِّ خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مُناهم.

ولما قضى الوطر من هذا الأسلوب قيل: «أو يزوجهم» أي: الأولاد «ذكراناً وإناثاً» أي: يخلق ما يهبهم زوجاً؛ لأن التزويجَ جعلُ الشيء زوجاً، فـ «ذكرانا وإناثا» حال من الضمير، والواو قيل: للمعية؛ لأن حقَّه التأخير عن القِسمين سياقاً ووجوداً، فلا تتأتّى المقارنة إلا بذلك، وقيل ذلك لأنَّ المرادَ: يهبُ لمن يشاء ما لا يهواه، ويَهَبُ لمن يشاء ما يهواه، أو يَهَبُ الأمرين معاً، لا أنه سبحانه يجعل من كلٍّ من الجنسين الذكورَ والإناث على حياله زوجاً، ولولا ذلك لَتوهّم ما ذُكر، فتأمَّله. ولِتركُّبه منهما لم يُكرَّر فيه حديث المشيئة، وقدّم المقدَّم على ما هو عليه في الأصل، ولم يُعرَّفْ إذْ لا وجهَ له.

ثم قيل: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يُولد له، فقيِّد بالمشيئة لأنه قِسْم آخر، وكأنه جيء بـ «أو» في«أو يُزوِّجهم» دون الواو كما في سابقه من حيث إنه قسيمُ الانفراد المشترك بين الأولين، ولم يُؤت في الأخير لاتِّضاحه بأنه قسيمُ الهبة المشتركة بين الأقسام المتقدِّمة. فتأمَّل.

وقيل: قدَّم الإناث توصيةً برعايتهن لِضَعْفهنَّ، لاسيما وكانوا قريبي العهد بالوأد، وفي الحديث: «مَن ابتُلي بشيء من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له ستراً

من النار»[١]. وقيل: قُدِّمت لأنها أكثرُ، لِتكثير النسل، فهي من هذا الوجه أنسبُ بالخَلْق المراد بيانُه. وقيل: لِتطييب قلوب آبائهنَّ لما في تقديمهنَّ من التشريف، لأنهنَّ سببٌ لِتكثير مخلوقاته تعالى.

وقال الثعالبي: إنه إشارةٌ إلى ما في تقدُّم ولادتهن من اليُمن، حتى إن أولَ مولود ذَكَر يكون مشؤوماً فيقولون له: بِكْرُ بِكْرين[٢]. وعن قتادة: من يُمن المرأة تَبكيرُها بأُنثى.

وقيل: قُدِّمتْ وأُخِّر الذكور مُعَرَّفاً للمحافظة على الفواصل.

والمناسب للسياق ما علمت سابقاً.

وقال مجاهد في «أو يزوجهم»: التزويجُ أن تلد المرأةُ غلاماً ثم تلد جارية.

وقال محمد بن الحنفية ﷺ: هو أن تَلِدَ توأماً غلاماً وجاريةً.

وزعم بعضُهم أن الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام إناثاً، ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً، ولرسوله محمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ مبالغ جل شأنه في العلم والقُدرة، فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: ما صحَّ لفرد من أفراد البشر. ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ظاهرُه حصرُ التكليم في ثلاثة أقسام: الأول: الوحي، وهو المرادُ بقوله تعالى: «إلا وحيا» وفسَّره بعضُهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أو في المنام، والإلقاءُ أعمُّ من الإلهام، فإن إيحاء أُمِّ موسى إلهامٌ، وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاءٌ في المنام وليس إلهاماً، وإيحاء الزبور إلقاءٌ في اليقظة كما روي عن مجاهد، وليس بإلهام؛ والفرقُ أن الإلهام لا يستدعي صورةَ كلام نفساني، فقد وقد، وأما اللفظي فلا، وأما نحو إيحاء الزبور

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥٧٢)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة ﷺ.
(٢) ثمار القلوب ص٦٦٦، وقوله: بكر بِكْرَين، يعني أن المولود بكر، وكل من أبويه كذلك.

فيستدعيه، وقد جاء إطلاقُ الوحي على الإلقاء في القلب في قولِ عَبيدِ بن الأبرص:

وأَوحــى إلــيَّ الله أنْ قــد تــآمــروا بإبْلِ أبي أَوفى فَقُمتُ على رجلي[1]

فإنه أراد: قَذَفَ في قلبي.

والثاني: إسماع الكلام من غير أنْ يُبصرَ السامعُ مَنْ يُكلِّمه كما كان لموسى، وكذا الملائكة الذين كلَّمهم الله تعالى في قضية خَلْق آدم عليه السلام ونحوهم، وهو المرادُ بقوله سبحانه: «أو من وراء حجاب» فإنه تمثيلٌ له سبحانه بحال المَلِك المُتحجِّب الذي يُكلِّم بعضَ خواصِّه من وراء حجاب يسمع صوتَه ولا يرى شَخْصَه.

والثالث: إرسال المَلَك، كالغالب من حال نبيِّنا ﷺ، وهو حالُ كثير من الأنبياء عليهم السلام، وزَعْم أنه من خصوصيات أُولي العَزْم من المرسلين غيرُ صحيح، وهو المرادُ بقوله عز وجل: «أو يرسل رسولاً» أي: مَلَكاً «فيوحي» ذلك الرسولُ إلى المُرسَل إليه الذي هو الرسول البَشَريُّ «بإذنه» أي: بأمره تعالى وتيسيره سبحانه «ما يشاء» أن يُوحِيَه، وهذا يدلُّ على أن المرادَ من الأول الوحي من الله تعالى بلا واسطة؛ لأنَّ إرسالَ الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول، وبنى المعتزلي على هذا الحصر أن الرؤيةَ غيرُ جائزة؛ لأنها لو صحَّت لصحَّ التكليم مُشافهةً، فلم يصحَّ الحصر.

وقال بعض: المراد حصرُ التكليم في الوحي بالمعنى المشهور، والتكليم من وراء حجاب، وتكليم الرُّسل البشريِّين مع أممهم. واستُبعِدَ بأنَّ العُرف لم يطَّرِدْ في تسمية ذلك إيحاءً.

وقال القاضي: إنَّ قولَه تعالى: «إلا وحياً» معناه: إلا كلاماً خَفِيّاً يُدرَكُ بسرعة، وليس في ذاته مُرَكَّباً من حروف مُقَطَّعة، وهو ما يعمُّ المشافهة كما رُوي في حديث المِعراج[2]، وما وُعد به في حديث الرؤية. والمُهْتَفُ به كما اتَّفق لموسى عليه

---

(١) لم نقف عليه في ديوان عبيد بن الأبرص، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ، وهو في مسند أحمد (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

السلام في الطور، لكن عَطْف قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» عليه يَخصُّه بالأول[1]. فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعها.

وإلى الأول ذهب الزمخشري[2]، وانتصر له صاحب «الكشف» عفا الله تعالى عنه فقال: وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم: إنَّ قولهَ تعالى: «وما كان لبشر» على التعميم يقتضي الحصرَ بوجه لا يخصُّ التكلُّم بالأنبياء عليهم السلام ويدخلُ فيه خطابُ مريم، وما كان لأُمِّ موسى وما يقع للمُحَدَّثين من هذه الأمة وغيرهم، فحملُ الوحي على ما ذهب إليه الزمخشري أولى. ثم إنه يلزم القاضي أن لا يكونَ ما وقع من وراء حِجاب وحياً، لا أنه يُخصِّصه، لأنه نظيرُ قولك: ما كان لك أنْ تُنعم إلا على المساكين وزيد، نعم يحتمل أن يكونَ زيدٌ داخلاً فيهم على نحو: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ﴾[3] [البقرة:٩٨] وهذا يضرُّ القاضي لاقتضائه أن يكون هذا القسم ـ أعني ما وقع من وراء حجاب ـ أعلى المراتب، فلا يكون الثاني هو المشافهة، وتقدير: إلا وحياً من غير حجاب أو من وراء حجاب، خلافُ الظاهر، وفيه فكٌّ للنَّظم؛ لقوله سبحانه: «أو يُرسل» وهو عطفٌ على قوله تعالى: «إلا وحياً»، مع كونه خلافَ الظاهر. وعلى هذا يفسدُ ما بنَى عليه من حديث التنزُّل من القسم الأعلى إلى ما دونه، ومع ذلك لا يدلُّ على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه، بل دلَّ على أنها لو وقعتْ لم يكن معها المكالمة، وذلك هو الصحيحُ؛ لأن الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عز وجل، وهو يقتضي رَفْعَ حجاب المُخاطب المستدعي كوناً وجوديّاً، ثم الكاملُ لتوفيته حقَّ المقامات الكُبرى يكون المحتظي منه بالشهود في مقام البقاء المذكور، ومع ذلك لا يمنعه عن حظّه من سماع الخطاب، لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود، والمقصودُ أن الذي يصحُّ ذوقاً ونقلاً وعقلاً كونُ الخطاب من وراء حجاب ألبتة، وهو صحيحٌ، لكن لا ينفع مُنكرَ الرؤية ولا مُثبتها، وأما سؤال الترقِّي في الأقسام فالجواب عنه أن الترقِّي حاصلٌ بين الأول

---

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٣) قوله: ورسله، ليس في الأصل و(م).

والثاني الذي له سُمِّي الكَليمُ كليماً، وأما الثالث، فلما كان تكليماً مجازيّاً أُخِّر عن القسمين، ولم ينظر إلى أنه أشرفُ من القسم الأول، فإن ذلك الأمر غيرُ راجعٍ إلى التكليم، بل لأنه مخصوصٌ بالأنبياء عليهم السلام. انتهى.

وتُعقِّب ما اعتَرض به على القاضي بأنه لا يَرِدُ، لأن الوحيَ بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مُغايراً لما بعدَه، وليس من شيء من القبيلين حتى يذهب إلى الترقِّي أو التدلِّي، لأنه لا يُعطف بـ «أو» بل بالواو كما لا يخفى. ولزوم أن لا يكون الواقعُ من وراء حجاب وحياً غيرُ مُسلَّم؛ لأنه إنْ أراد أن لا يكون وحياً مطلقاً فغيرُ صحيح؛ لأنَّ قوله تعالى بعدَه: «فَيُوحي بإذنه» قرينةٌ على أن المرادَ بالوحي السابق وحيٌ مخصوص كالذي بعدَه، وإنْ أراد أنه لا يكون من الوحي المخصوص السابق فلا يضرُّه، لأنه عينُ ما عناه، نعم الحصرُ على ما ذهب إليه القاضي غيرُ ظاهر إلا بعدَ ملاحظةِ أنه مخصوصٌ بما كان بالكلام، فتدبَّر.

والظاهرُ أن عائشةَ ﵂ حملت الآيةَ على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاري ومسلم والترمذي عنها أنها قالت: مَنْ زعم أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد كَذَب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾(١).

وأنت تعلم أنَّ أكثرَ العلماء على أن النبيَّ ﷺ رأى ربَّه سبحانه ليلةَ الإسراء لِكَثْرة الروايات المصرِّحة بالرؤية، نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين، لكن الظاهرُ من الرؤية كونها بها. والمروي عن الأشعري وجمعٍ من المُتكلِّمين أنه جلَّ شأنه كلَّمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة، ويُعزى ذلك إلى جعفر بن محمد الباقر وابن عباس وابن مسعود ﵃، وهو الظاهرُ؛ للأحاديث الصِّحاح في مُرادَّة الصلاة واستقرارِ الخمسين على الخَمْس(٢)، وغير ذلك. وعائشةُ ﵂ لم تَنْفِ الرؤية إلا اعتماداً على الاستنباط من الآيات، ولو كان معها خبرٌ لَذَكرتْه،

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم (١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٧٨)، وهو في مسند أحمد (٢٤٢٢٧)، وسلف عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة الأنعام.

(٢) ينظر حديث المعراج الذي سلف تخريجه قريباً.

واحتجاجُها بما ذُكر من الآيات غيرُ تامٍّ، أما عدمُ تمامية احتجاجها بآية «لا تدركه الأبصار» فمشهور، وأما عدمُ تمامية الاحتجاجِ بالآية الثانية فَلِما سمعتَ عن صاحب «الكشف» قُدِّس سِرُّه.

وقال الخفاجي ـ بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصرَ تكليمه سبحانه للبشر في الثلاثة ـ: فإذا لم يَرَهُ جل وعلا من يُكلِّمه سبحانه في وقت الكلام لم يَرَه عز وجل في غيره بالطريق الأولى، وإذا لم يَرَهُ تعالى هو أصلاً لم يَرَه سبحانه غيره، إذْ لا قائل بالفصل. وقد أُجيب عنه في الأصول بأنه يحتمل أن يكون المرادُ حَصْرَ التكليم في الدنيا في هذه الثلاثة، أو نقول: يجوز أن تقع الرؤيةُ حالَ التكليم وحياً إذ الوحي كلامٌ بسرعة، وهولا يُنافي الرؤية[1]. انتهى.

ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده إلا بالتزام أنَّ ما وقع لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يُعَدُّ تكليماً في الدنيا على ما ذكره الشرنبلالي في «إكرام أولي الألباب» لأنه كان في الملكوت الأعلى، وأنه يُستفاد من كلام صاحب «الكشف» منعٌ ظاهر للشرطية في وجه الاستدلال الذي قرَّره، وبعضُهم أجاب بأنَّ العامَّ مُخصَّصٌ بغير ما دليل.

وفي «البحر»: قيل: قالت قريش: ألا تُكلِّم الله تعالى وتنظر إليه إنْ كنتَ نبيّاً صادقاً كما كلَّم جلَّ وعلا موسى ونظر إليه تعالى. فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظُرْ موسى عليه السلام إلى الله عز وجل» فنزلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية[2]. وهذا ظاهرٌ في أن الآيةَ لم تتضمَّن التكليمَ الشِّفاهي مع الرؤية، وكذا ما فيه[3] أيضاً: كان من الكفار خوضٌ في تكليم الله تعالى موسى عليه السلام، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم، فنزلت، فإنَّ عدمَ تَضمُّنها ذلك أدفعُ لتوهُّم التجسيم.

وبالجملة الذي يترجَّح عندي ما قاله صاحبُ «الكشف» قُدِّس سِرُّه أن الآيَةَ لا تنفع مُنكر الرؤية ولا مُثبتها، وما ذُكر من سبب النزول ليس بمتيقَّن الثُّبوت.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٦، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٣) يعني: في البحر المحيط ٧/ ٥٢٦.

ويُفهم من كلام بعضهم أن الوحيَ كما يكون بالإلقاء في الرُّوع يكون بالخطّ؛ فقد قال النخعي: كان في الأنبياء عليهم السلام مَن يُخَطُّ له في الأرض. ومعناه اللغوي يشمل ذلك؛ فقد قال الإمام أبو عبد الله التيمي الأصبهاني[١]: الوحي أصلهُ التفهيم، وكلُّ ما فُهِمَ به شيء من الإلهام والإشارة والكَتْب فهو وحي. وقال الراغب[٢]: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولِتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرَّدٍ عن التركيب، وبإشارةِ ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً﴾ [مريم:١١] فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: اعتبار[٣]، وقيل: كَتَبَ، وجَعَل التسخير من الوحي أيضاً، وحَمل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قُدِّسَتْ أسرارهم من الكلام في هذه الآية.

و«وحياً» ـ على ما قال الزمخشري[٤] ـ مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، وكذا «أن يُرسلَ»؛ لأنه بتأويل إرسالاً. و«من وراء حجاب» ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١] والتقدير: وما صحَّ أن يُكلِّم أحداً في حال من الأحوال إلا مُوحياً أو مُسمعاً من وراء حجاب أو مُرسلاً. وتعقَّبه أبو حيان[٥] فقال: وقوع المصدر حالاً لا ينقاس، فلا يجوز: جاء زيدٌ بُكاءً، تريد: باكياً. وقاس منه المبرِّد[٦] ما كان نوعاً للفعل نحو: جاء زيدٌ مشياً، أو سرعةً، ومنع سيبويه[٧] من وقوع «أنْ» مع الفعل مَوْقعَ الحال، فلا يجوز: جاء زيدٌ أنْ يضحكَ، في معنى ضَحِكاً الواقع موقعَ ضاحكاً.

---

(١) محمد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين، إمام في القراءات والنحو، صنَّف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد. توفي سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٤.

(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (وحي).

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلها محرفة من: أشار، كما في مفردات الراغب.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٧.

(٦) في المقتضب ٣/ ٢٣٤.

(٧) في الكتاب ١/ ٣٧٠.

وأُجيبَ عن الأول بأنَّ القرآنَ يُقاس عليه ولا يلزم أن يُقاس على غيره، مع أنه قد يقال: يكتفى بقياس المبرّد. وعن الثاني بأنه علّل المنع بكون المصدر[1] الحاصل بالسَّبك معرفةً، وهي لا تقع حالاً، وفي ذلك نظرٌ؛ لأنه غيرُ مُطَّرد، ففي «شرح التسهيل»: إنه قد يكون نكرةً أيضاً، ألا تراهم فسَّروا ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] بـ: مفترى، وقد عرض ابنُ جنِّي ذلك على أبي عليٍّ فاستحسنه[2]، وعلى تسليم الاطّراد فالمعرفة قد تكون حالاً لكونها في معنى النكرة كـ: وحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسُّف في هذا.

واختار غيرُ واحدٍ أن «وحياً» بما عُطف عليه منتصبٌ بالمصدر، لأنه نوعٌ من الكلام، أو بتقدير: إلا كلامَ وحيٍ، و«من وراء حجاب» صفةُ كلام أو سماع محذوف، وصفة المصدر تسدُّ مَسَدَّه، والإرسال نوعٌ من الكلام أيضاً بحسب المآل، والاستثناءُ عليه مُفرَّغ من أعمِّ المصادر.

وقال الزجاج: قال سيبويه: سألت الخليلَ عن قوله تعالى: «أو يرسل رسولاً» بالنصب، فقال: هو محمولٌ على أنْ سِوى هذه التي في قوله تعالى: «أن يكلمه الله» لما يلزم منه أن يقال: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُرسِلَ الله رسولاً، وذلك غير جائز، والمعنى: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُكلِّمه الله إلا بأنْ يُوحي أو أن يُرسل[3]. وعليه أن يقدِّر في قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» نحو: أو أن يُسمِعَ من وراء حجاب، وأيّ داعٍ إلى ذلك مع ما سمعت؟!

واختلف في الاستثناء: هل هو متصلٌ أو منقطع؟ وأبو البقاء على الانقطاع[4]، وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ المُفرَّغ لا يتَّصف بذلك، والبحث شهير.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أو من وراء حُجُب» بالجمع[5]، وقرأ نافع وأهل المدينة:

---

(١) قوله: المصدر، ليس في (م).
(٢) قاله ابن جني في الخاطريات كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٠٣، والكتاب ٣/ ٤٩.
(٤) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٩٦.
(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٧.

«أو يرسلُ رسولاً فيوحي» برفع الفعلين[١]، ووجَّهوا ذلك بأنه على إضمار مبتدأ، أي: هو يُرسل، أو هو معطوفٌ على «وحياً» أو على ما يتعلَّق به «من وراء» بناءً على أن تقديره: أو يسمع من وراء حجاب.

وقال العلامة الثاني[٢]: إنَّ التوجيه الثاني وما بعده ظاهرٌ، وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما إضمار المبتدأ فإنْ حُمل على هذا فتقديرُ المبتدأ لغو، وإن أُريد أنها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى «ما كان لبشر» إلخ، وليس يحسن الانتظام. وتُعُقِّب بأنه يجوز أن يكونَ تقديرُ المبتدأ مع اعتبار الحالية، بناءً على أنَّ الجملة الاسمية التي الخبرُ فيها جملةٌ فعلية تُفيد ما لا تُفيده الفعلية الصِّرفة مما يُناسب حالَ إرسال الرسول، أو يقال: لا نُسلِّم أن العطف على «ما كان لبشر» ليس يحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى.

وفي الآية ـ على ما قال ابنُ عطية[٣] ـ دليلٌ على أنَّ من حلفَ أنْ لا يُكلِّم فلاناً فراسَلَه حَنِثَ، لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام، ونقله الجلالُ السيوطي في «أحكام القرآن»[٤] عن مالك، وفيه بحثٌ، والله تعالى الهادي.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ مُتَعالٍ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ يُجري سبحانه أفعالَه على سَنَن الحِكمة، فَيُكلِّم تارةً بواسطة وأخرى بدونها؛ إما إلهاماً وإما خِطاباً، أو إما عياناً وإما خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السابق في تفسير الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ هذا الإيحاء البديع، على أنَّ الإشارة لِمَا بعدَ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وهو ما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام، أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يُحييها حياةً أبدية، وقيل: أي: ومثلَ الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك. وقيل: أي: ومثلَ ذلك الإيحاء المُفصَّل أوحينا إليك، إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعَتْ له الطرقُ الثلاثُ سواء فُسِّر الوحي

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨.
(٢) هو السَّعد التفتازاني، وكلامه في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧.
(٤) وهو كتاب الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣١.

بالإلقاء أم بالكلام الشِّفاهي. وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد أُلقي إليه في المنام كما أُلقي إلى إبراهيم عليه السلام، وألقي إليه عليه الصلاة والسلام في اليقظة على نحو إلقاء الزبور إلى داود عليه السلام. ففي «الكبريت الأحمر» للشعراني نقلاً عن الباب الثاني من الفتوحات المكِّية أنه ﷺ أُعطي القرآن مُجملاً قبلَ جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور.

وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة.

وقال الربيع: هو جبريلُ عليه السلام، وعليه فـ «أوحينا» مُضمَّن معنى أرسلنا، والمعنى: أرسلناه بالوحي إليك لأنه لا يقال: أوحى المَلَكَ، بل: أرسله.

ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﵄ أن المرادَ بهذا الروح مَلَكٌ أعظمُ من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعدْ إلى السماء[1]. وهذا القولُ في غاية الغرابة ولعلَّه لا يَصِحُّ عن هذين الإمامين.

وتنوين «روحاً» للتعظيم، أي: روحاً عظيماً.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الظاهر أنَّ «ما» الأولى نافية، والثانية استفهامية في محلِّ رفع على الابتداء، و«الكتاب» خبر، والجملة في موضع نصب بـ «تدري» وجملة «ما كنت» إلخ حالية من ضمير «أوحينا» أو هي مستأنفةٌ، والمضيُّ بالنسبة إلى زمان الوحي.

واستُشكلت الآيةُ بأن ظاهرَها يستدعي عدمَ الاتِّصاف بالإيمان قبلَ الوحي، ولا يصحُّ ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل البعثة مؤمنون، لعصمتهم عن الكُفر بإجماع مَنْ يُعتدُّ به. وأُجيب بعدَّة أَجوبة:

الأول: أن الإيمان هنا ليس المرادُ به التصديق المجرد، بل مجموع التصديق والإقرار والأعمال، فإنه كما يُطلق على ذلك يطلق على هذا شرعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة:١٤٣] والأعمال لا سبيلَ إلى درايتها من غير سَمْع فهو مُركَّب، والمركَّب ينتفي بانتفاء بعضِ أجزائه، فلا يلزم من انتفاء

(١) مجمع البيان ٢٥/٦٦.

الإيمان المركَّب بانتفاء الأعمال انتفاءُ الإيمان بالمعنى الآخر؛ أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماءُ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قَبل البِعثة، ولذا عبّر بـ «تدري» دون أن يقال: لم تكن مؤمناً، وهو جوابٌ حسن، ولا يلزمه نفي الإيمان عمَّن لا يعمل الطَّاعاتِ، ليكون القولُ به اعتزالاً كما لا يخفى.

الثاني: أن الإيمان إنما يُعنى به التصديقُ بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال، والنبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نَفْسِهِ كما أن أُمَّته ﷺ مُخاطَبون بذلك، ولا شكَّ أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسولُ الله، وما علم ذلك إلا بالوحي فإذا كان الإيمان هو التصديقَ بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموعُ ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديقَ بالله تعالى خاصَّةً المُجْمَعَ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البِعثة، استقام نفي الإيمان قبل الوحي، إلى هذا ذهب ابنُ المُنيِّر(١).

الثالث: أن المرادَ شرائعُ الإيمان ومَعالمه مما لا طريقَ إليه إلا السمع، وإليه ذهب محيي السنة البغوي(٢)، وقال: إنَّ النبيَّ ﷺ كان قبلَ الوحي على دين إبراهيم عليه السلام، ولم تتبيَّن له عليه الصلاة والسلام شرائعُ دينه، ولا يخفى أنه إذا لم يُعتبر كونُ الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاقُ الإيمان على الأعمال وحدَها، وهو خلافُ المعروف.

الرابع: أن الكلامَ على تقدير مضاف، فقيل: التقدير: دعوة الإيمان، أي: ما كنتَ تدري كيف تدعو الخَلْقَ إلى الإيمان، وإليه يُشير كلامُ أبي العالية.

وقال الحسين بن الفضل: أي: أهل الإيمان، أي: لا تدري من الذي يُؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا مَنْ لا يدري.

الخامس: أن المرادَ نفي دراية المجموع، أي: ما كنت تدري قبلَ الوحي

---

(١) في الانتصاف بهامش الكشاف ٣/ ٤٧٧.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢.

مجموعَ الكتاب والإيمان، فلا يُنافي كونه ﷺ كان يدري الإيمان وحدَه. ويأباه إعادةُ «لا».

السادس: أن المرادَ: ما كنت تدري ذلك إذْ كنتَ في المهد، وإليه ذهب علي بن عيسى. وهو خلافُ الظاهر.

والظاهرُ أن المرادَ استمرارُ النفي إلى زمن الوحي، وظاهرُ كلام «الكشف» يميلُ إلى اعتبار نحو ذلك القيد، قال: لعل الأشبهَ أنَّ «الإيمانَ» على ظاهره، والآية واردةٌ في معرِض الامتنان، والإيحاءُ يشمل الإلقاءَ في الرُّوع وإرسالَ الرسول، فالإيمان عَرفَه بالأول، والكتاب بالثاني، على أن الآيةَ تدلُّ على أنه ﷺ عَرَفَهما بعد أن لم يكن عارفاً، وهو كذلك، أمَّا أنه عليه الصلاة والسلام عَرَفهما بعد الوحي فلا، فجاز أن يَعْرِفهما به، وجاز أن يعرفَ واحداً منهما معيَّناً به. وقد دلَّ الدليلُ على أن المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي، والتمسُّك به على أنه ﷺ لم يكن مُتعبّداً بشرع مَن قبله ضعيفٌ؛ لأن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبُّد، بل يلزمه سقوطُ الإثم إن لم يكن تقصيراً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ المتبادرَ أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي، وأما قولُه قُدِّس سِرُّه في تضعيف التمسُّك بذلك على أنه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله أن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبد، فقد قيل عليه: إنه ساقطٌ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إذا لم يدرِ شرعاً فكيف يتعبَّد به.

وقد يُجاب بأنَّ مرادَ المدقّق أنَّ الدرايةَ المنفيَّة الدرايةُ بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع، وعدمُها لا يلزمه عدمُ التعبد، إذ يكفي في التعبد بشرع من قَبله عليه الصلاة والسلام الظنُّ الراجح ثبوتُه، فلعله كان حاصلاً له ﷺ.

ومثلُ هذا الظنّ يكفي المتعبِّدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام، فإنَّ أكثرَ الفروع ظنيَّة، ومن يتتبَّع الأخبار يعلم أن العربَ لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحجِّ والخِتان وإيقاع الطلاق والغُسل من الجنابة وتحريم ذواتِ المحارم بالقَرابة والصِّهر وغير ذلك، وأن النبي ﷺ كان أحرص الناس على

اتِّباع دين إبراهيم عليه السلام. وفي الصحيح أنه ﷺ كان ـ أي: قبل البِعثة ـ يتحنَّث بغار حراء[(١)]، وفسّر التحنُّث بالتحنُّف، أي: اتّباع الحنيفيَّة، وهي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تُبدل ثاء في كثير من كلامهم، وفي رواية ابن هشام في «السير»: يتحنَّف بالفاء بدل الثاء[(٢)]. نعم فُسّر أيضاً بالتعبّد كما في «صحيح البخاري»[(٣)] وباتقاء الحِنْث، أي: الإثم، كالتحرُّج والتأثُّم، وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلّاني في «شرح الصحيح»[(٤)].

ثم إنَّ الظاهرَ أن من قال: إنه ﷺ كان متعبداً بشرع من قبله ليس مرادُه أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع مَن قبلَه، بل بما ترجَّح عنده ﷺ ثبوتُه. والذي ينبغي أن يرجح كونُ ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنه من ذُرِّيته عليهما الصلاة والسلام، وقد كُلِّفت العرب بدينه.

وقال بعضهم: إنَّ عبادته ﷺ التفكُّر والاعتبار، ولعله أيضاً مما ترجَّح عنده عليه الصلاة والسلام كونُه من شريعته عليه السلام، وربما يقال: بما عَلِمه ﷺ لا على ذلك الوجه من شرع مَن قبله أنه ﷺ لم يَزلْ مُوحًى إليه، وأنه عليه الصلاة والسلام متعبَّدٌ بما يُوحى إليه إلا أن الوحيَ السابقَ على البِعثة كان إلقاءً وَنفْثاً في الرُّوع، وما عمل بما كان من شرائع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا بواسطة ذلك الإلقاء، وإذا كان بعضُ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أُوتي الحُكم صبيّاً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأنْ يُوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبيّاً أيضاً، وَمن عَلِمَ مقامه ﷺ وصدَّق بأنه الحبيبُ الذي كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين لم يستبعدْ ذلك، فتأمَّل.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك، وقال ابن عطية[(٥)]: الضَّمير

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٢٣٥.
(٣) الحديث (٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) إرشاد الساري ١/ ٦٢.
(٥) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

للكتاب. وقِيلَ: للإيمان، ورُجِّح بالقُرْب. وقِيلَ: للكتاب والإيمان، ووُحِّدَ لأنَّ مقصدَهما واحدٌ، فهو نظير ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿نُورًا﴾ عظيماً ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايتَه ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحوَ الاهتداء به. والجملة إمّا مستأنفة أو صفة «نوراً»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقريرٌ لهدايته، وبيانٌ لكيفيتها، ومفعول «لتهدي» محذوف ثقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: وإنك لتهدي بذلك النور مَنْ تشاءُ هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ هو الإسلام وسائر الشرائعِ والأحكام.

وقرأ ابنُ السميفع: «لتُهدِي» بضمِّ التاء وكسر الدال مِنْ أَهدى[1]، وقرأ حوشب: «لَتُهدَى» مبنيّاً للمفعول، أي: ليهديك الله. وقُرِئ: «لتدعو»[2].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول وإضافتُهُ إلى الاسم الجليل ثُمَّ وصفُهُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيدِ وجوب سلوكه فإنَّ كونَ جميع ما فيهما مِنَ الموجوداتِ له تعالى خَلْقاً ومُلْكاً وتَصرُّفاً مما يوجبُ ذلك أتمَّ إيجاب.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أمور مَن فيهما قاطبةً لا إلى غيرهِ تعالى، وذلك بارتفاع الوسائط يومَ القيامة، ففيه مِنَ الوعدِ للمهتدين إلى الصِّراطِ المستقيم والوعيدِ للضّالين عنه ما لا يخفى. وصيغة المضارع على ما قرَّرنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال في: «البحر»[3]: المرادُ بها الاستمرار، كما في: زيدٌ يعطي، أي: مِنْ شأنِهِ ذلك. والأولُ أظهرُ، والله تعالى أعلمُ.

❀ ❀ ❀

ومما قاله أربابُ الإشارات في بعض الآيات: قال سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قيل: يشير ذلك إلى إنذار نفسه الشريفة، لأنها أُمُّ قُرى نفوسِ آدمَ

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، ونسب قراءة: «لتدعو» لابن مسعود ﷺ.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.

وأولاده، لأنه ﷺ أول العالمين خَلْقاً ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الأرواح والنفوس، ومن هذا كان آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك سلطانُ العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإنـي وإنْ كـنـتُ ابـنَ آدمَ صـورةً　　فـلـي مـنـه مـعـنًى شـاهـدٌ بـأبـوَّتـي[١]

وقوله سبحانه: «ومَن حولها» يُشير إلى نفوس أهل العالم، وقد أنذر ﷺ كلاًّ حسب استعداده.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: إنه يُشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرَّر ذلك الشيخُ الأكبر قدَّس سرّه بما يطول.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح سماوات القلوب وفيها خزائنُ لطفه تعالى ورحمته عز وجل، وأرض النفوس، وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله، فكلُّ قلب مخزنٌ لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والأنس والرِّضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع في القلب خزائنُ، وكلُّ نفس مخزن لنوع من آثارِ قهره، كالنكرة والجُحود والإنكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشَّره وغير ذلك، وقد يجتمع في النفس خزائن، وفائدةُ الإخبار بأنَّ له سبحانه مقاليدَ ذلك قطعُ أفكار العباد عمن سواه سبحانه في جلب ما يُريدونه ودفع ما يكرهونه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يُشير إلى مقامي المجذوب والسالك، فالمجذوب من الخواصِّ اجتباه ربُّه سبحانه في الأزل، وسلَكه في مسلك من يُحبّهم، واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه، وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة تُوازي عمل الثقلين، فهو في مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، والسالك من العوامِّ سلكه في سلك من يُحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمي الجهد والإنابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يُشير إلى الذين يُجادلون في

(١) ديوان ابن الفارض ص١٠٥.

معرفة الله تعالى بشُبَه العقل الذي استجابَ له تعالى حين دعاه فوصل إلى الحضرة، فهو في كشف وعِيان، وأولئك من وراء ما يزعُمون أنه برهان.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يُشير إلى كفار النفوس، فإنهم شرعوا عند استيلائهم للأرواح والقلوب ما لم يرضَ به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُشير إلى عموم لطفه تعالى، وهو أنواعٌ لا تُحصَى ومراتبُ لا تستقصَى.

وروى السُّلَمي عن سيِّد الطائفة قدِّس سرُّه[1]: اللطيف من نوَّر قلبك بالهدى، وربَّى جسمَك بالغذا ويخرجك من الدنيا بالإيمان ويحرسُك من نار لظى، ويُمكِّنك حتى تنظر وترى. هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استعملوا تكاليفَ الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجِلاء الروح في روضات الجنات في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة، وفي الآخرة في روضات الجنة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حسب مراتبهم في القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات، وعلى قَدْرِ هِممهم.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم أقاربه ﷺ الذين خُلقوا من عنصره الشريف وتحلَّوا بحلاه المُنيف كأئمة أهل البيت، ومودَّتهم يعود نفعها إلى من يودُّهم لأنها سببٌ للفيض، وهم رضي الله عنهم أبوابه، وفي قوله ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها[2]» رمزٌ إلى ذلك، فافهم الإشارة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ لمزيد كرمه جلَّ شأنه، فمتى وفَّق عبداً للتوبة قبلها جوداً وكرماً، وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ: إنْ تبتُ فهل يَقْبَلُني الله

(١) هو الجنيد، وكلامه في تفسير السلمي ٢/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٦، وصحَّح إسناده، وتعقَّبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

تعالى؟ فقال: إنْ يَقْبَلْكَ الله تعالى تَتُبْ إليه سبحانه. فقبولُ الله تعالى سابق على التوبة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الرؤية، فإن الجِنان ونعيمها مخلوقةٌ تقع في مقابلة مخلوق، وهو عمل العمال، والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع إلا فضلاً ربَّانياً، وفي بعض الأخبار أن هذه الزيادة أن يُشفِّعهم في إخوانهم.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الاستجابة للعوامِّ بالوفاء بعهده تعالى، والقيام بحقه سبحانه، والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عز وجل، وللخواصّ بالاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخصِّ الخواصِّ من أهل المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجُّهِ لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول والوصال.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ قيل: فيه إشارة إلى أحوال المشايخ من حيث المريدون؛ فمنهم مَنْ يهب الله تعالى له، ومنهم مَنْ لا تَصرُّفَ له في غيره بالتخريج والتسليك، وهو أشبه شيء بالأنثى من حيث عدمُ التصرُّف، ومنهم مَنْ يَهَبُ سبحانه له مَنْ له قدرةُ التصرف بالتخريج والتسليك، وهو أشبهُ شيء بالذكر، ومنهم مَنْ يَهَبُ له تعالى هذا وهذا، ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لا مُريد له أصلاً.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره الآية المذكورة: اعلم أنَّ المانع من سماع كلام الحقِّ إنما هو البشرية، فإذا ارتفع العبدُ عنها كلَّمه الله تعالى من حيث كلَّم سبحانه الأرواح المجرَّدة عن الموادِّ، والبشر ما سُمِّي بشراً إلا لمباشرته الأمور التي تعوقُه عن اللحوق بدرجة الروح، فلما لم يلحق كلَّمه الله تعالى في الأشياء وتجلَّى سبحانه له فيها بخلاف مَنْ لحق كالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلَّى الحقُّ سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصور، ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربُّه.

واعلم أنَّ الحقيقةَ تأبى أن يُكلِّمَ الله تعالى غيرَ نفسه، أو يسمع غيرَ نفسه، فلا بدَّ إذا خاطب عبداً على قصد إسماعه أن يكونَ جميعَ قواه؛ لأنه محالٌ أن يُطيقَ الحادثُ سماعَ كلام القديم ولم يكن الحقُّ سبحانه قوَّاه عند النجوى، ولذلك خَرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً إذْ لم يكن له استعدادٌ يقبل به التجلّي اللائق بمقامه، وثبتَ نبينا ﷺ، ولمَّا لم يكن للجبل درجةُ المحبة التي يكون بها الحقُّ سَمْعَ عبده وبَصَرَه وجميعَ قواه لم يقدرْ على سماع الخطاب، فَدُكَّ.

واعلم أنَّ حديثَ الحقِّ سبحانه للخلق لا يزال أبداً، غيرَ أن من الناس من يفهم أنه حديثٌ كعمر بن الخطاب ﷺ ومَنْ ورثه من الأولياء، ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول: ظهر لي كذا وكذا، ولا يعرف أن ذلك من حديث الحقِّ سبحانه معه، وكان شيخنا يقول: كان عمرُ من أهل السماع المُطلق الذي يُحدِّثهم الله تعالى في كلِّ شيء، ولكن له ألقاب، وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديثٌ، وإن أجابوه بهم فهي محادثة، وإن سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقِّهم، وإنما هو خطاب أو كلام، وقد ورد في المتهجِّدين أنهم أهل المسامرة، فقد علمت أنَّ الوحي ما يُلقيه الله تعالى في قلوب خواصِّ عباده على جهة الحديث، فيحصل لهم من ذلك علمٌ بأمرٍ ما، فإن لم يكن كذلك فليس بوحي أو خطاب، فإن بعضَ الناس يجدون في قلوبهم علماً بأمرٍ ما مثل العلوم الضرورية عند الناس، فهو علم صحيحٌ، لكن ليس صادراً عن خطاب، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المُسمَّى وحياً، فإنَّ الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كلاماً يستفيد به العلم مَن جاء له.

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحي الإلهام إلا دقائقُ ممتدَّة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة، لأنَّ الملك لا ينزل بوحي على غير نبيٍّ أصلاً، ولا يأمر بأمر إلهي قطعاً؛ لأن الشريعة قد استقرَّت فلم يبقَ إلا وحي المُبشِّرات، وهو الوحي الأعمُّ، ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة، ويكون أيضاً بواسطة، والنبوَّة من شأنها الواسطة، فلا بُّد من واسطة المَلك فيها، لكن الملك لا يكون حال إلقائه ظاهراً بخلاف الأنبياء عليهم السلام، فإنهم يرون المَلَكَ حال

الكلام، والوليُّ لا يشهد المَلكَ إلا في غير حال الإلقاء، فإنْ سمع كلامه لم يَرَهُ، وإن رآه لا يكلِّمه، فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوَّة مع بقاء المُبشِّرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون، فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة، ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد، فإنَّ لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات، ولهذا يُنكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحقِّ لهم كأنه شريعةٌ مستقلة في الظاهر، وليس ذلك بشريعة إنما هو بيانٌ لها، فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير، أما التعريف لأمور مجملة في السنَّة فهو باقٍ لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه، لأنه خبرٌ إلهي، وإخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيَّب على هذا المُلهم، ولا يكون الإلهام إلا في الخير.

و«ألهمها فجورها» على معنى إلهامها إيَّاه لِتجتنبه كما أنَّ إلهامها تقواها لتعمل بها. وأكملُ الإلهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر في الكتب الإلهية، ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزولَ صدأ طبيعته وتنتقش فيها صورُ العالم.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ فهو خطابٌ إلهيٌ يُلقيه على السمع لا على القلب، فيدركه من أُلقيَ إليه، فيفهم منه ما قَصَدَه مَنْ يُسمعه ذلك. وقد يحصل له ذلك في صورة التجلِّي، فتخاطبه تلك الصورة، وهي عين الحجاب، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدلُّ عليه، ويعلم أن ذلك حجابٌ، وأن المتكلِّم منْ وراء ذلك الحجاب، وكل من أدرك صورة التجلِّي الإلهي يعلم أن ذلك هو اللهُ تعالى، فما يزيدُ صاحبُ هذا الحال على غيره إلا بمعرفته أنَّ المخاطِبَ له منْ وراء الحجاب.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشريُّ إلينا إذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين، فإنْ نقلا علماً وجداه في أنفسهما وأفصحا عنه، فذلك ليس بكلام إلهي، ومن الأولياء من يعطي الترجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء والوحي الخاصّ بكل إنسان، فيكون المترجم مُوجداً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة، ويكون روحُ تلك الصور كلامَ الله

عز وجل لا غير، وقد يقول الولي: حدثني قلبي عن ربِّي، يعني به من الوجه الخاصّ.

فاعلم ذلك، وتأمَّل ما قرَّرته لك فإنه نفيس، والله تعالى يتولَّى هداك. وله قدس سرُّه كلامٌ كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو ما به الحياة الطيبة الأبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قبل الإيحاء. قيل: أشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النشأة، وكان له ﷺ في كلِّ حال من أحواله فيها نوعٌ من الوحي والدراية المنفية، إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته قبل إخراجه منها بتجلي كينونته عز وجل، وإلا فهو ﷺ نبيٌّ ولا آدم ولا ماء ولا طين، ولا يعقل نبيٌّ بدون إيحاء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

تمت السورة بتوفيق الله عز وجل، والصلاة والسلام على أوَّل نورٍ أشرق من شمس الأزل وبَهَا، والحمد لله تعالى.